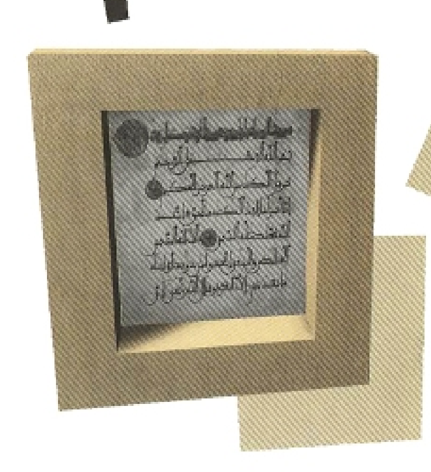
الأستاذ الدكتور/ سعيد عطية علي مطاوع



الإعجاز القصصي في القرآن



دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة
٥٥ - ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٢٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
E-mail : daralafk@hotmail.com

اسم الكتاب الإعجاز القصصي في القرآن
اسم المؤلف : الأستاذ الدكتور/ سعيد عطية علي مطاوع

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٥٧٧١
الترقيم الدولي : 2 - 148 - 344 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م



الإعجاز القصصي في القرآن

الأستاذ الدكتور / سعيد عطية علي مطاوع
رئيس قسم اللغة العبرية - جامعة الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣)

صدق الله العظيم

مقدمة

إن التعمق في الفكر الديني الإسلامي ودراسته دراسة واعية ليبرهن على أن الإسلام يتميز بمنهج علمي وتطبيقي يواكب تطورات الحياة وتبدّلات الزمان، والقصة القرآنية من أهم الوسائل التي استخدمها الإسلام – على الرغم من تطورات الحياة – لتغذية العقول وتهذيب النفوس، والترويح المنشود، فهي تفتح في النفس البشرية مغالق الإلهام، عندما تعايش أنبياء الله ورسله في رحلتهم مع أقوامهم ... كي تأخذ عنهم، وتتعلم على أيديهم، وتثبت معهم، فالقصة في القرآن باب من أبواب البيان القرآني العظيم ... ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه من التوحيد والوعد والوعيد، والفضائل والأخلاق والسلوك والتشريع، ومن هنا عنيت في هذا البحث إلى دراسة الإعجاز الأدبي في القصص القرآني من بيان معجز للإنس والجن وسائر العقلاء البلغاء فالإتيان بقصة من قصص القرآن الكريم لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويتضح لنا ذلك القصور البشري في أن الأديب منهم أو الشاعر يضع خطبة أو مقالة أو أقصوصة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقّح فيها وهو غير راضٍ عنها، ثم تُعطى لأحد غيره فيأخذها بقريحة خاصة، فيبدّل فيها وينقّح، وعلى الرغم من كل ذلك تبقى فيها مواضع تحتاج لإعادة النظر والتبديل، أما القصة القرآنية فلو نزعت منها مشهدا أو تعبيرا أو حتى لفظة، ثم استدعي الأدباء المفكرون لما وجدوا أحسن منها، رغم ما هم فيه من براعة وسلامة الذوق وجودة القريحة.

فدراسة القصة القرآنية وتحليل عناصرها الأدبية من حوار وأحداث وشخصيات وزمان ومكان تقود إلى إبراز الإبداع القصصي القرآني والإعجاز

البياني، فالحجة تؤدي إلى الإقناع العقلي، أو التأثير الوجداني فيغذي المشاعر ويسمو بالنفس، والجديد في هذه الدراسة هو تطبيق المعايير والأصول المقررة في الأدب القصصي كوسيلة لدراسة القصة القرآنية من أجل تعميق ارتباط الجانب الأدبي فيها بالتأثير الديني . فلكل عصر أسسه الفكرية والعقلية والوجدانية التي تختلف عنها في عصور أخرى، فالمسلمون اليوم ليس لأكثرهم ذلك الذوق الفطري السليم وتلك السليقة التي كانت تهزّ مشاعر ووجدان وأحاسيس أهل الجزيرة العربية حين نزول القرآن بروعة بيانه وبديع نظمه، ولئن تعذّر على المسلمين اليوم إدراك أسرار الإعجاز البياني في قصص القرآن الكريم لبُعدهم عن العربية الفصحى في حديثهم اليومي، فليدركوه بلغة العصر التي سادت فيه طريقة التحليل الأدبي، بعد أن أصبحت دراسة القصة وتحليلها وسيلة شيقة لإبراز قيمتها في الغرض والمحتوى، والكشف عن أسرارها الفكرية والوجدانية لتنبيه الناس إليها وترغيبهم في قراءتها قراءة عميقة متأنية.

ومن هنا فإن البحث في الإعجاز القصصي القرآني ما زال يحتاج إلى العديد والعديد من الدراسات، فقد ترك لنا القصص القرآني ثروة هائلة من البيان العربي تُفنى الأعمار في تحصيلها، وهي خالدة باقية لمن شاء أن يفيد ويتعلم .

أهداف البحث:

لاشك أن البحث يشرف بموضوعه وغايته، والبحث في الإعجاز القصصي القرآني من الوجهة الأدبية من أشرف الموضوعات .... وغايته أسمى الغايات، فما أحوج البشرية اليوم إلى أن تتمعن قصص القرآن وتتدبّر سوره، فتأخذ منها العبر والدروس، وتتمثلها واقعًا وسلوكًا وعملاً وأخلاقًا .

إن دراسة القصص القرآني في بيانه وبرهانه، وصدقه وعلمه، حاملا وصايا الله، وقصص الأسلاف من الأنبياء والرسل، وكما عملوا صادقين في طاعة الله ... ينتظر صحوتنا ويتعجل نهضتنا، ويضيء لنا الطريق .. بقدر ما نستلخص منهجه المباشر في صدقه البياني، وصدقه العلمي، في منهجنا الصحيح للتعبير عن حركة الواقع،

وحركة المجتمع في الأدب والقصص، والتاريخ والسير.

إن منهج القصص القرآني القائم على الحق، والمتتبع لسنن الله في حركة الواقع الاجتماعي بالصدق، يجب أن يكون هو الركيزة الأساسية لأي دراسة تحليلية ونقدية لأدب القصة وهي دراسة تكون نواة لنظرية أدبية متكاملة، تكون منطلقًا صحيحًا إلى دراسات عربية أكثر اتساعًا وأعظم أثرًا، على طريق الحقيقة البيانية في علم الإنسان، كما سجلها منهج القرآن الكريم في قصصه قبل أي مذهب اجتماعي حديث، أو أية فلسفة معاصرة، وهي أن الإنسان في سلوكه ولغته نتاج بيئته، وأنه من الممكن دائما في عدل الله وحكمته تغيير فكر الإنسان ومنهج تعبيره وسلوكه إلى ما هو أفضل، أو إلى ما هو أسوأ – بتغيير عوامل البيئة المحيطة به .

فرضيات البحث:

يفترض البحث أن القصص في كل ما يدور به في لغة العرب، وفي حياتهم، وفيما أورده القرآن الكريم، هو أخبار صادقة صدق التتبع العلمي للحقائق، حتى وإن يكن في ثوب الأدب والبيان بحيث تكون أمام من غاب كمن حضر، وعند من سمع كمن رأى ..

إن الجانب القصصي في القرآن بوصفه أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب، هو منهج متميز في قصّ القصص باللغة العربية – تكفي للكشف عن الفارق الذي يبلغ ما بين القصص القرآني وقصص الشعوب واللغات الأخرى من الأساطير والروايات والمسرحيات–حد بين الجد والهزل، وما بين الصدق والكذب، وما بين الإسلام والوثنية .

إن كلمة " القصص " في القرآن الكريم ترجع في جذرها اللغوي، ومعناها الاصطلاحي، حسبما نشير إلى ذلك في داخل البحث، من أصلها ومعناها في علم اللغة العربية، تعني تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق فيه . وهو تتبع لا مجال فيه قط للخيال أو المبالغة، كما أنه تتبع لا تقصر حكمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي ،وإنما يرتبط دائما بهذا الصدق أن يكون الخبر القصصي كما

يقـصّه القـرآن جـزءا حـيا مـن حـركة الـتاريخ، يتنـزل الله بـه أمـام أعـين المؤمـنين وأسـماعهم، ليشهدوا ويعوا دلالة السُنن التي حكمت مسيرة البشر ومصائرهم في المـاضي حكمًا علميًا مقننًا لا تحوّل فيه ولا تبدّل . فالغاية من القصص القرآني ليست مجـرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغايـة أن يكـون هـذا القـصص نفـسه هاديًـا للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتتبعون به خُطى مَن سلف مِن المؤمنين، الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذوا الضلالة والإلحاد عن برهان ويقين.

-يقول الله تعالى في سورة يوسف ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَـيْكَ هَــذَا الْقُـرْآنَ وَإِن كُـنتَ مِـن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ثم يقصّ الله بعد ذلك قصة يوسـف وإخـوته . فالقـصص الحسن هنا ليس الرواية المتخيلة من الواقع، وليس " الـرواية المـصنوعة " بمحاكاة الواقع، وإنما هو التاريخ،والخبر، وحقيقة ما كان . إنه مـشاهد الـتاريخ في حـركة وصـور وأصـوات ليـست في حقيقتها – كما تصدر عن المتحـركين والمتكلمـين في هذا القصص الحق – إلا حركة القوانين التي تحكم البشر بمشيئة الله إلى غايته . إنها حركة قوانين وسنن التاريخ من خلال أشخاص لا يمكن أن ننسى مـواقفهم، لأنهم في جميع كلماتهم وحركاتهم لا يتجاوزون التعبير عن هذه الـسنن والقوانـين الـتي تنطق فيهم، إلى التعبير عن مشاعرهم الخاصة ،أو التعرض للتفاصـيل الـتي تنـتقص مـن كـمال دلالتهم على قانون بشري عام يسري به الزمان والمكـان عـلى جميع نوع الإنسان. ولذلك فقد عاشت هذه القصص الصادقة وهي تقنن سنن التاريخ إلى اليوم دون أن يطرأ على تأثيرها والعظة بها أي تغيير .

منطقية البحث

إن دراسـة القـرآن الكريم، واستعراض قصصه ومراميه، واتجاهاته وغاياته، هي الطريقة المنطقية التي تقود إلى الثقة والإيمان، فكمال الأداء القرآني في تصوير المشاهد القصـصية، هـو مـن الـدين في صـدقه، ومـنهجه، وأهدافه ... وأعظم ما يميزه أنه يخلـص إلى العظـة في الخـبر الذي يقصّه ،وإلى العلم الذي يستخلصه من الخبر ،وإلى

الآية المضيئة التي يرفعها أمام أعين المؤمنين، دون أن يتعرض القارئ أو المنصت إلى ما يثير غريزته، أو إلى ما يستفزه لخيال كاذب، أو خاطر معيب .

وقد جعلت الإعجاز القصصي في القرآن الكريم ركيزة هذه الدراسة، فعلى الرغم من قبول القصص القرآني للمعايير والمقاييس البنائية للقصة الحديثة إلا أنه ينأى تماما عن التخيل وذلك بالتزام الحقائق والمقومات التاريخية عند بناء الأحداث، ويعرفها على الوجه الذي يراه أشدّ تأثيرا، وأكثر استجابة لدواعي البناء القصصي.

الأبحاث السابقة

ولمكانة القصص القرآني وقيمته في تغذية العقول وتهذيب النفوس، تناوله بالشرح والتحليل والتفسير كثير من الباحثين والمفسرين قديما وحديثا، وهي دراسات ومؤلفات وتفاسير أدين لها بالفضل في التحصيل، والتوجيه، منهم من خصص الدراسة لقصة واحدة أو قصتين، ومنهم من اعتمد على طريقة بسيطة تعنى بالتفاصيل دون الإشارة إلى الإعجاز الأدبي واللغوي في بناء القصص، وذلك بتفصيل أحداث القصة مع تحديد زمانها ومكانها وتعيين أشخاصها، وذلك لإشباع رغبات المتطلعين إلى هذا القصص القرآني، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخليقة وسير الأنبياء والرسل والأمم الغابرة، إلا أن هذه الطريقة لم تتحرَ الدقة في بعض من هذه الكتب فيما جمعته من مصادر عُرف عنها اهتمامها بالخرافات والأساطير والقصص المنقولة عن اليهود والنصارى .. مما يجعل التوراة والإنجيل مهيمنين على القرآن . وقد ذكرت هذه المؤلفات والكتب والبحوث السابقة في ثبت المراجع في نهاية الدراسة .

الإطار التنظيري للبحث

وهو مدخل تمهيدي لابد منه قدمت فيه تمهيداً موجزا لدراسة الأدب القصصي عامة، أثرت أن تتبع فيه النقاط التالية:-

أولاً: القصة وتطورها العام: تحدثت فيها عن نشأة القصة وتطورها في الأدب بصفة عامة، ثم فن القصة عند العرب خاصة.

ثانياً: عناصر القصة وخصائصها: وفيها تعرضت لتعريف القصة، ثم عناصرها من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وعقدة وحل.

ثالثاً: أهداف القصة: أوضحت فيها أهم أهداف القصة وذلك لارتباط هذه الأهداف بالأصول الفنية الخالصة في الإبداع القصصي.

وقد أفاد هذا المدخل كثيراً في توضيح الدور العظيم للقصة من حيث اهتمامها بمشكلات الإنسان وعصره، حيث يصدر فيها الإنسان، لا علي أنه أنموذج عام يصلح لكل عصر وبيئة، ولكن علي أنه مخلوق حي ذو جوانب نفسية متعددة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى دراسة أدب القصة في القرآن الكريم:

وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: وعنوانه: أنواع القصة في القرآن الكريم. عناصرها وأغراضها.

وقد تناولت فيه الفروق اللغوية بين القصة والخبر والنبأ والحديث،والتي كانت مستخدمة في القرآن الكريم كثيراً وإن كان قد فرّق بينها في المجال الذي استعملوا فيه جرياً علي ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز . ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض أنواع القصة في القرآن الكريم وبَيَّنتُ فيه أن القرآن استخدم- في أغراضه الدينية – كل أنواع القصة: القصة التاريخية والقصة الواقعية والقصة التمثيلية والقصة العاطفية والقصة الرمزية أو الإيحائية كقصة هبوط آدم من الجنة وذلك لما تحمله في جوهرها من إيحاءات نفسية .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى عرض عناصر القصة في القرآن الكريم ومن خلال عرض هذه العناصر، اتضح لنا أن عناصر الأحداث والأشخاص والحوار والزمان والمكان لا توجد مجتمعة في كل قصة قرآنية بل موزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفي لاختل التوازن الفني وانهدّ

ركن من أركان البناء، والحقيقة أن ذلك ربما يرجع إلى أن توزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتبع الغرض الديني حيث نري إن عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى التخويف والإنذار، وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى الإفاضة والإيحاء أو تثبيت المؤمنين، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد علي المعارضة وهكذا ..

ثم انتقلت بعد ذلك إلى أغراض القصص القرآني مبيناً المكانة العظيمة للقصة القرآنية وقيمتها في التوجيه النفسي، وفي الهداية إلى الحق والطريق المستقيم.

أما الفصل الثاني فقد جعلته للحديث عن:

الخصائص اللغوية والأسلوبية.

ومن خلال هذه الخصائص يتضح الكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوي إلى مستوي، حيث يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل علي الصنع الذي لا يتغير من حال إلى حال وقد بيّنّا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل، أما الخصائص الأسلوبية فقد عرضت لها من زاوية التركيب الأدبي للعناصر القصصية وما له من تأثير نفسي وفني علي القارئ.

أما الفصل الثالث فقد دار حول:

القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم: حيث لاحظ الدارسون والباحثون للقصة القرآنية إنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة ووفقاً لذلك نري من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد - كما في قصة يوسف - ومنها ما تقدم في حلقات، يخص بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب ولذلك تعرضت في هذا الفصل إلى نقطتين: الأولي: توزيع القصة الواحدة في القرآن

الكريم ومثّلنا علي ذلك قصة موسي، وقصة إبراهيم، وبعد أن بينت وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي في هاتين القصتين، انتقلت إلى عرض النقطة الثانية وهي:

القصة الكاملة في القرآن الكريم: أي القصة التي وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم نحو ما كان في قصة يوسف عليه السلام، وبينت أن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها – كما لا يتم التنسيق الفني فيها- إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها.

ونأتي بعد ذلك إلى ختام فصول هذه الدراسة وهو الفصل الرابع وعنوانه:

الإعجاز البلاغي والبياني في قصص القرآن الكريم: تطرقت فيه إلى بيان مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم عامةً وفي القصص القرآني خاصةً من خلال تفسير مصطلحي البيان والبلاغة في القصة القرآنية ثمّ بيّنت إعجازها في المعاني والأفكار والأسلوب والإيجاز، ثمّ قدّمت لمحة من البلاغة الصوتية في القصة القرآنية بإيحاءاتها وإيقاع صيغها وانسجام تأليفها.

وذلك حتى تكتمل أهداف البحث وأغراضه من توجيه الوعي الإسلامي الوجهة الرشيدة في القيام برسالته الأدبية الإنسانية فقد أنهيت هذا البحث بخاتمة تتضمن أهم ما أمكن التوصل إليه من نتائج أرجو أن أكون قد وفقت إليها، وحسبي أنني اجتهدت فإن كنت قد أصبت فذلك فضل من الله وإن كانت الأخرى فحسبي قول الرسول الكريم ﷺ: " من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد". صدق رسول الله ﷺ

وبالله التوفيق

أ.د / سعيد عطية علي مطاوع

أستاذ الأدب المقارن – قسم اللغة العبرية

كلية اللغات والترجمة

المدخل

القصة وتطورها العام

لا شك أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر، وقد يتولّد بعضها من بعض، فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر، لكن التعمق في دراسته يكشف عن أنه قد نشأ عن نوع أخر مغاير له، كما في نشأة الأقصوصة عن المثل.

إن الفن الأدبي بأنواعه كافة هو مرآة تعكس التغيرات اللغوية أو الاجتماعية أو السياسية لعصر من العصور، ولا يعني هذا أن الفن محاكاة للواقع الطبيعي كما هو عليه، بل هو محاكاة نقدية لهذا الواقع تظهر من خلالها موقف الفنان ومدي تأثره بالطبيعة ومن ثم تصبح القصة عرضاً لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيلاً لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسطاً لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبّر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القرّاء ومن هنا يمكننا القول بأن المشهد القصصي الذي يصوره القاص هو عبارة عن مشهد واقعي صور في أسلوبه التعبيري وطريقة حدسه هذه الصورة المشاهدة في الطبيعة.

كيف نشأت القصة ؟

يقول د. محمد حسين هيكل: " من اليسير أن يقدّر الإنسان قِدَم القصص، وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت "[1] فالقصة تقال في كل مكان، بين الشعوب البدائية، وعند أشدّ الأمم رقياً، ولو أنها في الحالة الأولي تفتقد نيّة القيام بعمل فني[2].

" إن الحياة من أولها إلى أخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد، واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها.. ويكفينا أن نرجع إلى التاريخ الديني، وإلى الكتب المقدسة نفسها، فهذا التاريخ يقصّ علي الناس من أخبار من تقدمهم ما فيه موعظة وعبرة ؛ والتاريخ نفسه ليس إلا قصصاً يسبغ عليه كل مؤرخ

من خياله ما يسبغ على حياته قوة وفيضاً .. ولذلك كثيراً ما يلجأ المؤرخون إلى ما كتب في عصر من العصور من قصص، وما وضع أهله من رسائل يستلهمون هذه الصور الحية من فنون الأدب ليرسموا صورة صحيحة .. هذه الصلة الوثيقة بين القصص والتاريخ هي التي جعلتنا نستشهد بالتاريخ الديني للدلالة على قِدَم القصة، كذلك مما جعلنا نستشهد بهذا التاريخ أنه لم يرو ما روى من قصص السابقين بقصد تحقيق وقائعها وتدوين تفاصيلها، وإنما رواها عبراً ومزدجراً، والرواية للعبرة والزجر تقتفي اختيار وقائع معينة مِن حياة مَن سبقوا يكون فيها موضع العبرة، كما تقتضى صياغة هذه الوقائع في الأسلوب القوى الذي يدخل العبرة إلى النفس ولو كانت بطبيعتها جامدة عن أن تفهمها "[3] ولا جدال في وجود أنواع أدبية تدور في فلك القص والحكي، كالحكاية الشعبية والملحمة والخرافة، والأسطورة، ومن هذه الألوان فن القصة الذي نحن بصدده.

تطوّر الفن القصصي:

ينظر العلماء إلى تطور القصة من زاويتين: أولهما تطوّر مفهوم القصة في الآداب العالمية تطوّراً تضافرت فيه الآداب جميعاً . .

وثانيهما تطورها في الأدب العربي . .

أولاً: تطوّر القصة في الآداب العالمية:

القصة في نشأتها الطويلة – كانت تختلط فيها الحقائق الإنسانية بالأمور الغيبية، ولذلك عندما نتحدث عن نشأة القصة، علينا أن نتتبع الأدب ذا الطابع القصصي في مطلع ما نطلق عليه تجاوزاً القصة، والأدب القصصي فالملحمة على سبيل المثال تمثلت فيها – منذ نشأتها – عناصر مسرحية في إنشادها ومواقفها، وكان فيها كذلك عنصر قصصي، كما كان يفهم من معنى القصة في القديم، فوجدت في الملحمة عناصر مهدت للنثر القصصي الخيالي في الأدب اليوناني[4].

ثم ظهر النثر القصصي أول ما ظهر، في الأدب اليوناني في القرن الثاني والثالث

بعد الميلاد، وتمثل النموذج العام لأحداث هذه القصص في افتراق حبيبين تفصل بينهما أخطار مروعة، ومنافسات خطيرة، يفلتان منها بطرق عجيبة غير مألوفة، ثم تختم ختاماً سعيداً بالتقاء الحبّيين .. أما في الأدب الروماني، فقد ظهرت القصة – أول ما ظهرت – في أواخر القرن الأول بعد الميلاد على نحو مخالف للقصة اليونانية، في بادئ الأمر، كما يتجلى ذلك في قصة " ساتيريكون " التي ألفها " بترنيوس "، ثم تأثرت بالقصص اليونانية، وأشهر القصص التي يمثل بها لذلك التأثر قصة " أبوليوس " في مسخ الإنسان إلى حيوان ثم إعادته إلى حالة الأولى[5] .

أما القصص في الآداب الأوربية منذ عصر النهضة، فقد نشأت وتمت معتمدة على ما وصل إليها من التراث الشرقي والأدب اليوناني والروماني، وتأثرت كذلك بالروح المسيحية، وفي هذا العصر، كذلك، سبقت قصص المخاطرات غيرها من القصص، وكثيراً ما اعتمدت على الأساطير والجنيات وخوارق العادات ... وقد تأثرت القصص في أوربا – منذ عصر النهضة بملاحم العصور الوسطى وما زخرت به من معاني البطولة، ولكنها نزعت نزعة إنسانية أوضح من ذي قبل، فظهرت " قصص الفروسية " التي اتسمت بطابع المثالية في الوصف، ... ثم ظهرت بعد ذلك " قصص الرعاة " وهي وصف خيالي لعالم الرعاة والراعيات: على أن هذا النوع من القصص قد تقدم على غيره خطوات نحو الواقع، إذ جنح الكتّاب فيه إلى وصف أماكن واقعية في بلادهم جعلوها مجال الحوادث، التي دارت بين أبطال قصصهم . . . وفي القرن السادس عشر والسابع عشر، ظهر في الأدب الإسباني جنس جديد من القصص وهو " قصص الشُطّار "، وهي قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع – وفيها مخاطرات يقصّها المؤلف على لسانه كأنها حدثت له: " Picaresca " وهي ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه، وقد كان هذا النوع من القصص، الفضل في خلو القصص من العناصر الخارقة للمألوف، وفي اتخاذ حوادث الحياة العادية أساساً للموضوعات القصصية، فأخذت القصة تتخلص من تأثير الملاحم، وتلقى أضواءً على حياة الطبقات الدنيا من الناس، وإن ظلت الناحية الفنية مختلفة في هذه القصص، فكان سرد الأحداث

يكاد يستأثر بعناية المؤلف كلها، والتحليل النفسي يكاد يكون مهملاً في هذا النوع من القصص بعامة، ويكثر فيها الاستطراد، وترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً لا رابطة فنية فيه، وكثيراً ما يتدخل المؤلف نفسه مباشرة في قصصه ليشرح غاياتها التربوية والخلقية ... ثم تأثرت القصة بازدهار الكلاسيكية في القرن السابع عشر، فدعا كثير من النقاد إلى أن تكون حوادث القصة ممكنة في سياقها لتتجرد من آثار ما فوق الطبيعة ...ومع نهوض المسرح الكلاسيكى تطلعت القصة إلى التحليل النفسى، ثم ظهرت اتجاهات حديثة أخرى في أواخر القرن الثامن عشر، فعنى الكتّاب بالفرد ونزعاته ومثله، وجعلوا منه وحدة الإصلاح في مجتمعهم . وكانت هذه قضية من أخطر قضايا الرومانتيكيين ومن أتى بعدهم . . ثم قام المذهب الواقعى ثم الطبيعى على أنقاض المذهب الرومانتيكى، فقرُبت القصة من الواقع، وأصبح الكاتب يتبع في قصته الواقع على حسب منهج في البحث منظم استقصائى يجمع فيه معارفه باطلاعه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية ويرتب هذه الوقائع لتكون مجالاً يحرك فيه شخصياته "[1].

ومنذ "الواقعية " و " الطبيعية " اكتمل المفهوم الحديث للقصة، بعد أن خطا الخطوات التي أوجزنا القول فيها، فتخلصت أولاً من العالم الغيبى والقوى العجيبة التي كانت تدينها من الملاحم ثم من العالم الأرستقراطي الذي كانت تهتم فيه بطبقة خاصة هى الذروة من المجتمع ولا تمثله، ثم لم تكتف بعد ذلك بالنزول إلى أغوار المجتمع لتسبر مشكلاته، بل غاصت كذلك في الجوانب المظلمة، جوانب السوء في الأفراد والجماعات من أجل إصلاحها وعلاجها .

فن القصة عند العرب:

انقسم الباحثون عند تعرضهم لتأصيل فن القصة عند العرب . فمنهم من يرى أن العرب عرفوا فن القصة، ومنهم من يرد هذا الفن إلى أوربا، ومن هؤلاء الذين أنكروا على العرب معرفتهم لفن القصة: " إسماعيل أدهم، وإبراهيم ناجى " في كتابهما عن " توفيق الحكيم " حيث قالا: " إن الذهنية العربية تنقصها الطاقة إلى

التجرد من الذاتية، وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية، فمن هنا كان الفن العربي مظهراً لتفتح ذاتية الفنان على نفسه، ومن هنا كان في أغراضه فردياً: لأن الفنان يعيش في غماره، ولا تتجلى له الأشياء في تطورها التاريخي، ولهذا كانت القصة والمسرحية غريبتين على فن العرب "، ويصل إسماعيل أدهم إلى تسويغ نشأة القصة في الأدب العربي بقوله " لم تنشأ القصة والأقصوصة في الأدب العربي الحديث من أصل عربى قديم كالمقامات والقصص الحماسية كما يظن البعض، إنما نشأ فن القصص مترعرعاً في الأدب العربى الحديث تحت تأثير الآداب الأوربية مباشرة"[٧].

ويقول " محمد غنيمي هلال ": " إن القصة لدى العرب لم تكن من جوهر الأدب كالشعر والخطابة والرسائل مثلاً، ولذا كانت ميدان الوعاظ، وكتّاب السير والوصايا، والسمار يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يذكرون من حكم . . . ويقول: لو أننا عددنا مثل هذه الحكايات قصصاً لكانت القصة أقدم صورة للأدب في العالم لأن كل الشعوب الفطرية تسمر على هذا النحو البدائي"[٨].

ويأخذ بعض الأدباء على القصة العربية القديمة " أنها لم تعن حق العناية بتصوير ملامح الأشخاص، وسمات الهيئات، وإن كانت لتنمّ عن كثير من صفات النفس وطبائع الفطرة"[٩].

وعلى الجانب الآخر يقول " محمود تيمور": أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القص والأشعار به، فنحن الذين قلنا من غابر الدهر: " قال الراوى "، "ويحكى أن ... " و " كان يا ما كان " ... إلى آخر تلك الفواتح التي يمهِّد بها القصاص العربي في مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص " . . .وفي ردّه على إنكار فن القصة عن العرب يقول: " سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربي أنّ فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نصب أعيننا القصة الغربية، في صياغتها الخاصة بها، وإطارها المرسوم لها، ورجعنا نتخذها المقياس والميزان، وفتشنا عن أمثالها في أدبنا العربي، فإذا هو قد خلا منها أو

يكاد، وشدَّ ما أخطأنا في هذا الوزن والمقياس، فللأدب العربي قصص ذو صبغة خاصة به، وإطار مرسوم له، وهو يصور نفسية المجتمع العربي، فلا يقصّر في التصوير، وإننا لنشهد فيه سماتنا وملامحنا واضحة، وكأننا لم نفقد في مجتمعنا العربي – حتى اليوم – ما يكشف عنه ذلك القصص من ملامح وسمات، على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد، وهو في جوهره وثيق الصلة بالوشائج الإنسانية التي هي جوهر القصص الفني، وإن تباينت الصياغة واختلف الإطار "[١٠].

والحق أنه كان للأرض التي نبتت العرب فيها، وعاشت عليها، وللعقيدة التي تدين بها عمل في تحديد حظها من الخيال، وتعيين نمطها من القصص القديم . فأما الأرض فذات طبيعة يغلب عليها السكون والاستقرار، لا تأخذها أعاصير جائحة، ولا براكين ثائرة، ولا زلازل راجفة، سماؤها صافية، وكواكبها بادية مستقرة . . . وأما العقيدة فوثنية يسيرة . لكنها غالبة، تعبد الإله الذي اتخذته من دون الله رباً، فتختصه بالعبادة، أو تتقرّب به إلى الله زلفى . لا تعرف آلهة تقسِّم الكون، وتوزِّع السلطان وأسرار الغيب. فكان لذلك خيالها قصير المدى، قريب المتناول، كأنه لقطات الطائر، أو خفقات الريح، يستطيع أن يحكى وينسق، وأن يصور ويبدع، ولكن في غير تهويل ولا استرسال مع الأوهام والخرافات، عينه على الواقع، ومذاهبه دائماً على هداه . إن هى إلا أحداث تساق، ومشاهد تعرض في مساورة غول، أو توهم جن، أو أخذ عن رَئِى كاهن، أو شيطان شاعر، أو حوار ذي مغزى من الحكمة والموعظة يدور على ألسنة الحيوان، أو ما يشابه ذلك من جوانب الحياة في الصحراء ."[١١]

ولا شك أن الأدب الجاهلي كان يصور الحياة والإنسان في العصر الذي كان مقدمة مقصودة لنزول القرآن الكريم بالعربية دون سواها : " فإذا كان القرآن الكريم هو صاحب الفضل في صمود هذه اللغة وازدهارها وبقائها حية متطورة ، فإن الشعر الجاهلي كان مفتاحاً لدى الباحثين والدارسين في مدارسة النص القرآني والغوص وراء أسراره العليا " .[١٢]

وفي هذا الصدد يقول " طه حسين ": " إن الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها

- وما أعقبها من عصور أدبية زاهية - كانت تتمتع بحياة نقدية راقية، والدليل على ذلك ما بلغته الأمة حينذاك من الفصاحة والبلاغة " . . ويقول: " ولدينا أبلغ دليل على تمكنهم من الفهم والنقد وهو نزول القرآن فيهم بهذا المستوى الرفيع من الإعجاز "[١٠].

والقرآن الكريم أصدق المصادر في الإنباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين، فإذا حدثنا القرآن بشيء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته، المطمئن إلى صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة، فقد وصف منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة، فقد وصف القرآن الكريم العرب بالفصاحة، وذرابة اللسان، فقال في قوم أظهروا الإيمان والودادة، وأضمروا الكفر والعداوة:﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (سورة الأحزاب من آية ١٩).

ونعتهم بالطول في البلاغة فقال: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ " (البقرة: ٢٠٤).

وخصّهم بالتفوق في البيان فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون من آية ٤) ووسمهم بقوة العارضة والدهاء، إذ قال: وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم:٤٦).

وسجّل عليهم اللُّدد في الخصومة، والجدل في المحاورة بقوله: ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(الزخرف:٥٨) وبقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (مريم:٩٧).

وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونهى فقال: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الطور:٣٢).

والحقيقة أن الطبيعة والعقل تؤيدان أن الجاهليين كان لهم نثر أدبي، فليس هناك مانـع يجعـل ذلـك مـستحيلاً أو معـدوماً، وإذا كان لهم شعر فلا بد أنه كان لهم نثر يتحلل فيه القائل من قيود الشعر التي قد تقف أمام الأديب فلا يستطيع أن يلتزمها، وقد تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بمثله أو بعضه، والقرآن الكريم ليس شعراً، والتحدّي لا يكـون لـه معنـى إلا إذا كـان في الناحـية التـي يـزعم المتحدى أن له فيها نبوغاً، ويدّعـي لنفـسه علـيها قـوة واقـتداراً، ومن ثمّ لا بدّ أن الله قد أعجز أمة ذات قدرة فائقة على النثر"[1].

إذاً، هـل كانـت تلك الأوصاف كلها، وهذا التحدّي للعرب، وهم فارغون من أدب يغـذي عقـولهم، ويربـي نفوسـهم تـربية أدبـية تقـوم عـلى التفاصح بها يخلب الألـباب ويـستميل الأسـماع، من منطق حسن وكلام بليغ، وبيان بديع في فنون من المعارف الإنسانية الأدبية يستحقون بها تلك الأوصاف ."[5]

ثانياً: عناصر القصة وخصائصها

إن كل دراسة نظرية، رغم تحاشيها لصعوبات التحديدات النظرية، تنطلق من مجموعة من المسلمات النظرية التي تحتاج إلى كثير من التأمل والتمحيص، وتؤدى بغموضها إلى تسطيح الدراسة التطبيقية . . . ودراستنا هذه لا تزعم لنفسها القدرة على تقديم نظري شامل لمصطلح القصة الذي يغطى القصة بكل خصائصها الفنية، ولكنّي أسلم من البداية أن أي فن إبداعي حقيقي يستعصى بطبيعته على التعريفات الجامعة المانعة، ويأبى أن تحتويه أية قوالب جامدة . . ولكنها تطمح كأي محاولة في النقد النظري إلى استقرّاء واقع القصة، وإلى تقصى بعض خصائصها البنائية والجمالية ـ ومن ثمّ فإنها لا تدّعي طرح أية نظريات شاملة في هذا المجال، ولا حتى محاولة الوصول إلى تعريف لبعض عناصر العمل القصصي الأساسية، وإنما همُّها هو التعرف على ملامح هذه العناصر، وطبيعة عملها داخل العمل القصصي، حتى تمهد الطريق أمام البحث في تحديد مفهوم القصة القرآنية، والقصة في التوراة، وتحديد أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما .

لتعريف القصة:

القصة: فن قولي درامي، يسعى إلى خلق عالم إبداعي مواز في علاقاته للعالم الواقعي الذي يعيشه القصاص، من خلال تجارب الفكر، أو تجارب العاطفة أو تجارب الخيال "[١٦].

أو بمعنى آخر القصة هي " التعبير عن الحياة، بكل تفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن، ممثلة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية، مع فارق واحد، وهو أن القصة اختيار وتنسيق، اختيار لحادثة أو عدة حوادث، تبدأ وتنتهي في زمن محدود، وتصور غاية معينة، وتساق جزئياتها سياقًا معيّنًا ليؤدى إلى تصوير هذه الغاية "[١٧].

" وكل قصة جيدة تعبّر في وحدتها عن وحدة فلسفتها ومفهومها للعالم، وهذا المفهوم ليس انعكاساً لمعرفة محصلة تهدف إلى توضيحه، وإنما هو قبل أي شيء شكل من الإحساس بالعالم وبالحياة، وترجمة لموقف منه، ومحاولة الانسجام معه . . وبذلك يمكن القول إن القصة: حكاية أدبية – تدرك لتقص – قصيرة نسبياً – ذات خطة بسيطة – وحدث محدد – حول جانب من الحياة – لا في واقعها العادي والمنطقي – وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية – لا تنمّى أحداثاً وبيئات وشخوصاً – وإنما توجز في لحظة واحدة، حدثاً ذا معنى كبير "[١٨].

والحقيقة أن هناك تعريفات كثيرة للقصة لا يتسع المجال هنا لذكرها وإنما يمكن القول إن النقد الأدبي لم يستقر على مصطلح ثابت لهذا الجنس الأدبي، وقد يكون مرجع ذلك لاتساع مجالات القصة وتنوعها، فليس الواقع المحدود الصغير هو مجال القصة وحده، وإنما هو الواقع الأبدي – كما يبدو خلال الواقع الوقتي، وهو النماذج الإنسانية - كما تبدو من خلال الشخصيات القصصية، وهذا الأمر يعود إلى مدى إبداع كل قاص: ولكن يمكننا القول في بساطة شديدة إن القصة جنس أدبى وسط بين الأقصوصة والرواية، وليس المقصود الحجم فقط، إنما في المحيط الذي تشمله حيث إنها تقوم على محور ضيق محدود من الشخصيات والأحداث والمشاعر .

مادة العمل القصصي:

عندما نتكلم عن مادة العمل القصصي، نقول " إن القصة الإنسانية قد تتمثل عظمتها في مستصغر المشاهد، كما تتمثل في الأحداث الجسام، وقد تتجلّى براعتها في دقائق الموضوعات وبسائطها، كما تتجلى في الشؤون التي تملأ الدنيا وتشغل الناس، وقد تظهر مهارتها في ضعاف الشخصيات وضئالتها، كما تظهر في شخصيات السيادة والتبرير . . . فالمعول في القصة على ما فيها من جوهر أصيل، تدور حوله مشاهد القصة وحركاتها وأسلوب معالجتها، وما هذا الجوهر إلا بضعة إنسانية فيها تبصرة بحقائق الحياة . . . واستخلاص لسرائر النفوس "(١٩).

" ويستطيع القصّاص الجيد في نطاق الحدود الدقيقة التي تحكمه من الزمن والحدث والعاطفة والاهتمام والخبر المحدود، أن يجعل الإبداع النفسي عابراً على الدوام، بسيطاً وواضحاً، ومن خلال خطوط قليلة عادية، ولكنها صلبة دائماً، وفي خدمة القص، دون أن يعنى ذلك بأية حال أن القصة الجيدة تتطلب شخصيات ذات بساطة فكرية، أو نفسيات غير معقدة "(٢٠)

ولذا يتضح أن مادة العمل القصصي ترجع إلى مصدرين هما:-

(أ) الخبرات الذاتية التي يحصلها الكاتب من خلال تجاربه الخاصة .

(ب) الخبرات التي يحصلها من خلال تجارب الآخرين، ولكن بشرط أن يهضمها ويتمثّلها جيداً حتى تصبح كأنها خبراته الخاصة، ويكون صادقاً مع نفسه في كل ما يكتب، وبهذا يستمد عمله القصص من خبراته وخبرات الآخرين .

عناصر القصة:

استقرّت الحركة النقدية على مجموعة من الأساسيات التي رأت أنها تشكل قواعد الخلق الحقيقي في فن القصة، ومن هذه الأساسيات ما يتصل بعناصر العمل القصصي، فوضعوا إطاراً خاصاً، يضم مجموعة من العناصر الأساسية وهي:-

١ - الحادثة.

٢ - الشخوص.

٣- الزمان والمكان .

٤- البناء ويتضمن العقدة والحل .

أولاً: الحادثة:

وتسمى الحكاية، وهى من أهم الخصائص التي تتميز بها القصة، فهي تمثل العمود الفقري للقصة، " وهى التي تجعل القارئ يتشوق إلى معرفة الأحداث، وإذا افتقدت القصة عنصر التشويق أصبحت بلا روح، وتبعث الملل في النفس "(٣١).

وتتكون الحادثة من بداية ووسط ونهاية، فالبداية، أو الموقف عند بعض النقاد، ينشأ منها موقف معين، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهي إلى النقطة الفاصلة، وهو سبب وجود الحادثة في الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة – وتمثل نهاية الحادثة – لحظة التنوير: ولكن وجود حكاية تنطوي على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية، لا يعنى دائماً، وبالضرورة، أنها تصور حادثة، فقد تجيء أخبار متعددة تتجاور، وليست حادثة تنمو طبيعياً، وتترابط أجزاؤها، كل جزء يرتبط بسابقه، ويؤدى إلى ما يليه، حتى يبلغ غايته " .(٣٢)

" وتصوير الشخصية وهى تعمل لا يكفي لاكتمال الحادثة، فالحادثة المتكاملة هي تصوير الشخصية، وهى تعمل عملاً له معنى .. فكل قصة تعالج ما تعالج، وتعنى ما تعنى فقط في نطاق الحادثة المعينة التي تصورها وليس خارج هذا النطاق، ولذلك فكل لها معناها المعين الذي يميزها عن غيرها من الأحداث، وهذا المعنى ينشأ من الحادثة نفسها، فهي جزء لا يتجزأ منها ... وبدون المعنى لا يمكن أن يتحقق للحادثة الاكتمال، لأن أركان الحادثة الثلاثة وهى الفعل والفاعل والمعنى وحدة لا يمكن تجزئتها، فليس للفعل والفاعل قيمة إن لم يكشفا عن معنى "(٣٣)

ثانياً: الشخصيات:

" الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي،

بل ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما، و إلا كانت مجرد دعاية، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعي، وقيمتها الفنية معاً، فلا مناص من أن تحيا الأفكار في الأشخاص وتحيا بها الأشخاص، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعي الفردي متفاعلاً مع الوعي العام، في مظهر من مظاهر التفاعل، على حسب ما يهدف إليه الكاتب، في نظرته إلى هذه القيم، وفي أغراضه الإنسانية، ولا مناص من اتساق هذه الأغراض مع الغرض الفني، وهذا مظهر الصراع النفسي أو الاجتماعي يقوم به الأشخاص ضد المجتمع وعوامل الطبيعة . وقد يقوم به الشخص ضد نفسه " (٢٤).

رسم الشخصيات:

من المتفق عليه بشكل عام أن الحوادث في معظم القصص الجيدة تنتج على نحو منطقي من طبائع الأشخاص الذين تضمهم هذه القصص، وقد يقدم الكاتب أشخاصه بطريقتين عامتين:-

بطريقة مباشرة: بإبلاغ القارئ بصفات الشخص وخصائصه .

(ب) من خلال الحدث،بإظهار أفعال الشخص الذي يمكن معرفة شخصيته من خلالها .

" والطريقة الأولى كثيرة الشيوع بالنسبة للشخصيات الثانوية، أما بالنسبة للشخصيات الرئيسة فنستخدم كلتا الطريقتين عادة " (٢٥).

والأشخاص – في القصص بعامة – نوعان: ذوو المستوى الواحد، ثم الشخصيات النامية، والشخصية ذات المستوى الواحد هي الشخصية البسيطة في صراعها، غير المعقدة، وتمثل صفة أو عاطفة واحدة، وتظل سائدة بها من مبدأ القصة حتى نهايتها، ويعوزها عنصر المفاجأة، أما الشخصيات النامية فهي التي تتطور وتنمو قليلاً قليلاً، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتنكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة، وتفاجئه بما تعنى به من جوانبها وعواطفها الإنسانية المعقدة (٢٦).

ثالثاً: الزمان والمكان:

وجود الزمن عنصر أساسي في القصة، فبدون الزمن لا يمكن للقصة أن تستقيم، وعلاقة القصة بالزمن علاقة مزدوجة، فالقصة تصاغ في داخل الزمن، والزمن يصاغ في داخل القصة، والقصة تحتاج للزمن لكي تقدم نفسها من خلاله، مرحلة وراء أخرى . . . وينطوي زمن الحدث على مجموعة من الأزمنة هي: زمن الحبّكة وزمن القصة، وزمن العمل القصصي نفسه، ثم زمن قراءته . . . وقبل الحديث عن هذه العناصر، لابد من التفريق بين هذه الأزمنة المختلفة، " فزمن الحبّكة " يختلف عن " زمن القصة "، لأن زمن الحبّكة قد يرتب وفق أي ترتيب من الترتيبات المحتملة .

أما " زمن القصة " نفسه فهو مزيج من زمن الحبّكة والزمن اللغوي الذي تصاغ فيه الأفعال أو تستخدم معه مجموعة معينة من الصيغ والاشتقاقات . . . وهنا يدخل عنصر الاستمرارية أيضاً إلى جوار عنصر الترتيب . . . بمعنى أن يفرد العمل القصصي عدة صفحات لوصف حدث يستغرق وقوعه ثانية أو دقيقة، بينما يسرد علينا ما دار في السنوات الخمس التالية لهذه الدقيقة أو السابقة عليها في جملة واحدة أو فقرة واحدة، أما زمن القراءة فهو الزمن الذي تستغرقه القراءة . . قراءة وصف ما دار في هذه الدقيقة، والتي تحتاج منا إلى ساعة، وربما إلى ساعات، بينما يحتاج منا قراءة ما دار في السنوات الخمس إلى دقيقة أو دقائق[٢٧].

المكان:

لابد للحدث من مكان ما، ولا يقل المكان أهمية عن الزمن، وإن كان أكثر استقراراً من الزمن وأقل خلافية فيه، والمكان الذي تصوره القصة هو مكان قصصي قد يشابه غيره من الأمكنة التي نعرفها، ولكن له تفرده الخاص، وله واقعيته الخاصة، فمن المستحيل أن يكون مكاناً واقعياً، ليس فقط لأنه مكان مرئي من وجهة نظر شخصية ما أو كاتب ما أو موقف ما حسب الطريقة التي يقدم بها، ولكن لأنه مكان قد حدد جمالياً وأُسرّ في قبضة مجموعة من الكلمات، وانتقيت

مكوناته بعد أن استبعدت منها مكونات أخرى، وأضاف له القارئ تصوره الخاص، فالمكان في القصة مكان مصاغ بمصطلح غير بصري . . . إنه مكان لا نستطيع أن نراه، وإن كان بإمكاننا تصوره، إنه مكان في زمن وهمي، وهو الزمن القصصي . . مكان مصاغ من ألفاظ لا من موجودات و صور . . صحيح هناك عدة طرق تستطيع بها الكلمات أن تخلق مكاناً على الورق، إما باستعمال الصفات المحسوسة التي تمكّن القارئ من تصوّر المكان بشكل واضح أو بالإشارة إلى موجودات ومكونات فعلية لهذا المكان يستطيع القارئ أن يرجع إليها، أو بالمقارنة مع أشياء وأمكنة مألوفة تمكّن كناياتها، القارئ من تصور هذا المكان . . غير أن كل هذه الأساليب مشروطة بالعين التي يُرَى المكان عبرها، وبالذهن الذي سيتصوره خلال الكلمات . . وهي قضايا تجعل المكان القصصي أكثر خصوصية من كثير من الأمكنة الواقعية المشابهة"[٢٨].

رابعاً: البناء.ويتضمن العقدة والحل:

إن القصة المكتوبة تهذيب وتكرير، أو هي بالأحرى سلسلة كاملة من التهذيب والتكرير لهذا النوع من التسلية والمتعة، والعقدة (Plot) هي إحدى صور هذا التهذيب والتكرير، فالعقدة بصفة أساسية هي ابتكار واختراع أدبي، وهي أسلوب بسيط من أساليب تقطير أو تركيز التشعّب والتهويم اللذين نجدهما في قصص البطولات القديمة، وهذا التقطير يتخذ بشكل جزئي من أجل الترفيه عن جمهور واع – جمهور يستمتع بأمور مثل الإطار والشكل، ويهوى أن يرى قصة جيدة الحبْك، فيها تشويق أو مفاجأة وأن تكون قد بلغت حد التوكيد الواضح، فالعقدة هي " إطار الوقائع " أياً كانت بسيطة أو معقدة، التي تُبنى عليها القصة، أو هي حوادث الصراع المصور والمعروض كما تنتظم في وحدة فنية "، وعناصر العقدة هي: البداية التي تفترض النمو في الحدث، والوسط الذي يفترض الحدث السابق والحدث اللاحق معاً، والنهاية التي تتطلب الحوادث السابقة، ولكنها لا تتطلب حدثاً لاحقاً ووحدة العقدة هي إذاً نتيجة العلاقة والترتيب اللازمين بين الحوادث وليس بالتركيز على شخصية واحدة"[٢٩].

" ويجب أن تختتم القصة بإحكام، دون أن تترك مجالاً لثغرات جديدة أو أية شروح تالية، وليس مستحباً أن يجنح القصاص أو يسهو أو يتشاغل أو يبطئ، دون غاية، في رسم الجو أو تصوير الشخصيات، أو المناظر الطبيعية، أو الحوار، ومن الممكن طبعاً أن توجد هذه العناصر كلها في قصة، ولكن في خدمة البناء القصصي "[٣٠] .

وتختلف طريقة بناء العمل القصصي باختلاف نوع القصة طولاً وقصراً، كما تختلف وفقاً لتصوير الكاتب لإطار عمله ومادته وطريقة كاتبها من حيث عدد الفصول، والبدء والختام ...والمألوف في أسلوب البناء أن يتبع الكاتب تخطيطاً محدداً بحيث تبدو الأحداث مترابطة يؤدى بعضها إلى بعض، وتتجه شيئاً فشيئاً إلى التعقيد الذي يتطلب الحلّ، وبذلك تسير في خط ممتد بين الهدف والنتيجة .

والأثر الفني لهذا الشكل البنائي في القصة أنه يشوّق القارئ إلى الاستمرار في متابعة الأحداث في القصة حتى النهاية لكي يعرف على أي نحو تكون النتيجة .

بقي عنصر آخر له وزن في القصة، هو القيمة الشعورية، فقد كان حديثنا إلى هذه اللحظة عن القيم التعبيرية، و " المقصود بالقيمة الشعورية: الآفاق الشعورية التي يرتفع إليها الموضوع، والتي تصور في ظلها الحوادث والشخصيات . . . ولا شك أن للقيم التعبيرية – طريقة العرض وطريقة التعبير– قيمتها في تحديد قيمة القصة، ولكنها وحدها لا تستقل بالتقويم، ولا بد من النظر إلى هذه الآفاق الشعورية، ومدى مطابقة القيم التعبيرية لها . . . فبعض القصاص يصور لنا الحوادث والشخصيات بغاية الدقة والبراعة من الناحية القصصية، ولكنه لا يتجاوز بنا محيط هذه الحوادث . . . وبعضهم يقفنا – بعد الحوادث – وجهاً لوجه أمام الحياة كلها: سننها الخالدة، وأوضاعها الكونية وأقدارها الشاملة . وهذا البعض لا يحدثنا عن هذه الشؤون حديثاً مباشراً، إنما يدعنا نتسرَّب من خلال الشخصيات المعيّنة إلى الإنسانية الخالدة – كما ترتسم في بصيرته – فتلك الحادثة جزء وكل، وهذه الشخصية فرد وأنموذج . . . ويبلغ بعضهم في الإبداع إلى الحدّ الذي تصبح نماذجه

البشرية أبقى وأحيى من المخلوقات الإنسانية، وتصبح أحداثه ووقائعه سمة على الكون والدهر أوضح من الحوادث التاريخية . . . وهذا المستوى أرقى من المستوى الأول بلا جدال "[٣١].

ونخرج من هذا البيان عن عناصر القصة وخصائصها الفنية، إلى القول إن هذه العناصر قد لا تجتمع كلها في كل قصة، وإنما لكل عمل ظروفه التي تخضع لظروف المؤلف، وتصرفه فيما يحكى من أحداث وشخصيات، وكيف يتدخل فنياً في عرضها . . مع الأخذ في الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مواهب فنية حتى تحسن الإفادة منها واستخدام ما هو ضروري في بناء حبكة القصة، فأحياناً يلعب أحد العناصر القصصية دوراً رئيساً في إحدى القصص، بينما هناك قصة أخرى تخلو منه تماماً دون أن يمسّ هذا - في شيء - حقيقة الجنس الأدبي أو روعة القصة وتماسك بنائها .

ثالثاً: أهداف القصة

حتم أن يكون لكل قصة هدف، و إلا كانت القصة لغواً لا جدوى له، والقاص ككل فنان آخر - مصور للحياة في مختلف ألوانها، مترجم عما يتردد في مخيلته وما يجيش في صدره من معانٍ ومشاعر، فهو إذا كتب فإنما يكتب لتصوير هذه المعاني والأهداف وإيضاح المشاعر، بل أن الهدف يتحكم أيضاً في الأصول الفنية الخالصة نفسها، وذلك لشدة ارتباط تلك الأصول بالهدف المنشود بحكم أنها ليست في النهاية إلا وسائل لتحقيق هذا الهدف، فعندما تغير هدف " التراجيديا " مثلاً من تطهير النفس البشرية بواسطة الإثارة العاطفية إلى تحليل النفس البشرية والكشف عن العناصر التي تتصارع داخلها لتوجيه السلوك - رأينا الصراع الدامى - وهو مقوم فنى أصيل - ينتقل من الصراع الخارجي بين الإنسان وقوة خارجة عن ذاته، كالقدر عند اليونان القدماء - إلى صراع داخلي يجرى داخل النفس البشرية بين العقل والعاطفة، أو الحبّ والواجب، أو العواطف المتضاربة، على نحو ما حدث عند كلاسيكيي القرن السابع عشر الميلادي "[٣٢].

إذاً لا يكفي في دراسة الأدب على وجه عام، والقصة على وجه خاص أن أشير إلى أنها مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جوانبه ونفسيات أهله، ولكن علينا دراسة الأدب (في) المجتمع، وليس بوصفه مجرد انعكاس للمجتمع، ومع أن الفن يعمل من خلال أفراد – إذ أن مهمته تتعلق بالأفراد بما هم أفراد إلا أن مهمة الأدب الاجتماعية لا تتضح إلا عند الالتزام بنظرة الأدب إلى المجتمع في كليّته؛ وللوصول إلى تلك المهمة الاجتماعية، نقول إن الأدب ليس أعمالاً جامدة، وإنما صيرورة، فالأدب والمجتمع يعيشان في وحدة جدلية، والوجود الاجتماعى لا يقوم إلا بتصميم الأدب فحسب . . . فالقول بإن الأدب " يفعل شيئاً " ليس كافياً، وإنما يجب أن يكون للوظيفة هدف وغاية، وهنا نرى أن الأدب يعمل كى يزيد من حرية الإنسان، وهو عندما يقوم بمهمته على نحو صحيح، يزيد من تحرر الإنسان، وتحرر المجتمع "[٣٣]

ويمكن القول بإن للأديب في مجتمعه مهمة يمكن أن نُجملها فيما يلي:

نقل التراث الروحي في صورة يقبلها العصر ويدفع تلك الأفكار الموروثة إلى تيار الحياة .

التعبير الصادق عن الحياة التي يعيش فيها بحيث يشعر قراؤه أنه يصوّر ما في نفوسهم من آمال وآلام .

جـ- تنمية الحياة الأدبية بما يضيف إليها من مبتكرات .

وللفن القصصي فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة، فهو أسبق من الشعر، ومن التصوير، ومن الحفر، بل من الموسيقا نفسها، إلى التقاط صورة حياة الجماعة التي يعيش فيها وإثباتها على الورق، ثم هو أقدر من هذه جميعاً على رسم أمل الجماعة في المستقبل، وتصوير المثل الأعلى الذي تصبو إلى تحقيقه "[٣٤] . . .

" إن القصة أيّا كانت الحوادث التي ترويها، إنما تدل على فكرة وتتصل بمثل أعلى في نفس كاتبها . . حتى أن القصص التي تكتب للتسلية ليس غير، لا يمكن أن تخلو من التعبير عن فكره في نفس الكاتب . . أما القصص التي تعدّ بحق أدباً وفناً،

فالفكرة والمثل الأعلى يتكرّران خلالها واضحين في صور مختلفة وألوان شتى "[٣٥].
وعلى هذا فإننا نرى أن " القصة أعظم أداة لتحقيق التغيير والتجديد في مضمار الأدب النثري، فقد حوّلت القصة مركز الاهتمام من البلاط الملكي إلى الطبقة البرجوازية، ثم إلى الفقير والعامل، وأخيراً إلى الرجل العادي، بغض النظر إلى مركزه "[٣٦]

والقصص التي حملت طابع القضايا الاجتماعية، تمثلت في اتجاهين يتلاقيان آخر الأمر هما: الفرد وحقوقه المهضومة التي تتطلب تغير النظم القائمة من ناحية، ثم ما تستلزمه سعادة الفرد بعد ذلك من تعاون اجتماعي من نوع جديد من ناحية أخرى، وصارت هذه القضايا أعمق أثراً في علاج المجتمع ومسائله منذ عنصر الرومانتيكيين، إذ صارت الطبقة الوسطى ذات أثر فعال في المجتمع، فصعدت فيه تنتقص حقوق الطبقات الأرستقراطية التي لم يكن لها مبرر. وصارت القصص من وسائل التعليم والتسلية معاً تحرك المشاعر وتوصي بالإصلاح، ويكتشف بها القارئ نواحي في نفسية المجتمع قد تغمض على المشرع الاقتصادي "[٣٧]

وكانت القصص الرومانتيكية التي تدافع عن القضايا الاجتماعية تحصل الطابع العاطفي المشبوب الثائر، وتثير الأفكار إثارة مباشرة خطابية غالباً، والشخصيات الرئيسة فيها ضحايا نظم المجتمع، وهم رموز لطبقات اجتماعية، يدافعون عن آرائهم أو يمثلونها في بطولة يحيد بها مؤلفها عن مجرى الحقائق المألوفة في عامة الناس، وغالباً ما كان الشر – وهو هدف الهجمات في هذه القصص – ممثلاً في صورة الظلم الاجتماعي الذي يعانى منه البائسون والفقرّاء . . . وهكذا قصدت القصص ذات القضايا الاجتماعية إلى تنظيم الفرد في علاقته بالمجتمع ونظمه، والتأثير المباشر في استبدال نظم بغيرها، لإقرار العدالة الاجتماعية إقراراً مبنياً على الاعتقاد العميق في حق الفرد، ولهذا كثرت الآراء الحرة التي قضت قليلاً علي امتياز الطبقات[٣٨].

أما القصة الواقعية والطبيعية فلم تقتصر علي الوقوف عند حدود الوقائع

الطبيعية وتحاشي الأحداث العجيبة وغير المألوفة، بل أضافت إلى اهتمامها بالطبقات الدنيا والمتوسطة خاصة أخري، هي كشف جوانب السوء والشر في النفس الإنسانية، فصورت المجتمعات والنفوس المترفة فريسة للفساد وللغرائز الحيوانية التي تنمو في ظل المجتمعات المهددة بتغير في نظمها، انتظاراً لما يعوزها من إصلاح تستقر به أوضاعها"(٣٩).

ومع ظهور الرمزية في الأدب أصبح للقصّاص طريقة فنية خاصة للتعبير عن مجموعة من الأفكار الانفعالية داخله، مستخدماً الإيحاء والتمليح والإشارة، " فالرمزية قد ترتفع بالعمل الفني إلى مستوي تجريدي – وفي الوقت نفسه- تصور الجزء الغائم من النفس الإنسانية .. أي أن الرمزية تمنح الأفكار الباطنية شكلاً خارجياً"(٤٠).

ولقد آثر المربون أن يقدموا للنشء قصصاً إنسانية طبيعية من روائع القصص الذائعة مقربة إلى أذهانه بشتى أساليب التقريب، وذلك حتى يطالع النشء صفحة الحياة كما تتجلي بها الأيام، وحتى لا يقرأ شيئاً ثم يصادف في حياته عكس ما قرأ . ولذلك قدموا له صوراً من القصص الإنساني الصادق، تبصره بحقائق النفوس، وتكشف له مختلف السرائر حتى يستقيم ذوقه، وتتفتح بصيرته، فيستطيع أن يساير الحياة في غير غفلة، ولا تصنّع، ولا تستّر. فالقصص الإنساني هو النبع الصالح لكل من يغترف منه في مختلف مراحل العمر.. وهو نعم المؤدب لمن يلتمس منه جوهر الأدب ولباب التهذيب"(٤١).

ولقد نبّه محمود تيمور إلى ما يمكن أن يخدع الأدباء بعدم فهمهم لرسالة القصة فقال " لقد تناقل النقاد أن القصة رسالتها تهذيب الأخلاق وتربية النفوس، والتبصير بالمثل العليا في الحياة، فانساق فريق من كتّاب القصة وراء هذه الرسالة يحاولون أن يخرجوا قصصهم تتغني بالفضائل، وتنعي علي الشرور والآثام ... وإذا كان لهذا القصص شأنٌ عند من يبتغون ظاهراً من نصرة المثل العليا، ويقيمون في أخيلتهم مجتمعاً فاضلاً من الناس قوامه عدل وحق وخير، فهو عند الأدباء الفنانين

قصص غير فني، برقه خُلَّب، وماؤه سراب.. والقصص الفني هو الذي لا يقتصر علي الجانب الواعي من حياتنا اليومية، واللون البادي من مجتمعنا الظاهر، بل يتغلغل فيما وراء الوعي، وينفذ إلى باطن الحياة والمجتمع، حتى تتجلي له تلك الطوايا التي إليها مراجع الحفز والتوجيه... والقصاص الفنان هو الذي يبصرنا بالحقيقة الخافية والباعث المكنون، فيرينا من أنفسنا ما نسر، ويصارحنا من أمرنا بما نكتم، فإن لم يفعل ذلك فهو أقرب إلى أن يكون صاحب عظات طنّانة، تهتز لها المنابر والمنصات، فيصفق لها السامعون ما شاءوا أن يصفقوا وقلوبهم جميعا في شغل بما يضطرم فيها من أشتات النزعات والغرائز ومن مختلف العقد النفسية والملابسات المتشابكة،تسير بها على حكمها في طوع أو على كره "(١)".

وبهذا المفهوم الواقعي لاتجاهات القصة، صارت القصة أعظم الأجناس الأدبية خطراً، وأحفلها بالآراء الفلسفية والاجتماعية والنفسية، وأمسها بمشكلات الإنسان وعصره، وفيها يصور الإنسان لا علي أنه أنموذج عام يصلح لكل عصر وبيئة، ولكن علي أنه مخلوق حي ذو جوانب نفسية متعددة، يواجه موقفاً خاصاً، وليست القصة الحديثة تقريراً عن التجربة، ولكنها تصوير حيّ للتجربة، يوحي بمعانٍ إنسانية ونفسية عامة تترائي من خلال الموقف الخاص، وبهذا لا تفقد قيمتها الإنسانية لمعالجتها موقفاً إنسانيًا قد ينتهي خطره أو قد لا يهم قوماً لا يمتّون لي القارئ بصلة، بل إن معانيها الإنسانية تتضح ويعظم خطرها كلما تعمّق الكاتب في معالجة المشكلات والجوانب النفسية وفي تخصيصها بالمواقف التي يعالجها، والفترة التي يتناولها فيها.

تقديم:

لا جدال في أن القرآن الكريم قد أثار، في أساليبه الرسالية، أكثر من أسلوب، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، فيما يفكر به في قضايا العقيدة والحياة، ليقتنع بالفكرة – الحق، التي ترتبط بالله، وبالطريق – الحق الذي يصل بالإنسان إلى الله . . . في أجواء رائعة تتحول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيه المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لئلا تعيش العقيدة جفاف الفكر ، أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة .

وكانت " القصة " من بين الطرق التي سلكها القرآن في هذا السبيل، ولذلك لا يسعنا إلا أن نقر بأن هذا القصص بعض القرآن فيثبت لها ما يثبت لجميعه من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز في وحدة فنية رائعة . ونصل بذلك أيضاً إلى أن القصص القرآني أدب فني متكامل، لأنه من عند الله – سبحانه وتعالى – وربما عنَّ لسائلٍ أن يقول: أنَّى للجماهير البسيطة أن تستجيب للأدب الفني الكامل، وهي محدودة الوعي والإدراك، متخالفة الأذواق ؟

الحقيقة أن الإيحاءات التي يتضمنها القصص القرآني، لا يمكن استيعابها جملة، فالنصوص القرآنية تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف على قدر مقسوم .

إن الصورة الأدبية الفنية الكاملة يجد فيها كل ذوق ما يلائمه، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها، ويستجيب لها، حسبما تعنيه ملكاته ومداركه .

والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل البشرى أن يتبلّد فيعطيه كل شيء يلغى الفكر، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر .

وقبل أن ننتقل إلى تفصيل البحث في فصول هذا البحث نعرض لمعنى القصة عند كل من اللغويين والبلاغيين وعلماء التفسير، ثم نتبع ذلك بالحديث عن الفرق بينها وبين النبأ والخبر والحديث .

إن علماء اللغة قد اكتفوا من الحديث عن القصة بتحديدات مبهمة، وتعريفات ناقصة، إذا أنهم اكتفوا بما يثيره لفظ القصة في الذهن من معنى وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغة أن يذكروا لنا معاني الألفاظ أو ما تثيره الألفاظ في الأذهان من صور، وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنية، والتعريفات العلمية، وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلمية أو الفنية .

والمعاني التي وقف عندها علماء اللغة عند حديثهم عن مادة " قصص " كثيرة، ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث أدبي ما رواه اللغويون عن الأزهري، وعن الليث . يقول الأول: " القص: فعل القاص إذا قص القصص والقصة معروفة .

ويقول الثاني: القص اتباع الأثر ويقال: خرج فلان قصصاً في أثر فلان، وقصا، وذلك إذا اقتفى أثره، وقيل القاص يقصّ القصص لاتباعه خبراً بعد خبر، وسوق الكلام سوقاً (٢)"

أما المفسرون: فيخطون بالمسألة خطوة إلى الأمام، ذلك لأنهم ينظرون إلى المسألة باعتبارين، اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك التحصيل اللغوي الذي صورنا منه طرفاً، واعتبار ديني: ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة، وهى قصد القرآن الكريم من قصصه وأهدافه التي ترمى إليها .

والإمام الرازي – رحمه الله – يجمع بين الاعتبارين . ويقرّب بين الاتجاهين،

وذلـك عـند تفسيره للآية الكريمة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (سورة يوسف:٣) فيقول القـصص اتـباع الخـبر بعـضه بعـضاً، وأصـله في اللغة المتابعة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (سـورة القصص من الآية١١) اى اتبعى أثره، وقال تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (سورة الكهف من الآية ٦٤) أى اتباعاً . وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقصّ الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً .

" والرازي " إذ يذكر هذا إنما يحاول التقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاح الأدبي، وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ " الحكاية " وإطلاق لفظ " القصة " عليها . ويقول أيضاً عند تفسيره لقوله تعـالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (سورة آل عمران من الآية٦٢) والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة، وهو قول يشرح معنى القصص شرحاً دينياً كما نرى .

وقد استعمل القرآن الخبر والنبأ والحديث للتعبير عن القصة كثيراً وإن كان قد فرّق بينهم في المجال الذي استعملوه فيه جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة، وإحكام وإعجاز . فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث التي مضى الزمن بعيداً بها . ولفها في أطوائه، على حين أنه استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع . أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان .

وقد وضع " أبو هلال العسكري " فروقاً لغوية ودلالية بين هذه الألفاظ فيقول إن الفرق بين " الخبر "، و " الحديث ": أن الخبر هو القول الذي يصح وصفه بالصدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك، وأصله أن يكون الإخبار به عن غيرك وما به صار الخبر خبراً هو معنى غير صيغته،، لأنه يكون على صيغة ما ليس بخبر .

والحديث في الأصل هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك وسمى حديثاً لأنه لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك فحدّثت به، ثم كثر استعمال

اللفظين حتى سمي كل واحد منهما باسم الآخر، فقيل للحديث خبر وللخبر حديث .

أما الفرق بين النبأ والخبر أن النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر . فقد قال تعالى: " فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون" (سورة الشعراء من الآية ٦) وإنما استهزؤوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته، ولو علموا ذلك لاتقوه: يعنى العذاب وقال تعالى: " ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ " (هود: من الآية ١٠٠)

أما الفرق بين القصص والحديث: أن القصص ما كان طويلاً من الأحاديث متحدثاً به عن سلف، ومنه قوله تعالى " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " ولا يقال له قاص لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القصص صناعة، وأصل القصص في العربية، اتباع الشيء الشيء، وسمي الخبر الطويل قصصاً لأن بعضه يتبع بعضاً حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص . والحديث يكون عمّن سلف، وعمّن حضر، ويكون طويلاً وقصيراً، ويجوز أن يقال القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضا، حتى تحتوى على جميع أمره .

وفي القرآن الكريم أنباء لا تبلغ حدّ القصص خلافاً لما توهمه بعض الكاتبين، والقرآن لم يسمّها قصصاً لا لأنها ليست أحداثاً ماضية، ولا لخلوها عن تتبع الآثار الماضية فقط ...ولكن لأنه ليس فيها أمداد في التصوير . فهي في ذاتها لا تصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الرؤية للغرض القصصي الأصيل "(٤)"

وكثيراً ما يقع في كتب التفسير " حكى الله تعالى "، وينبغي تجنبه قال الإمام أبو نصر القشيري "(٥)" في كتابه " المرشد ": قال معظم أئمتنا: لا يقال: " كلام الله يُحكى " ولا يقال: " حكى الله " لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء، وليس لكلامه – أي القرآن – مثل "(٦)".

ويذكر بعض الباحثين قائلاً: " إن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ولا تمثيلاً لشخوصها ومشاهدها، وإنما هو بعث لها وإعادة لها وإعادة لوجودها في هذا النظم الذي ينقل إليها الماضي، أو ينقلنا إليه، فنطالع هناك وجود الحياة في

زمانها ومكانها حتى لكأننا حتى أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله . فكان لفظ القصص أو القص أنسب يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن . إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتتبعه ثم الوقوف عليه بذاته لا على صورته أو ما يشبه صورته ...

ونخلص من هذا كله إلى القول بإن القصص أنباء وأحداث تاريخية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة – الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً "[٦] .

أنواع القصة فى القرآن الكريم عناصرها وأغراضها

أولاً: أنواع القصة في القرآن الكريم:

لقد استخدم القرآن – في أغراضه الدينية البحتة – كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج، والقصة المضروبة للتمثيل ، والتي لا تمثل واقعة بنفسها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور[١٨] .

١ـ القصة التاريخية:

قبل الحديث عن القصة التاريخية في القرآن الكريم، يجب أولاً أن نوضح مفهوم التاريخ في القرآن، " فالتاريخ " أو بتعبير القرآن: " أيام الله " يذكر في موضعين: في سورة إبراهيم الآية الخامسة ، وفي سورة الجاثية الآية الرابعة عشر ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناءً على ما جاء في القرآن، فمن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها . وأن العذاب يعجل لها في الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات، ولكي يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية، داعياً إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وفي حاضرهم، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سورة إبراهيم:٥)، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (سورة آل

عمران:١٣٧)، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران من آية ١٤٠)، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سورة الأعراف آية ٣٤).

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة يتجلى فيه التعيين والتحديد، وهي في صيغتها البالغة الإيجاز توحي إمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية، وعلى هذا فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخي يكون على ضلال مبين، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون في تعريفه قد دان بالجانب الأكبر مما استوحاه فيها لما استوحاه من القرآن، بل هو مدين أيضاً للقرآن إلى حد كبير حتى في أحكامه على الأخلاق والطبائع

على أن عناية القرآن بالتاريخ بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة الإنسانية تذهب إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى تعليمات تاريخية، فقد وضع قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخي، وبما أن التدقيق في رواية الحقائق التي تكون مادة التاريخ شرط لا غنى عنه بوصفه علماً، وبما أن رواية الأخبار على وجهها الصحيح متوقفة على رواتها كل التوقف، فإن أول قاعدة من قواعد النقد التاريخي هي القاعدة التي تقدر أن أخلاق الراوي عامل مهم في الحكم على روايته . وفي هذا يقول القرآن " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "[1] .

أما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي، وأن المستقبل متوقف على الحاضر: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (سورة الرعد: من آية ١١) .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن قصة من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن

الاعتماد عليه، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل، ومما يحددها في الزمان والمكان، وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد، وكتب التاريخ القديمة .

الحقيقة أن هذا لا ينافي صدق القرآن أو صحة أخباره، حيث إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن، لأن قرب الحادثة أو بعدها في الزمان والمكان، لا يؤثر فيما تحمل من عبر، ما دامت تلك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان، مرتبطة بما في كيانه من نوازع الاستقامة والانحراف، قائمة على طريق الإنسانية التي لا تتغير في جوهرها بتغير الأجيال فالقرآن الكريم لا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، ولا لأجل التفكه بها، أو الإحاطة بتفاصيلها، وإنما لأجل العبرة والموعظة والهداية: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف من آية ١١١)، ولبيان سنن الاجتماع: ﴿ سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة غافر من آية ٨٥) .

ومن المؤرخين النابهين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلا ما يستنبط منه الأمور الكلية، والأصول العامة، ولا يحفل بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة، ولما قراءتها من الإسراف في الزمن، فلا يكون عمله عرضة للتكذيب والطعن كما هو الشأن في أكثر المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية [٥٠] .

أما إذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص القرآني، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه، ونقل إلينا بالتواتر الصحيح، هو الحق . وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن، لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحري والضبط بحيث يكون حجة تعتمد في هذا المجال، إذ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها، ولا تواتر يعتدّ به [٥١].

أما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهد القديم فإن القرآن – بوصفه سماوياً سلم من التبديل والتحريف بشهادة الباحثين المخلصين

للحقيقة من غير المسلمين – جاء مصدقاً لما في التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله، وكاشفاً عن الحق فيهما بعد أن ألبسه التحريف بالباطل: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (سورة النحل ٧٦).

إن وحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها على طريق سواء في مبادئ الدين وأصوله العامة، وتجعل اختلافها في ذلك محالاً . وعلى هذا الاعتبار فإن تنزيه الله عن كل نقيضه، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغير في جميع الأديان، وكلما وجدنا في نصوص العهد القديم ما يعارض مبدأ تنزيه الله، أو عصمة الأنبياء، أيقنا بتحريفه.

ونأتي هنا بواحدة من القصص التاريخية في القرآن ونتتبع سير الأحداث فيها لنخرج في النهاية إلى أن العرض التاريخي في مثل هذه القصة حجة لا تقبل الطعن . تلك هي قصة " ذي القرنين " التي وردت في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٨٣-٩٨) .

في هذه القصة لم يذكر القرآن شيئاً عن شخصية ذي القرنين ... ونحن كذلك لن ندخل في مناقشة حول من هو ذو القرنين شخصيته إلى آخر هذا .. فليس المقصود في القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص، أن يحدد شخص بنفسه لأن التشخيص قد يفسد القضية . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أصحاب الكهف مثلاً .. ومن هو فرعون موسى، ومن هو قارون، إلى آخر الشخصيات التي ذكرت في القرآن . فإننا نتوه عن الحقيقة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر في كل زمان ومكان، وهى قصص مضروبة لكل عصر، والعبرة هنا تأتى بالشيوع، أي تأتى على من تنطبق عليهم القصة، في أى زمان كانوا وفي أى مكان وجدوا (٥٠)، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة (٥٢)....فعندما يضرب الله مثلاً بالذين كفروا: " امرأة نوح وامرأة لوط "، فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط، وإنما كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخونه، وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون، فإنما يعنى كل امرأة مؤمنة وزوجها كافر، وهذا يتكرر في كل عصر، والحادثة الوحيدة التي لن تتكرر هي قصة مريم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: " ومريم ابنة عمران " أي أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . إذاً فالتشخيص في القرآن الكريم، ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص، ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذي القرنين، نتحدث عن رجل مكّن الله له من كل شيء، وآتاه من كل شيء سبباً ؛ ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذي القرنين، ومَن هو، إلى آخر ما يُراد به البعد عن الحكمة، على فرعيات ليست مطلوبة (٥١) .

ومن البدهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولهما: إن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية، ولم يعلم عنها شيئاً .والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما: إن التاريخ، وإن وعى بعض هذه الأحداث – هو عمل من أعمال البشر

القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد في زماننا هذا – الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص – أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يُروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة . ويفسرّ تفسيرات متناقضة.ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق. فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل ... وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مراء !!!(٥٥) .

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين، سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته .. وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين، وينبغي أن تؤخذ بحذر، لما فيها من إسرائيليات وأساطير . وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدّين .

ونقف هنا أمام ظاهرتين جديرتين بالملاحظة والاهتمام في هذه الرحلات الثلاث أولهما: إن الله سبحانه وتعالى جعل لذي القرنين عملاً حين بلغ مغرب الشمس ... وجعل له عملاً حين بلغ بين السدّين ... ولكن في الرحلة الثالثة لم يجعل له عملاً .. إذاً لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى: " لم نجعل لهم من دونها ستراً " . إن ذي القرنين قد وصل إلى مناطق في الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة ... أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن في الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتي تخضع لها باقي أجزاء الأرض، وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة(٥٦).

أما الظاهرة الثانية، " فهي ظاهرة التناسق الفني في العرض .. فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذي القرنين ونيّاته كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة "(*).

وهكذا تنتهي قصة ذي القرنين الأنموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنّه الله في الأرض، وييسرّ له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنى المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته أن يعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحًا أجردًا مستويًا (**): " قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً ".

وهكذا فإن القصص التاريخي في القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف، لكنه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية وقد أبان وجه الحق فيما دخل علي بعض القصص من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين، القديم والجديد، أو في كتب التاريخ القديمة.

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، فعلى الدارس لقصصه ألا يقتصر على معرفة الوقائع، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله، وهى علي أكمل نظام، وأتقن ترتيب.

إن القرآن لم يقتصر علي عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوي الخير وقوي الشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بها لتلك الأحداث من قوة مفروضة علي النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً ويقظة وإحساسًا.

ومن هنا كان هذا القصص التاريخي أشد تأثيراً وأسمي طموحاً من التاريخ، لأنه يمدّ الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويعرفه بها لله من نواميس قارة في نظام الخلق والإبداع، ومن سنن مطردة في نظام الأقوام والأمم، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها، تتصل فيها الأسباب بالمسببات، فلا تتغير أو تتحول محاباة من الناس، لأنها محور عدل الله وحكمته في تدبير الأمور "(٩).

٢ـ القصة الواقعية:

وهي التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج(١٠). ومن أمثلة ذلك: قصة ابني آدم والتي وردت في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٢٧-٣١).

هذه القصة تقدم أنموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، وأنموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم أنموذجاً لطبيعة الخير والسماحة وأنموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرّف وفق طبيعته(١١)،

حيث اتبع القرآن في هذه القصة أسلوب تصوير الشخصية، وهو من الأساليب القرآنية الرائعة التي سار عليها وذلك بأن تقف الشخصيتان في حادثة معينة، موقفين متباينين.. ثم ينطلق الحوار الناطق، كلمة بكلمة، والحوار الصامت،عملاً بعمل، ليعبّر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء موقفه .. ليفتح – من خلال ذلك – للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة في الإطار السليم"[١٢] .

أما عن السياق فتبدو القصة وإيحاءاتها ملتحمة التحاماً قوياً مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني، ويحس القارئ المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة في موضعها، وبعمق الإيحاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترسيه، والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقي الأحكام المشددة التي يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء علي النفس والحياة ..

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة . وعلي الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن " قابيل وهابيل " وإنهما هما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع علي أختين لهما . فأننا نؤثر أن نستبقي القصة، كما وردت – مجملة بدون تحديد – لأن هذه الروايات كلها موضع شك في إنها مأخوذة عن قصة التوراة الواردة في سفر التكوين[١٣] وبقاء القصة مجملة – كما وردت في سياقها القرآني – يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإيحاءات كاملة، ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية..

ولا يكتفي السياق بالانتهاء من عرض القصة، بل يلتقط الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فُرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقِصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القِصاص التي تنتظره: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ (سورة المائدة:٣٢) .

مـن أجـل ذلـك .. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية .. من أجل الاعتداء علـي المسالمين الوادعـين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً .. ومن أجـل أن المـوعظة والتحذيـر لا يجـديان في بعض الجبلات المطبوعة علي الشر، وأن المسألة والموادعة لا تكفيان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس .. من أجـل ذلـك جعلـنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة من الكبائر، تعدل جريمة قتل الـناس جميعاً، وجعلنا العمل علي دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعد إنقـاذ الـناس جمـيعاً.. ولقد كتب الله ذلك المبدأ علي بني إسرائيل، لأنهم كانوا – في ذلـك الحـين – هـم أهـل الكـتاب،الذين يمـثلون " دار الإسلام " ما أقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء.. ولكن بني إسرائيل تجاوزا حدود شريعتهم – بعـد مـا جاءتهم الرسل بالبيّنات الواضحة– وكانوا علي عهد رسول الله – صلي الله عليه وسلم– وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم. والقرآن يـسجل علـيهم هـذا الإسراف والـتجاوز والاعـتداء، بغـير عـذر، ويسجل عليهم كـذلك انقطـاع حجـتهم عـلي الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم، وبيان شريعتهم لهم[١١] كما في قوله تعالي:

﴿ وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (سورة المائدة من الآية ٣٢) وهل من إسراف أشدّ من تجاوز حدود الله ؟ والتعدّي علي شريعته، بالتغيير أو بالإهمال؟

إن هـذه القصة الواقعية القصيرة أو " القصة الذريّة "[١٥]– قصة في خمس آيات – لأنهـا تـشبه الـذرة في ضـآلتها ومساحة تأثيرها الكبير، والتي قصّها علينا القرآن في إطـار الحـوار القـصير، تجسّد لنا الصورة الحيّة لشخصيّة الإنسان الشرير إلى جانب شخـصية الإنـسان الخـيّر، لتربطـنا بفكـرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشر، في موقف يوحـي للناظـر والمـستمع، بفظاعـة موقـف ذاك إزاء روعة موقف هذا، حيث نري الجـريمة خالـية من كل مبرراتها وحيثياتها العادلة التي تجعل منها عملاً عادلاً، لأنها نـشأت مـن حالة نفسية معقدة بالحسد، فليس للضحية فيها أي ذنب، بل نجد – في

جـو الآية – أن الضحية لم تحاول أن تجعل من قبـول قربانها ورفض قربان المجرم لها، أساساً لأي تـصرف استعراضي يُسيء إلى كرامته على الشكل الذي يتبعه الرابحون أمام الخاسرين لأن خلق الأخ المؤمن كان بعيداً عن ذلك كل البعد.

ولعل قيمة هذه القصة، أو بالأحرى، عرض القرآن لهذه القصة، تتمثل فيما تخلقه في نفـس القارئ أو السامع، من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطف روحي مـع الـضحية، ممـا يترك آثاره على السلوك الإنساني العام فيما يريد أن يقدم عليه من عمل، أو يحكم عليه من أعمال الآخرين.

ويمكـن الاسـتفادة مـن مـثل هذه القصة تربوياً إذ تعتبر هذه القصة وسيلة حية للإيـضاح عـندما تـتحول إلى عمل مسرحي أو ما يشبه ذلك، وأسلوباً من أساليب التوجـيه والتربية فقد نجد من الخير لنا، أن نجعلها إحدى القصص الدينية التربوية التـي نقـدمها للأطفال أو للشباب، بالأسلوب الذي يتناسب مع ذهنيّاتهم في عملية تـصويرية حية، بالكلمة أو بالصورة، أو بالتمثيل كما أنه يمكن استيحاء هذه القصة في وضع قصص متنوعة قريبة إلى مثل هذه الأجواء، لتعالج قضية الجريمة والمجرم، في أي جانـب مـن جوانبها، سواء منها الذي يتمثل بالقتل، أو بالسرقة، أو بالزنا أو بـالظلم والاعـتداء عـلى الـناس بـشكل عـام.. لأن دور الأسلوب القرآني هو دور تخطـيط المـنهج الـتربوي لـيسير علـيه الآخـرون في حركة اتباع أو استيحاء وإبداع وليس دور إعطاء النصوص، لحفظها واستظهارها، ونقلها بطريقة "ببغائية" جامدة لا تملك أن تتصرف أو تتحرك في اتجاه التنويع[١٦].

٢ـ القصة التمثيلية:

وهـي نـوع مـن أنواع المثل في القرآن الكريم يطلق عليه المثل القياسي، وهو سرد قصـصي أو وصـفي، يتعاطـى أحد أمرين، فهو: إما أن يصور أنموذجاً من السلوك الإنـساني بقصد التأديب أو التمثيل والتوضيح، وإما أن يجسّم مبدأ يتعلّق بملكوت الله ومخلوقاته[١٧].

وكما يتضح الصدق الواقعي في القصص التاريخي، وهو أكثر قصص القرآن، فإن

الصدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين: موضوعية وفنية:

أما الوجهة الموضوعية فهي تمثيله بأشخاص غير معينين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسبة في شعور الإنسان لأنها من طباعه وفي غرائزه..

وأما الوجهة الفنية، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها، وهذه وظيفة الفن[18].

ومن أبدع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنتين لما فيها من تشخيص حي للمشاهد يقصّر عنه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي، والقصة تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم أنموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما أنموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين أنموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر علي أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفني، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه أنموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه يري النعمة دليلاً علي المنعم، موحية لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[19]:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ

رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (سورة الكهف ٣٢- ٤٤).

تبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة، ويختار التعبير كلمة " تظلم "(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) في معني تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر[٧٠]... ونلاحظ أن صاحب الجنتين قد بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الإحساس بالقوة، بسبب ما يملك من كثرة المال والأتباع، وكان خطابه – معه – ينطلق من محاولته لإخضاعه نفسياً بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما، وتميزه عنه، أما صاحبه المؤمن الفقير فيقف في حواره مع صاحب الجنتين، في موقع الإنسان الرسالي الذي يستنكر علي هذا الغني المزهو بغناه، كفره باليوم الآخر ونسيانه لله... ويبدأ في تذكيره بنعم الله عليه وحاجته إليه في كل شيء.. ليبقي مشدوداً إليه في حال الإحساس بالقوة، كما يشعر بالارتباط به في حال الإحساس بالضعف، لأن القوة هبة، يهبها لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء .. وبهذا يتجسّد لنا الفارق الكبير بين العقليتين والاتجاهين في فهم الحياة من خلال هذا الحوار الذي أداره القرآن الكريم بين الرجلين لنستوحي منه الفكرة التي تحكم الموقف في حساب القيم والمعاني الكبيرة في الإسلام[٧١].

وتكتمل الصورة، بالمشهد الأخير في القصة، حيث ينقلنا السياق فجأة من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن: " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا " .. وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية علي عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلّب كفّيه أسفاً

وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب.. وهنا يتجسد لنا الدرس الرائع حيث نجد الإنسان المتجبر المزهو بذاته وبثرائه، عارياً من كل شيء أمام الحقيقة الكبيرة التي تملأ الكون.. فلا نري هنا إلا الله الذي يمنح ويأخذ، ويعطي ويمنع.. فله الولاية الحق على كل شيء: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

ويُسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفّيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلّل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان (١١).

٤ـ القصة العاطفية:

تكلّم القرآن الكريم عن الحبّ، والهوى، وتخلّل الحبّ بعض قصصه لأهداف وعظية أوعز بها القرآن الكريم كي تستثمر فكرياً كمنطلق لدراسة السلوك الإنساني والعواطف البشرية، وذلك خلال هدفها الديني المباشر.

مفهوم الحبّ في القرآن الكريم:

ظلّت كلمة الحبّ من أكثر الألفاظ تردداً في القرآن الكريم، من أي كلمة أخري تعبر عن معناها أو جانب من هذا المعني، فلم ترد كلمة " العشق " في القرآن مطلقاً ... وقد وصف " العشق " بأنه تعبير عن الاشتهاء في حين أن " الحبّ " ميل قلبي ليس الاشتهاء دافعه أو غايته، والأمر اللافت حقاً أن " الحبّ " في القرآن الكريم جاء لمجرد الميل والتعلق، فوصف به الذين آمنوا: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) ووُصف به المؤمنون بأن الله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة من آية ٥٤) ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران من آية ٣١). ووصف به الانحراف في العبادة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) كما وصف به الميل والتعلق بصفة عامة بين أفراد الأسرة، بل بين الإنسان وما يستهويه من متاع الدنيا ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(التوبة: آية ٢٤)، وأيضاً: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ ﴾ (آل عمران من آية ١٤).

وقد جاء الفعل " لا يحب " لنفي الميْل في نفس هذه الدائرة من الاستعمال العام: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ (الأنعام من آية ٧٦) ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (آل عمران من آية ١١٩).

وقد جعل ابن قيم الجوزية، الحبّ أول خطايا البشرية، وسبب معاناتها بالخروج من الجنة، وإن دل اللفظ علي أنه مردود لقول آخرين لم يعنهم: " قالوا: وقد حبَّبَ الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبه هو الذي حمله علي موافقتها في الأكل من الشجرة . قالوا: وأول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء، وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين "[٧٣] .

علي أن الخطاب في الآيات القرآنية موجه غالباً إلى آدم وحواء معاً، والوصف بالعصيان خصّ به آدم وحده، ولم يقل لنا " ابن القيم " إذا كانت سنة الحبّ " بين الزوجين " قد بدأت بآدم وحواء، متي بدأت " سنة " الحبّ بين من ليسا بزوجين "[٧٤] !!.

والحبّ كتعبير عن علاقة الرجل بالمرأة لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق قصة يوسف وامرأة العزيز حيث (قد شغفها حباً)، وحينئذ فان تقديم " الشغف " – وهو من شغاف القلب أي الباطن والصميم – قد خلع علي هذا الاستعمال نوعاً من التخصيص أعان عليه السياق . والآن مع متابعة قصة يوسف وامرأة العزيز خطوة خطوة لنرى كيف تتجسد من خلالها الصورة الحية المعبرة التي أراد القرآن منا أن نتمثلها في حياة الأنبياء السابقين:

يوسف وامرأة العزيز:

" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(سورة يوسف آية ٢٣ إلى ٣٤).

تلك الصورة كاملة في قصته مع امرأة العزيز .. الجو مشبّع بالإغراء .. وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف .. فيوسف شاب في المرحلة المتفجرة من شباب الغريزة وحيويّتها وامرأة العزيز أنثى يحرق مشاعرها وأحاسيسها جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجر .. والأجواء التي يعيشها الاثنان تهيّئ للألفة والاستلطاف للحب.. وتبدأ لتمهد للانحراف في ظل الخلوات... والمشاعر تلتهب، والغريزة تلهث، في كيان هذه المرأة .. أما يوسف فلم يشغل ذهنه في هذا كله – للإيمان الذي

يغمر قلبه، والوفاء الذي يشعر به تجاه صاحب البيت"(٧٦).

وقد كنّي القرآن الكريم عن المرأة التي دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى:" التي هو في بيتها " ستراً علي هذه المرأة، حتى لا تفضح بين أهلها وقومها عن الملأ.. كما أن في إضافة يوسف إليها، وبأنه في بيتها، إشارة إلى أنها ذات سلطان علي يوسف، الذي هو نزيل بيتها، وربيب نعمتها، وأن لها أن تأمر، وعليه أن يطيع .. فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها، كان بسلطان جاهها .. فكيف وبيديها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟"(٧٧).

ولذا فإن القصة لم تشر إلى أية مبادرة منه، بل كانت المبادرة من امرأة العزيز.. وراودته عن نفسه .. وغلقت الأبواب .. وقالت هيت لك.. هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة .. إنما تكون هي الدعوة الأخيرة. وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتي يعيش معها وقوته وفتوّته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلابد وأن كانت هناك إغراءات شتي خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة"(٧٧).

فإن كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاص لجمالها وسلطانها أمام سلطان حبها ليوسف – فإن هذا إنما يدل علي مدي تمكن الحبّ من قلبها حتى وقف بها هذا الموقف المهين لدلال المرأة، وعفاف الحرّة، وامتهان سلطان الجاه والجمال !"(٧٨).

بعد هذا العرض المشبّع بالإثارة جاء رد يوسف يحمل كلمة الإيمان:

" معاذ الله " .. وكلمة الوفاء: " إنه ربي أحسن مثواي ".. ومضي يلخّص لها الموقف في كلمة حاسمة:" إنه لا يفلح الظالمون ".. فهي تظلم نفسها بالمعصية وتظلم زوجها بالخيانة، في هذا الموقف، أما هو، فيلاحقه الشعور بأنه سيتحول، إلى ظالم لنفسه، ولرب البيت الذي آواه ورعاه، فيما لو تجاوب معها في خطّ الانحراف والخيانة .. ولم تستجب للكلمة الحاسمة، فاعتبرتها دلالاً، أو خوفاً من النتائج .. وضاعفت الإغراء .. وهمّت به لتثيره وتنحرف به عن موقفه الصامد: " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ " .. هو موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى

يوسف في أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعي صادق لحياة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً"[٧٩] .

ولم يكن أمام يوسف إلا الهرب بدينه وإيمانه وخُلُقه .. وانطلقت وراءه في حركة مسعورة، لترجعه بكل قوة .. حتى تمزّق قميصه من ذلك .. وكانت المفاجأة لهما بالمرصاد .. فألفيا سيدها لدي الباب .. وحاولت أن تبرئ نفسها لتكون في موقف الضحية . أمام المعتدي .. ولكن براءة يوسف كانت ظاهرة في نبرات صوته، وصفاء روحه، وفي شهادة حاله التي تأكدت بالحكم الذي وضع القضية في إطار مصلحته[٨٠]. واقتنع الزوج ببراءة يوسف، وأقبل علي امرأته، لا ليدينها وحدها في شخصها، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعاً .. " قال إنه من كيدكن " أيتها النساء " إن كيدكن عظيم " .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا المنكر، والداعية إليه، ولكنه يغلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التي هي صنعة الملوك، ومَن في صحبة الملوك .. ثم ينهي هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها، في مقام النصح واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف:" يوسف أعرض عن هذا " ثم يلتفت العزيز إلى امرأته قائلاً:" وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " .. وفي التعبير بلفظ الخاطئين، بدلاً من الخاطئات، ليخفف عنها وقع التهمة، فلا يجعل الخطيئة مقصورة علي بنات جنسها وحدهن، بل يشاركهن الرجال فيها، ولو أنه كان يريد أن يلقي امرأته بالاتهام الصريح، لقال لها: إنك كنت خاطئة ... ولكنه، كان يخاطبها بما يقضي به أدب الملوك، ومن اصطناع الكياسة، واللياقة واللطف"[٨١] .

ويُسدل الستار علي المشهد وما فيه .. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل

ملابساتها وانفعالاتها: " ولكن دون أن ينشيء منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح" [٨٢].

ولم يحلّ السيد بين المرأة وفتاها .. ومضت الأمور في طريقها .. ولكن للقصور جدراناً، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً، وبخاصة في الوسط الأرستقراطي، الذي ليس لنسائه من همّ إلا الحديث عما يجري في محيطهن.. وإلا تداول هذه الفضائح ولوّكها علي الألسن في المجالس والسهرات والزيارات: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ " لأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر عزيز مصر – أي كبير وزرائها – ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة . ونتساءل هنا: وما داعية الكشف عن وجه المرأة وعن مكانتها في المجتمع؟ وقد كان يمكن أن تمضي أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذه المرأة بالذات، وحسبها أن تكون امرأة وقعت في حب ربيبها ؟ ونقول – والله أعلم – إن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة من قبل، لأن الأحداث كانت تجري علي المستوي المألوف في حياة عامة الناس وخاصتهم علي السواء .. فأي بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف وأي امرأة كان من الممكن – أن تراوده عن نفسه، سواء أكانت امرأة ملك أو سوقة .. إنها امرأة أيًا كان وضعها الاجتماعي إذ لم يكن ليوسف خيار في اختيار السيد الذي يملكه، والمرأة التي تكون في بيت هذا السيد... أما حين يكون للحدث ذكر، وشأن يراد به الكشف عن وقعه، في المجتمع وأثره في الناس، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث من حيث وضعه الاجتماعي ومكانته في المجتمع، فالحدث يكبر أو يصغر، وتتسع دائرته أو تضيق، تبعاً لما تعلق به الحدث .ومن البدهي أن تتعلق عيون الناس وآذانهم بأصحاب السلطان والسيادة فيهم، يتسمعون إلى أخبارهم، ويشغلون بالحديث عنهم ... وعلي الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت في دائرة ضيقة، لا تتعدي المرأة، ويوسف، والعزيز زوجها، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر، ووقعت الأذان عليه، فكان همساً علي الشفاه، ثم حديثاً دائراً

علي الألسنة، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة – ومن هنا كان لابد من كشف وجه هـذه المـرأة التـي اهـتم الناس بأخبارها، وشغلوا بالحديث عنها .. إنها امرأة العزيز وأن بيـتها ليضم سراً خطيراً .. إنها تراود فتاها عن نفسه، وهو يتأبى عليها، وهو في الوقت نفسه مِلك يديها(٨٣)

الأسلوب التربوي في القصة:

١- إن قـيمة هـذا الحـوار كلـه يظهـر في تجـسيد صـورة المؤمن عندما يتعرض للاحـتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم، أمام نداء الجنس .. فيقف مع إيمانه مهما كانت التضحيات والآلام.

٢- يتضح لنا من خلال المواقف المختلفة في مشاهد القصة أنه كان هناك حواراً صـامتاً مـن جهـة .. وحواراً طويلاً متنوعاً تدل عليه التجارب الفاشلة المريرة التي حاولـتها هـذه المرأة – بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقدته في بيتها .. وإن كانت كلمات الحوار بين يوسف وامرأة العزيز قصيرة جداً إلا أنها تقدم لنا الأنموذج الحي للموقف الإيماني الصلب أمام محاولات الإغراء، للإيحاء بأن قضية الدعوة إلى العفة في المجالات الجنسية، ليست من القضايا المثالية التي تبتعد عن واقع التطبيق العملي للحـياة الإنـسانية، بـل هـي مـن قـضايا الواقـع التي تتمثل بأكثر من تجربة في أشد المواقف حراجة وصعوبة(٨٤) .

٣- هـذا وقـد ينظـر بعـض ذوي الأبصار الكليلة إلى هذه القصة، وما فيها من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة، فيخيل لهم من ذلك القرآن الكريم إنما اصطنع هـذا الموقف اصطناعاً ليرتضي به بعض الغرائز، استهواء للنفوس، وشداً لانتباهها، كـما يحدث ذلك في أغلب ما يعرض القصاصون من قصص .. وهذا لاشك ضلال في الـرأي، وفساد في الإدارك .. فالقصص القرآني متنزّل من عالم الحق، لا يلتبس به باطـل(٨٥)، وإنـما هو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في قوله: " وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ " (سورة الإسراء: من الآية ١٠٥)

ولعل هذه الرؤية تجعلنا نثير التفكير حول نقطتين مهمتين نستوحيهما من عرض القصة:

أ- النقطة الأولي: إن الدين لا يتنكر للحديث عن الجوانب العاطفية في حياة الإنسان بما في ذلك قصص الغرام والحبّ التي يعيشها الناس، إذا كانت تخدم الأهداف الرسالية، باعتبارها تمثل موقفاً من مواقف الانتصار علي النفس في نوازعها الغريزية وشهواتها الجنسية .. لتعطينا الأنموذج الواقعي للإنسان الذي ينسجم مع رسالة الله . كدليل حي علي واقعية الإسلام في شريعته، ومفاهيمه .. وربما تصوّر بعض المواقف المأساوية للرجل والمرأة بسبب انحراف خاص، أو سلوك غير مسئول .. فتنطلق القصة لتكون أسلوب ردع وتحذير عن مثل هذه المواقف في المستقبل .. ولهذا فإن من الممكن أن نستفيد من ذلك في التخطيط للأدب الإسلامي الملتزم، بالأخذ بالاتجاه القصصي الذي يعطي للمضمون العاطفي في قصص الحبّ والغرام دوره الكبير فيما يؤلف من قصص إلى جانب المضمون الاجتماعي، والسياسي وغيرهما..

ب- النقطة الثانية: إن الدين يتحدث عن العلاقات الجنسية – الشرعية أو المنحرفة – حديثاً طبيعياً كما يتحدث عن أية قضية أخري من علاقات الإنسان – مما يوحي بأنه لا يعتبر مثل هذه العلاقات، في مجالات المعرفة، شيئاً معيباً كما توحي به التقاليد الاجتماعية، بل ربما نفهم من كثير من الآيات والأحاديث التي تسمي الأشياء بأسمائها .. كما تسمي سائر أعضاء الجسم العادية، إن الإسلام لا يمانع في الثقافة الجنسية حينما تخطط تخطيطاً سليماً بعيداً عن أجواء الإثارة تماماً كأي ثقافة أخري"[٨١] ..

وخلاصة القول إن قصة يوسف وامرأة العزيز عندما عرضت الفتنة التي وقع فيها يوسف فإنها عرضت لحظة الضعف كما هي بلا " رتوش "، إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها – علي واقعيتها – لا تستحق الاحتفال، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفيء منها إلى نفسه، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها، وينيب إلى الله"[٨٢].

٥ـ القصة الرمزية:

قبل أن نقدم أنموذجاً للقصة الرمزية في القرآن الكريم يجب أن نحدد نقطتين مهمتين لفهم " الرمزية " في قصص القرآن الكريم:

أولاهما: إن الرمزية في قصص القرآن الكريم قد جاءت لتأكيد قيمة المعاني الثانية في هذه القصص، وهو ما يسمي بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفسي في الصورة الأدبية، وهذا ينقلنا إلى أقدم تعريفاً للرمز علي المستوي اللغوي قدمه " أرسطو " فهو يري:" إن الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً ثم التجريدية، و " أن " الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة "(٨٨) .

أما الموسوعة الإنجليزية فقد جاء منها: " إن الرمز " مصطلح أطلق علي الموضوع المرئي الذي يمثل بالعقل تشابه " Semblance " شيء غير مرئي " not shown" ولكنه تحقق عن طريق الارتباط به أو التداعي " Association "(٨٩).

إذًا فالرمز ليس نقلاً عن الواقع، وإنما أخذ منه ثم تجاوزه، وتكثيفه ليتخلص من واقع المادة ليرتفع إلى مجال التجريد . وهنا يتحقق الإيحاء" Suggestion " بالانفعالات والأفكار عن طريق إعادة خلقها في العقل كي يتم التعبير عن حالات نفسية تستعصي علي التفسير أو التقرير، كفكرة الحياة والموت واللانهائية وفقدان المعني، ولذا وجد ما أطلق عليه بعدًا ثالثًا: " A third dimension " وهو البعد الإيحائي الذي يحقق التوافق بين المحسوس والمجرد(٩٠).

ثانياً: إن القرآن لا يقصّ قصة إلا ليواجه بها حالة .. ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً، فهو يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقصّ قصصه لمجرد المتاع الفني(٩١)

ولذا يمكن القول إن الرمزية في قصص القرآن نجدها في تعدد مشاهده في السور لظروف وأسباب يستدعيها المقام، فتجيء مطابقة للأحوال المتعددة وللمواقف الكثيرة، وللنفوس المتغايرة، لأن هذه المعاني أدل في كل أغراض القرآن،

وهي متصلة أوثق اتصال بالدلالات الأولي باعتبارها مبعث الإثارة، والطريق إلى المعاني الثواني، كما أنها تتنوع إلى دينية ونفسية واجتماعية في إطار ديني تدعو إلى العقيدة الصحيحة، وإلى الإيمان بالله، وإلى خلق الأنموذج المتكامل "(٢) .

ومن نماذج القصة الرمزية في القرآن قصة آدم فهي من أكثر قصص القرآن ثراء بالجوانب الرمزية والمعاني الثواني، وتأخذ مشهد إغواء إبليس لآدم وزوجه والذي ذكره الله تعالى في قوله: " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ "(سورة الأعراف: ٢٠-٢١).وفي قوله تعالي:"فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى "(سورة طه: ١٢٠).

أ- لا شك أن هذه الأوصاف التي خلعها إبليس علي الشجرة لا تلتقي مع الواقع، ولا تستقيم مع الحق، وإنما هي من تلفيقات إبليس وأكاذيبه، ليخدع بها ويغري، ومع هذا فإن المفسرين والقصّاص قد ذهبوا في الحديث عن نوع الشجرة كل مذهب، مستندين في هذا إلى روايات معزوّة إلى بعض الصحابة والتابعين أو إلى ما يرجع إلى مصادر إسرائيلية . والحقيقة أن القرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها في الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا، لا يدخل فيه نوعها .. أيا كان: فلنحاول أن نفهم ما ترمز إليه هذه الشجرة: إن نهي آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له، وابتلاء لعزيمته، أمام الإغراء وحب الاستطلاع:" وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا "(سورة طه: ١١٥)

ب- إن غريزة حب الاستطلاع أقوي غريزة متحكمة في طفولة الإنسانية كما هي متحكمة في طفولة الأطفال، وطفولة الإنسانية كلها، مُندسّة في كيان " آدم " ولهذا فإن هذا النهي الذي تلقّاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين:

١ - موقع الخوف من الجهة التي ألقت بهذا النهي، والحذر من أن يخالف ما نهي عنه .

٢- الرغبة الصارخة في مداناة هذه الشجرة والتعرف عليها، وعلي ما يمكن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة، كانت وسوسة إبليس لآدم، وإغراؤه له . الأمر الذي عجّل بخطوات آدم إلى الشجرة، وسيره حثيثاً إليها، ولو لم يقم إبليس من وراء آدم يغريه بالشجرة ويدفعه إليها، لسار هو وحده نحوها،ولبلغها، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخٍ عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها"[٢] .

وفي القصص القرآني موقف كهذا الموقف الذي كان من آدم إزاء نهيه عن الاقتراب من الشجرة، فلقد نهى " صالح " عليه السلام قومه " ثمود " عن أن يعرضوا للناقة بسوء، فكان هذا النهي منه كأنه إغراء لهم بالعدوان عليها، هذا العدوان الذي كان سبباً في إهلاكهم، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ "(سورة هود: ٦١-٦٨).

جـ- ولهذا فإن الآيتين الكريمتين: خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ " (سورة الأنبياء: من الآيـة ٣٧) " وَكَـانَ الإِنـسَانُ عَجُـولاً " سـورة الإسراء: مـن الآيـة ١١ تكمّـلان الصورة التي خلق عليها آدم، وإن إغراء إبليس له قد عجّل بظهور الإنسان في آدم.

وهكـذا نـري أن قـصة هـبوط آدم كـما جـاءت في القرآن لها معني ثان غير ظهور الإنسان الأول علي هذا الكوكب، وهو بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة علي الشك والعصيان..

ويقـول محمد إقبال: " وليس يعني الهبوط أي فساد أخلاقي، بل هو انتقال الإنـسان من الشعور البسيط، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نـوع من اليقظة من حلم الطبيعة، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة بوجـوده، ويقـول: إن القـرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب، سجنت فيه إنسانية شريـرة العنـصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية فالمعصية الأولي للإنسان كانت أول فعل له،تتمثل فيه حرية الاختيار.. ولهذا تاب الله علي آدم وغفر له"[١١] .

د- تـؤكد قـصة آدم مـا للـنفس الإنسانية من حرية وخلود، وتضع نظرية محددة معيـنة في مـصير الإنـسان بوصـفه وحـدة مـن وحـدات الوجود، هذه النظرية، في شخـصية الإنـسان وفـرديته يستحيل معها أن تزر وازرة وزر أخري، بل يقتضي أن كل امرئ بما كسب رهين، ولذلك رفض القرآن الكريم فكرة الفداء.

هــ- وهـذه الجـوانب الرمـزية في القـصة لا تتـنافي مـع ما ذكرناه من أن القرآن الكـريم لا يقـصّ قـصة إلا لـيواجه بهـا حالـة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغيّر بها باطلاً. ومـثال عـلي ذلـك مـا ورد في ختام قصة آدم وتحذيره وذريته من إبليس وكيده: " يَا بَنِـي آدَمَ قَـدْ أَنـزَلْنَا عَلَـيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِـكَ مِـنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " (الأعراف: آية ٢٦-٢٧).

لابد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنة، ثـم هـذا التعقـيب بتذكـير بنـي آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والـرياش الـذي يتـزينون بـه، وتحذيـرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريـشهم كـما نـزعه عـن أبـويهم – لابـد أن نلحـظ أن ذكـر هذه الحلقة من القصة والتعقـيب علـيها عـلي هذا النحو، إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك، حيث كانـوا تحت تأثـير أسـاطير وتقالـيد معيـنة يطوفون بالبيت عرايا، ويحـرمون أنواعاً من الثياب وأنواعاً من الطعام في فترة الحج، ويزعمون أن هذا من شرع الله، وأن الله قـد حـرّم علـيهم هذا الذي يحرّمونه علي أنفسهم، ومن ثم الحالة الواقعـية في الجاهلـية .. وفي كـل جاهلية في الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوي؟"[1].

ثانيا: عناصر القصة في القرآن الكريم:

عـلى الرغم من أن القرآن الكريم يقصّ علينا القصص لأغراض دينية، فإن ذلك لـــم يمنع وجود الخصائص الفنية في عرضه للقصص" فالقرآن الكريم يجعل الجمال الفني أداه مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية "[2].

وعـناصر القـصة هـي الركن الأساسي في بنائها، وهي في القصة القرآنيـــة توزع تـوزيعًا يـبلغ حـدّ العجب من الناظر فيه بفكر، والمتفطن له بفهـــم، والفاحص عن أسراره بعمق، فهو يوزّع على أساس إبراز عنصر واحد وإلقـــاء الضوء القوى عليه حتـى يحـل مكـان الـصدارة مـن القـصة أو الأقـصوصة وحتى يكـــاد ما عداه من عـناصر أخـرى أن يختفـي أو يهمـل، فلـن نجـد عـناصر الأحـداث والأشخـاص والحـوار مجـتمعة في كـل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصـر منها قيمـته وخطـره في القـصة بحـيث لو اختفي لاختل التوازن الفني وانهـــدّ ركن من أركـان البـناء القصـصي لأن هذه الأشياء إنما تُطلب في الرواية وفي القصة الطويلة، والقـصص القرآني كان يجرى على أساس الأقصوصة لا القصـــة الطويلة، وربما أن

توزيـع العناصر في القصة القرآنية كان يتبع الغــرض الديني ويجرى معه في مضمار، فإننا نرى أن عنصر الأحداث هو العنصر البـارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى الـتخويف والإنـذار، وعنـصر الأشخاص هــو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقـصّد مـنها إلى الإفاضـة والإيحـاء أو تثبيــت المؤمنين، وعنصر الحوار هو العنصر الـبارز في الأقاصـيص التـي يقصّد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكـذا[٩٧] .

الأحداث :

يتـناول التعبـير القرآني أحداث القصص بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جمـيع المـشاهد والمناظـر التـي يعرضـها . وكثـيرًا مـا يـستعين القــرآن على إبرازها بوسائل عديدة منها:

أ- الوصـف الدقـيق المصوّر: كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته[٩٨]، كما في قـوله تعـالى: " وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَـوْتُهُمْ لِتَغْفِـرَ لَهُـمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (سورة نوح: آية٧)

ب – المعاني المعبّرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية: كانفعال لوط عندما جاءته رسل ربه: " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " (سورة هود: ٧٧)، لأنه كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين، ويدرك الفضيحة التي ستناله في ضيوفه[٩٩].

جـ - بإبراز الصراع منسجماً مع المغزى العام للقصة: وهو دائماً صراع الخير والشر، والحق والباطل، أو الإيمان والكفر، أو الفطرة السليمة والطوارئ التي تجنح بها ذات اليمين وذات الشمال . وهذا الصراع يكون حيناً صراعاً مادياً: كموقف موسي عليه السلام مع السحرة لما رمي عصاه ورموا عصيهم: " قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى "(سورة طه: ٦٥-٦٩).

وحينا صراعاً نفسياً داخلياً كموقف إبراهيم وتجاربه مع الكواكب والقمر والشمس، في رحلته من الإيمان الفطري إلى الإيمان الواعي،حيث وجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ "(سورة الأنعام: ٧٦-٧٨) .

وتأتي أهمية الصراع في القصة القرآنية عندما يظهر أثره في ربطه الأحداث من جهة، والشخصيات من جهة أخرى، والحوار من جهة ثالثة، من جميع جهاتها ويستولى عليها ثم يمضي إلى غايته المرسومة: فمثلاً عندما ننظر إلى الصراع في قصة يوسف عليه السلام نجده قائماً بين نفس يعقوب وأبنائه، وبين يوسف وامرأة العزيز، وبين يوسف وإخوته بعد تسلمه مقاليد مصر، نجد الصراع وقد أمسك زمام القصة من جميع أطرافها، وهو الذي قادها ووجه أحداثها وهو الذي كان الجاذب الكبير في مختلف أجزائها، على أنه لم يزد على طبيعته الأصلية التي هى صراع الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والضلال(...) .

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة فهناك ذلك النوع من الأحداث الذي يكون نتيجة تدخّل عنصر القضاء والقدر في القصة (...)، فالأحداث التي جرت فيها قصة مولد موسى عليه السلام، تنكشف إرادة الله فيها، وتحدى القدر لفرعون رغم شدة حرصه على قتل أي طفل ذكر يولد، حذراً من أن يكون هلاكه على يديه، كما أخبره بذلك الكهنة ولكن يدّ القدر تقتحم بالوليد على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . حمته بالحبّ الحاني في

قلب امرأة . وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الرقيق الشفيف من الحبّ "(١٠٢)" .. ونلاحظ أن تدخّل القدر في هذه الأحداث كان خفياً، لأن نتائجها لم تنكشف إلا بعد وقوعها بمدة .. ولكن القدر يكون تدخله بطريقة سافرة مكشوفة عندما يتحدى بالخوارق أو المعجزات، وهي الأمور التي يجريها الله على يد رسوله أو يحدثها في الكون استجابةً لدعوة الرسول حين التحدّي وطلب البينة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ " (سورة الشعراء ٦٣-٦٦) .أما المفاجأة في الأحداث فهي متنوعة ومختلفة:

فقد يكتم سرّ المفاجأة عن البطل والقرّاء، حتى يكشف لهم معاً في آن واحد، كما في قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف "(١٠٣)"، حيث تبرز مفاجآتها المتعاقبة . وفي النهاية مع دهشة السرّ المكشوف يختفي الرجل كما بدا، فقد يخطر للأذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل: من هذا ؟ ولكنها لن تتلقى جواباً . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ثم تبقى مجهولة أبداً .

ومرة يكشف السرّ للقراء، ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون السر، أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك في موضع السخرية، ليشترك القرّاء فيها، منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين "(١٠٤)" . كما وقع في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم: " وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

طَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (سورة القلم آيات ١٨ -٣٣).

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآني يكشف عمّا وراء حوادثها، من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .. ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويجحدون، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة ..

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن وفيها مفاجآت مشوقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشرى العاجز أمام تدبير الله وكيده .. وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع – أو القارئ يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى، فيعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها .. فقد شهد تلك اليد الخفية اللطيفة تمتدّ إليها في الظلام، فتذهب بثمرها كله .. وهذا لون من ألوان التناسق في التعبير الفني القرآني، يضاف إلى نظائره هنالك.

والله سبحانه وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سننه في الغابرين وسننه في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنون بأن ما يرونه على المشركين – من كبراء قريش – من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه . وسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم: " ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم: " إن للمتقين عند ربهم جنت النعيم " .. وهو التقابل في العاقبة، كما

أنـه الـتقابل في المسلك والحقـيقة ... تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق، فاختلفت بهما خاتمة المطاف"(١).

١- ومرة يكشف بعض السرّ للقراء، وهو خاف على البطل في موضع، وخاف عـلى القرّاء وعن البطل في موضع آخر، في القصة الواحدة . مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جئ به في غمضة، وعرفنا نحن أنه بين يدى سليمان، في حين أن بلقيس ظلـت تجهل ما نعلم: " فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ " (سورة النمل من آية ٤٢) فهـذه مفاجآت عرفنا نحن سرها سلفاً، وهذه المفاجآة الضخمة لم تكن لتخطر على بـال الملكـة ولذلك جاء ردّها: " قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ " (سورة النمل من آية ٤٢)، وهذا الرد لا ينفي ولا يثبت " ويدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهـنا فجـوة في الـسياق، فكـأنها أخـبرت بـسرّ المفاجـأة، فقالت: إنها استعدت للتـسليم والإسـلام مـن قـبل . أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية. وكان سليمان – عليه السلام – قد أعد للملكة مفاجأة أخرى لم يكشف السياق عنها بعـد، كما كشف عن المفاجأة الأولى من قبل ذكر حضورها – وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى: " قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّـةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْـلَمْتُ مَـعَ سُـلَيْمَانَ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (سـورة الـنمل: آيـة ٤٤).. لقد كانت المفاجـأة قـصراً مـن البلّور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها: ادخـلي الـصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة، فكشفت عن ساقيها . فلما تمت المفاجـأة كشف لها سليمان عن سرها .. ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائـب التـي تعجـز البـشر، وتـدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البـشر . فـرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها " مع سليمان " لا لسليمان ولكن " لله رب العالمين " .

وهكـذا سـجّل الـسياق القـرآني هـذه المفاجـآت وأبـرزها في أحـداث القـصة، للكـشف عـن طبـيعة الإيمان بالله، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى

صـف الغالبين بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله ... رب العالمين – على قدم المساواة "(١٠١).

وقـد لا يكـون هناك سراً، بل تواجه المفاجأة البطل والقرّاء في آن واحد ويعلمان سرهـا في الـوقت نفـسه .. وذلك كمفاجآت قصة مريم، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل، فتقول: " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا "(سورة مريم من آية ١٨). لقد عرفنا قبلها بلحظة أنه " الروح ولكـن الموقف لم يطل فقد أخبرها: " قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا " (سورة مريم من آية ١٩) . وقد فوجئنا كذلك معها، إذا جاءها المخاض إلى جذع النخلة: " فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا "(مريم:٢٣-٢٤).

والقـصص القرآنـى يُـبرز أحداثـه ويـصوّرها بعاملـين أساسـين، همـا الزمان والمكان.

أولاً: العنصر الزمني:

إن العنصر الزمني مما تقوم عليه القصة الناجحة، فإن الخيوط الزمنية تمسك بكل جـزئيات القصة حتى تطلع بها في الوقت المنشود . كما أن اختفاءه يستوجب اختفاء عنـصر مهـم مـن القصة.. ولذلك قبل أن نتحدث عن العنصر الزمني في القصص القرآني، يجب أولاً أن ندرك مفهوم الزمان في القرآن الكريم..

الزمان في القرآن الكريم:

في القرآن أنواع من الزمان أبرزها ثلاثة:

١ـ الزمان الكوكبي:

وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا، من أيام وأقسامها ومضاعفاتها . وفيه يقـول الله تعـالى: " وَجَعَلْـنَا اللَّـيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْـصِرَةً لِتَبْـتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

تَفْصِيلاً " (سورة الإسراء: ١٢) .

أ – وبهذا الزمان الكوكبي تتحدّد أعمار الأفراد ومراحل السنّ [١٠٧] .

ب– وهو الزمان الذي تتحدّد به العبادات اليومية [١٠٨] .

جـ– والعبادات السنوية أو عبادة العمر كالحج [١٠٩] .

د– ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة، بالزمان، فيقول عن الثمار: " وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ "(سورة الأنعام من آية ١٤١).

هـ–ويربط به أعمار الأمم ودورات ازدهارها وأفولها [١١٠].

٢ـ ما قبل الزمان الكوكبي:

يقول تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ"(سورة ق:٣٨) . والكواكب بما فيها من أجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخلة ضمن هذا " الخلق "، فمفهوم " يوم " في هذه الآية مختلف عن " اليوم " الذي نتعامل به في حياتنا .

٣ـ ما بعد الزمان الكوكبي:

يقول تعالى عن يوم القيامة: " يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " (سورة إبراهيم:٤٨) .

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات: " تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ "(سورة المعارج: آية ٤) ويقول:" وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ" (سورة الحج من آية ٤٧) .

٤ـ الزمن النفسي:

وفيه يبدو إحساس الإنسان بطول الزمن أو قصره . ويضرب الله مثالاً، بحوار يدور يوم القيامة: " قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ" قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ " (سورة المؤمنون آيات ١١٢-١١٥) .

وصفوة القول إن الزمان في القرآن: مقاييس معلومة، ومقاييس مجهولة سابقة ولاحقة، وإحساس به، قصراً أو امتداداً، يطغى على القياس المعلوم "" .

الزمان والتجربة الشعورية:

تشير بعض آيات القرآن الكريم ""، بما تبين من حقيقة ما نعلمه عن الزمان، إلى وجود مستويات للشعور مجهولة لنا .. إن المعضلة الوجودية التي تواجهنا هي كيف نحدد طبيعة الوجود النهائية . فكون العالم يلبث في زمان أمر لا يقبل الشك، ولكن لأن الزمان خارج عن أنفسنا يمكن أن نشك في وجوده..

الحقيقة أن التغير المستمر لا يمكن تصوره من غير زمان، مقياساً على تجربتنا الباطنة يكون معنى الوجود الشعوري، الوجود في زمان، على أن إنعام النظر في طبيعة الحياة الشعورية يظهر أن النفس في حياتها الباطنة تتجه من مركزها إلى الخارج، وربما جاز لنا أن نقول في وصفها إن لها قوتين: القوة العالمة، والقوة العاملة . وقوة النفس العاملة تتعلق بما نسميه عالم الحيز – وهو موضوع علم النفس الارتباطي المعروف " بالمذهب الحسي " – أي النفس العملية التي تتصل في الحياة اليومية بالترتيب الخارجي للموجودات التي تعين حالات شعورنا العابرة وتطبعها بصفاتها المتحيزة التي تعزل كلاً منها عن الآخر ... والتعمق في تحليل الحياة الشعورية يكشف لنا الناحية العالمة في النفس، فنحن نغوص في أعماق نفوسنا ونبلغ المركز الداخلي للتجربة في لحظات التأمل العميق فقط عندما تكون النفس العاملة معطلة . وحالات الشعور في حياة هذه الذات العميقة تذوب كل واحدة منها في الآخري ... وزمان النفس العالمة يبدو كأنه آن مفرد، تحيله النفس العاملة في اتصالها بالعالم المتحيز إلى سلسلة من الآنات كحبات اللؤلؤ المنظومة في خيط واحد ؛ وعلى هذا فإن فيها ديمومة بحتة لا تشوبها شائبة الحيز..

ويشير القرآن بما تميّز من وضوح وبساطة إلى ظاهرتي تعاقب المدة وعدة تعاقبها في الآيات الآتية: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (سورة الفرقان:٥٨-٥٩) -و " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ " (سورة القمر:٤٩-٥٠).

إننا إذا نظرنا إلى الحركة المتضمنة في الخلق من الخارج وهى ما أطلقنا عليه اسم " ما قبل الزمان الكوكبي " وحاولنا فهمها عقلياً، وجدناها قد استغرقت آلاف السنين، لأن اليوم الإلهي في لغة القرآن يعدل ألف سنة حسب ما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله: " وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ " (الحج: من آية ٤٧). وهذا الخلق الذي استغرق آلاف السنين هو من وجهة نظر أخرى فعل مقرر غير منقسم " كلمح بالبصر "، على أنه يستحيل علينا أن نعبّر في كلمات عن هذا الإدراك الباطني للديمومة البحتة، لأن اللغة تكيفت بالزمان المجرد، زمان النفس الفاعلة في كل يوم "[٢].

أما إذا رجعنا إلى التأمل في القرآن الكريم، نجد فيه كلمة من حرفين، تعبّر عن أقصى مدى التعبير عن تصوّر السرعة، هذه الكلمة هى " كن " وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ "(سورة البقرة من آية ١١٧). وهى تعبير عن مقياس السرعة الإلهية، التي تعتبر السرعة الضوئية بالقياس إليها سرعة السلحفاة، أو أدنى من ذلك ... فبين الكاف والنون تتم إبداعات القدرة الإلهية، بمقياس كوني يلغى الزمن، فلا يجعله شرطاً لإبداع الخالق، وإن جعلته الإرادة المبدعة بعداً رابعاً للوجود، وشرطاً لاستمراره، فالزمن مخلوق كما أن المادة مخلوقة . ومن مدلول السرعة الكُنّية، حيث لا زمن، ومدلول السرعة السلحفائية .إن صح التعبير – تقع كل احتمالات قياس السرعة على اختلاف تصوراتها من جاذبية، إلى صوتية، إلى ضوئية ... وعلى هذا لا يكون ما نقول عن السرعة الكُنّية (بين الكاف والنون) متعارضاً مع ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا

يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (سورة الفرقان ٥٨ : ٥٩) .. لأن هذه مشيئة الإرادة التي تملك الإنجاز في لا زمن، كما تملكه في نطاق الزمن، وهي التي ربطت بين المادة والزمن "(١)" .

نعود إلى النفس العاملة حيث نجد إنها بمثابة جهاز مصحح للنفس الفاعلة، من حيث إنها تركب في كلية الشخصية المتماسكة جميع " الهنات " (الهنا بالفتح تستعمل للمكان الحسي)، والآنات - أي التعبير القليل في المكان والزمان مما لا غنى عنه للنفس الفاعلة . فالزمان المحض إذاً، كما يكشفه التحليل العميق لحياتنا الشعورية، ليس خيطاً من لحظات متفرقة متقلبة، وإنما هو كل مركب، ليس الماضي فيه متخلفاً، ولكنه متحرك مع الحاضر ويؤثر فيه - والمستقبل يتصل بهذا الكلّ المركب لا بوصفه موجوداً أمامه، ليجتاز بعد، وإنما يتصل بهذا الكل المركب بمعنى إنه ماثل في طبيعته في صورة إمكان قابل للتحقيق.

والزمان باعتباره كلا مركباً . هو الذي يسميه القرآن التقدير: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (سورة القمر: ٤٩)، و " التقدير " هو الزمان عندما ننظر إليه على أنه سابق على وقوع إمكانياته، هو الزمن الخالص من شباك تتابع العلّة والمعلول، أي حالة الرسم البياني التي يفرضها الفهم المنطقي على الزمان، وبالاختصار هو الزمان كما نشعر به، لا كما نفكر فيه أو نحسبه . ولذا وجب أن يأتي بعد " التقدير " قوله تعالى: " وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ " (سورة القمر ٥٠) فهي إشارة واحدة. . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر: الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة"(٢)".

والقصة القرآنية تساعد على توضيح أحداثها باستخدام أساليب الزمان الأربعة،

ففي قصة يوسف نقرأ ثلاثة أساليب في معاملة الزمان:

١- ذكر العشاء في قصة إخوة يوسف لأنه جزء من الليل يمكن فيه تدبير الجريمة . ولذلك تستر إخوة يوسف في ظلامه، وجاءوا فيه إلى أبيهم يخبرونه هذا الخبر المشئوم المكذوب " وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ "(سورة يوسف ١٦)..فهذه الجزئية من جزئيات الزمن حرص القرآن على ذكرها لأن لها مكاناً في سير أحداث القصة .. ذلك أن ظلام الليل الذي أظلّ هذا الكذب الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: " وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ "(سورة يوسف:١٨). هو نفسه الظلام الذي نم على الكذب، ودل عليه، وألقى في خاطر الأب، أن أبناءه لو كانوا صادقين فيما أخبروا لسارعوا إلى أبيهم بالحدث في وقته، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة (١٠٧).

٢- بعد أن أبى يوسف الاستجابة لمراودة امرأة العزيز، وشهد شاهد من أهلها، بما يثبت براءته . قال العزيز: " يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " (يوسف:٢٩) . . ولكن أصرّت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه. ويأتي قول الله تعالى: " ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ "(يوسف ٣٥) .. وتسير القصة حتى ينبئ يوسف صاحبيه في السجن ما رأيا في المنام، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ " (سورة يوسف:٤٢) .

ونقف عند قوله تعالى: " حتى حين " وقوله " بضع سنين " فالمدة التي قضاها يوسف – رغم أهميتها – غير محددة في القصة . " وبضع " لغوياً قد تكون بين الثلاث والتسع، وعدم التحديد هنا يزيد من الإحساس بالظلم الواقع على يوسف، وبفساد نظام الحكم وقتئذ، فساداً يمكن أن يبقى فيه البريء سجيناً مدة لا حساب للزمن فيها، السجين دفعته أهواء الحكم وسلطة الحاكمين إلى السجن، وقد تدفعه إلى النور شهادة ساقي الخمر، أو وساطة من حاشية الحاكم(١٠٨)، ومن ناحية أخرى يبرهن عدم التحديد على أن يوسف ذو عزم متين وصبر عجيب(١٠٩) .

٣- ويبدو حساب الزمن دقيقاً إذا كنا بسبيل التخطيط وإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، لا مجال هنا لبضع سنين أو إلى حين . ولكن المجال تجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل، وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ "(يوسف: ٤٧- ٤٩) .

والخطة ثلاث مراحل: سبع سنين لكل من المرحلتين الأولي والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الأخرى:

الأولي: تحديد مدة، إنتاج زراعي، ينبغي أن يرتفع فيه معدل الإنتاج، " دأباً "، ومع وفرة الإنتاج تقييد الاستهلاك ويتمثّل في قوله تعالي: " إلا قليلاً مما تأكلون " وذلك من أجل ادخار أكبر قدر ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى: " فما حصدتم فذروه في سنبله" .

الثانية: مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته فلا يأتي الاستهلاك علي كل المخزون، ويتمثّل هذا في قوله تعالى: " يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون".

الثالثة: مرحلة إعادة الاستثمار، وذلك بعد ارتفاع الفيضان – بعد قحط السنوات السبع – فتجد الأرض البذور المدّخرة، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون.

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمان بالتسيب والظلم، وكان تعريف الزمان وتنكيره، عاملاً ساعد علي إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن، وأن تحديد الزمان فيه، علي أساس انتقائي، مرتبط بالهدف وهو العبرة، دون اقتصار علي مجرد المعرفة (...).

وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالي:

" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: آية ١١١).

ونلاحظ كذلك في قصص القرآن الكريم، أنه يسلك بالزمن – إذا تناوله – مسلك التدرج في تتابع أحداثه، إلا في موضع واحد فيما نذكر .. وهو قصة البقرة التي لم تذكر في القرآن الكريم أكثر من مرة واحدة .. فإن الله سبحانه بدأ في هذه القصة بذكر الشطر الثاني منها[١١٠]، فعندما نقرأها نقف أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، فنحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وهذا اختبار لمدي الطاعة والاستجابة والتسليم ... ولذلك تم تأخير الشطر الأول، فقد كانت العناية متجهة إلى ناحية الحوار في أمر البقرة، ولونها وصفاتها الأخرى، فلا نري الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسي وربه، ثم يعود إليهم بالجواب... ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا أن ربه أجابه .. ليكون في ذلك أيضاً تشويق لمبدأ القصة .. فإن داعية المعرفة تتحرك لطلب السبب في أمر الله جل شأنه بني إسرائيل بذبح البقرة[١١١]: " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ " (سورة البقرة ٦٧-٧١) ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة – كما بوغت بها بنو إسرائيل – انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً، علي ضربة من بعض جسد

لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة "(١٢)" وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "(سورة البقرة ٧٢-٧٣).

ثانياً: العنصر المكاني:

يقرّر القرآن الكريم أن العالم لم يُخلق عبثاً: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة الدخان ٣٨-٣٩)، وهذه الحقيقة، يجب أن تُوضع موضع الاعتبار: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (سورة آل عمران ١٩٠-١٩١) .. وفوق هذا فالعالم مرتب علي نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد: " يزيد في الخلق ما يشاء "(سورة فاطر: ١)..فليس هذا العالم كتلة، وليس جامداً غير قابل للتغيّر والتبدّل، بل ربما استقرّ في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (سورة العنكبوت: آية ٢٠).

والحق أن حركات الكون واهتزازاته الخفيّة، وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلّب الليل والنهار، يعدّه القرآن إحدى آيات الله الكبرى: " يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ "(سورة النور: ٤٤).

وهذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان يحمل في طيّاته الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكر في آيات الله سيتم غلبته علي الطبيعة بالكشف عن الوسائل التي تجعل هذه الغلبة واقعة "(١٢)".

وسوف يوضّح لنا " المكان " في القصة القرآنية، طبيعة هذا الأمل وإمكانية

تحقيقه، واضعين في الاعتبار الناحية الفنية في ذكر المكان، فالقرآن الكريم لم يلتفت لذكر المكان في القصة إلا إذا كان له وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد نفسية وروحية تفتقدها القصة [١٢٤]:

ولذلك يختلف مدى وضوح المكان من قصة إلى أخرى:

(أ) فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى [١٢٦]. فلا يختلف فيه وقت نزول القرآن ولا بعده.

(ب) وقد يذكر الاسم العلم ولكن يختلف في تحديد موقعه كالجودي: جبل نوح [١٢٧].

(جـ) وقد يذكر بصفته كـ " ربوة ذات قرار ومعين " [١٢٨] فتتعدد في تفسيرها وتحديدها الآراء.

(د) وقد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان مثل قصة إدريس [١٢٩].

(هـ) وقد يذكر اسم صاحب القصة دون أن تذكر قصته كذي الكفل [١٣٠] وقوم تُبَّع [١٣١].

(و) وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان كأصحاب الرَّسّ [١٣٢] دون عرض القصة.

(ز) وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها ولا اسم صاحبها كقصة الرجل المؤمن في سورة يس [١٣٣].

(حـ) وقد تذكر مجموعة من الأقاصيص في نسق واحد كأنها قواعد تسير عليها الرسالات مثل قوله تعالى: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ " (سورة إبراهيم:٩).

وتتتابع بعد هذا الآيات توضح ما حدث للرسل وأقوامهم وجزاء من اتبعوهم ومن أعرضوا عنهم في الدنيا والآخرة ...

الوحدة الجغرافية: التوزيع والعلاقات:

أولاً: منطقة القلب:

أهــم مكــان يعنـي بـه القـرآن الكريم هو المسجد الحرام . وهذا البيت هو مركز مـنطقة القلـب في قـصص القرآن والتاريخ الإنساني التي ذكر الله فيها أكبر عدد من الأسـماء مـتجمعة: البيت . مكة . مقام إبراهيم . الصفا . والمروة . عرفات . المشعر الحرام.

ثانياً: نطاق الغزوات:

وحــول مـنطقة القلـب هـذه نطـاق أوسـع يمكن أن نسميه " نطاق الغزوات " جاءت فيه الأماكن الآتية: " المدينة[١٣٤]، " بدر "[١٣٥]، " حنين "[١٣٦].

وفيها نري اتساعاً في المساحة وقلة في عدد الأماكن المذكورة بأسمائها[١٣٧].

ثالثاً: الدائرة الثالثة:

وإذا اعتـبرنا البـيت الحـرام أو مكـة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو متراً، وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر علي محيط هذه الدائرة أو قريباً منها . وفي نطاق هذه الدائرة أو الحلقة الثالثة وقعت معظم أحداث القصص القرآني:

١ - ومـن المركـز يمـتد محور جـنوبي إلى الـيمن وبه قصص عاد ونبيهم هود: " وَاذْكُـرْ أَخَـا عَـادٍ إِذْ أَنـذَرَ قَـوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ "(سورة الأحقاف من آية ٢١).. وهي جبال الرمل باليمن ويصف الله مواطنهم بالغني.

جاء في هذا المحور ذكر سبأ:

" لَقَـدْ كَـانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ " (ســورة سبأ: من آية ١٥) ولا زالت آثار السد والجنتين باقية.

٢ - ومـن المركـز يمـتد محور شمالي، يذكر فيه الله عدة أماكن متتابعة علي طريق التجارة.

أ- قـري لـــوط في قوله تعالى: " وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ " (سورة الحجر: ٦٧) . ثـم وصـفها بقـوله: " وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ " (سورة الحجر:٧٦) . وهي المؤتفكات في قوله تعالى: " وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى "(سورة النجم:٥٣)

ب- أصحاب الأيكـة في قولــه تعالى: " وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِيــنَ " (سورة الحجر:٧٨) وهي مدين في قوله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا "(سورة الأعراف: ٨٥).

جـ- ديـار ثمـود وهـم أصـحاب الحجر في قوله تعالى: " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ " (سورة الحجر: ٨٠-٨٣).

وتضم هذه الأماكن قصص لوط، وشعيب نبي مدين، صالح نبي ثمود ...

فروع المحور الشمالي: ويتفرع هذا المحور إلى ثلاث شعب:

أ- الأولى: شمالية تصل بنا إلى المسجد الأقصى في قوله تعالى:

" سُبْحَانَ الَّـذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ "(سورة الإسراء:١).

وذكـر الله ديار الروم في قوله تعالى: " غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ "(سورة الروم ٢-٤).

ب- الثانية: شمالية شرقية: ويمكن أن نعتبرها امتدادا لقوس بلاد الشام الموصل إلى العراق . وإليها جاءت الإشارة في قوله تعالى:

" وَمَـا أُنـزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ"(سورة البقرة: من آية ١٠٢).. وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم.

جــ- الثالثة: شمالية غربية: إلى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء: " أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي "(سورة الزخرف:من آية ٥١).

" وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ "(سورة المؤمنون: آية٢٠) .. وترتبط بها قصص إدريس – في بعض الأقوال – وإبراهيم، وإسحاق وبنيه، وإسماعيل ويوسف، وموسي، وعيسي، ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من مارية القبطية (٢٨)

الوحدة الجغرافية والعبرة من القصص:

١- هناك ارتباط قوي بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد – صلي الله عليهم وسلم -. ولازالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي النابض بالأمر الإلهي لإبراهيم: " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "(سورة الحج:٢٧) .

٢- ثم هناك الرحلات التجارية التي قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوباً والعراق والشام ومصر شمالاً والتي نقرأ توقيتها في قوله تعالي: " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ "(سورة قريش). وكيف أن هذا التنظيم والتدبّر فيه آية تدعو إلى الإيمان وعبادة الله..

٣- وفي الحلقة الوسطي أماكن الغزوات، وترتبط جميعاً بسيرة النبي بما فيها من عبر تمثل فيها غزوتا بدر وحنين..

٤- أما الحلقة الثالثة: فالله يصف بعض قصصها بأنها لسبيل مقيم، وبإمام مبين وخاطبنا عن قوم لوط:" وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "(سورة الصافات: ١٣٧-١٣٨). فاعتبر هذا المرور من وسائل التفكر والتأمل .. فهذه الأماكن إذاً من وسائل التأمل . وهي بهذا تساعدنا علي زيادة الاعتبار من القصص..

قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن:

ومع هذا لا يمكن القول بإن قصص القرآن كله له ارتباطاته المكانية التي يمكن إدخالها في حلقة من الحلقات السابقة، ويمكن تقسيم هذا القصص إلى مجموعتين:

المجموعة الأولي:

قـصص ما قبل الطوفان وبخاصة قصة آدم، وتشمل قصص إدريس ونوح. وفي هـذه المجمـوعة لا نكاد نجد ذكراً للمكان إلا ما جاء في أمر الجودي في قصة نوح . ولازال موضـعه محـل جـدل . والمكـان رغـم ضـآلته في هـذه المجموعة أوضح في القـصص المتأخـر – نوح – عن القصص الأقدم – آدم وإدريس – والجوديّ مرتبط بأحـداث مـا بعـد الطوفان . وعلي هذا نستطيع أن نستبعد التحديد المكاني استبعاداً كاملاً من قصص ما قبل الطوفان "(٣٠).

المجموعة الثانية:

قـصص سـورة الكهـف . وإن كثـرت فـيها الأقـوال، ويهمـنا في دراسـة هـذه المجمـوعة أنهـا تعطـي الامـتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْـرِبَ الـشَّمْسِ"(من آية ٨٦)" حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ "(من آية ٩٠).. ولا يـصرفه الـتجوال عن مسئوليات محددة عليه أن يحملها: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَـدَ مِـن دُونِهِـمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا "(آية ٩٣).. وهنا أقام معهم السد محكـماً قوياً وشاركوا في العمل . وعندما رفعه واختبره قال: " هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي " (من آية ٩٨)وبين قصتي " أصحاب الكهف، وذي القرنين، نجد قصة موسي والعبد الـصالح، وهـي قـصة لم يطلـبها كفار قريش ؛ ثم قصتي "آدم" وقصة الصاحبين " ..وهذا الإغفال أو التعميم الذي نراه في الأماكن، يمكن أن نراه في نواح أخري من قصص الكهف مثل عدد أصحاب الكهف .. وفي قصة ذي القرنين عبارات عامة .. حتـى أنـه ذكر بصفته دون اسمه .. فإذا لجأت قريش إلي يهود تستنصرهم علي النبي وتحـاول أن تأخـذ من الكتب القديمة مادة تمتحن بها الوحي من جهة وتحدي النبي بهـذه القـصص أن يخـرجوا بأسـئلتهم عـن الـنطاق الجغرافي الذي ظل فيه قصص القـرآن .. والحـق أن الآيـات أتـت مـن عـند الله تحسم هذه الاتجاه، وليأت في عدد أصـحاب الكهـف:" سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ

رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا " (آية ٢٢) ولنقف كثيراً عند الأمرين الأخيرين في هذه الآيات ثم نقرأ نهي الله نبيه عن الارتباط مع اليهود أو قريش بموعد يتعلق بالوحي: " وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا "(آية ٢٣).

ولعلّنا بذلك نستطيع أن ندرك جانباً من العبرة في وضع قصة موسي والعبد الصالح بين قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين . فالصحبة بين موسي والعبد الصالح تستمر ما دام موسي متبعاً شرط العبد الصالح: " فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا "(آية: ٧٠) بعد أن مهّد لذلك بتحذيره:" قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا "(٦٧-٦٨).

وتأتي المشكلات – كما يقول القرطبي (١٤٠) – قريبة مما حدث في حياة موسي، فيقول في تفسير الآيات التي وقعت لموسي مع العبد الصالح: إنها حجة علي موسي، وعجباً له. وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي: يا موسي أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم، فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكْزك القبطيّ وقضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نُودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر. ومع هذا لم يستطع موسي الصبر . وكان سكوته إن سكت فاتحًا لباب العلم وسؤاله حين سأل مغلقًا هذا الباب. وأحسب أنه من هذه الرواية نستطيع أن نلمس جانبًا من النهج الذي ساق الله به قصص هذه السورة بالذات.

وصفوة القول في المكان:

إنه لم يكن من أهداف القرآن أن يستغرق الأماكن حصرًا وتسجيلا. وإنما اكتفي بأن أورد لنا نمطا واضحاً من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والأطراف، فالقلب هو البيت الحرام، وهو مركز التاريخ الإنساني: أول بيت وضع للناس، وحوله دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن

العقيدة وحمايتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد علي المحورين الشمالي بفروعه والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيراً إلى مطالع الشمس ومغاربها، وعملاً في مجال العقيدة، والإنشاء والتعمير، والحصول علي مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (سورة العنكبوت من آية ٢٠) وهي بدورها ممهدة لتطوير المجتمعات وبناء أفضل للتاريخ الإنساني، وهي معان تمثلها جميعاً قصص سورة الكهف دون أن تنفرد بها"[١].

القدرة الإلهية وحواجز الغيب:

١ - لقد مزَّق القرآن حواجز الغيب وحاجز الزمن الماضي، وحاجز الزمن المستقبل، وحاجز المكان، علي أن هناك أيضًا حاجزًا آخر، هو حاجز النفس البشرية، ما يخفيه الإنسان داخل نفسه.

ولقد مزَّق القرآن حاجز الزمن الماضي، فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة ويقصّ علينا قصص الرسل السابقين، ويكفي أن نقرأ في القرآن: ما كنت، وما كنت، وما كنت: لنعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من الغيب الماضي:

" وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ "(آل عمران من آية ٤٤) و" وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ "(القصص من آية ٤٤)

و " وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا " (سورة القصص من آية ٤٥).

و " وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ " (القصص من آية ٤٦).

وهكذا نري أن القرآن مزّق حجاب الزمن الماضي في أكثر من مناسبة ليخبر محمدًا – عليه الصلاة والسلام- بالأخبار الصحيحة عمَّن سبقوه من الرسل

والأنبياء ... ويصحح ما حُرّف من الكتب السماوية، ذلك لأن التحدي للقرآن من تمزيق حجاب الزمن الماضي، وصل إلى أدقّ أسرار الرسالات السماوية الماضية فصحّحها لهم، وبيّن ما حرّفوه منها وما أخفوه، وتحدّاهم أن يكذّبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا، ومن ذلك قوله تعالي: " ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ "(سورة مريم: ٣٤).

ثم بعد ذلك مزّق القرآن حجاب المستقبل: انظر إلى قوله سبحانه وتعالى " سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ " (سورة القمر: آية٤٥) تبشّر بانتصار المسلمين في بدر، وقد نزلت هذه الآية في مكة والمسلمون قلّة. وكذلك قوله سبحانه وتعالي: " الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ "(سورة الروم: آيات ١-٥). ثم يمضي القرآن ليمعن في التحدي: " وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة الروم: ٦).

لقد قصّ القرآن أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم..

ثم مزّق الله حجاب المكان لمحمد صلي الله عليه وسلم، وجاء في أدقّ الأمور وهو حديث النفس: " ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله " .. فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضي، وأخبرتكم بأنباء الأولين ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان، وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لا ترونها، بل يقول: سأهتك حاجز النفس، وأخبركم بما في أنفسكم، أي بما في داخل صدوركم بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفي لكي يكذّب الكافرون محمداً أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا، إذًا فالقرآن في هتكِه لحجاب المكان دخل إلى داخل النفس البشرية، وإلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام، قال تعالي: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ

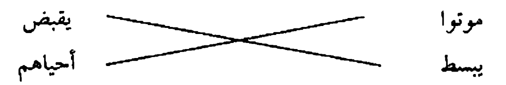
حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ "(سورة المجادلة:٨).

وبعد أن وجدنا أن لكل من الزمان والمكان أثرهما في بناء القصة القرآنية وفي إلباسها ثوباً من الواقع الذي يجتذب إصغاء القارئ وانتباهه نجد أيضاً ما يقابل ذلك تماماً إذ كثيراً ما يعرض الحدث مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما، مع عدم الإخلال بسير الحادثة، بل إنه قد يضيف إليها جمالاً في الأداء ولنستمع إلى قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ "(سورة البقرة: آية ٢٤٣). في أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت؟ لم يذكر النص القرآني ذلك مع الوضع في الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى لو أراد بياناً عنهم لبيَّن، كما يجئ القصص المحدد في القرآن، إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا يشكل المكان والزمان أهمية فيها إذ أن تحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً علي عبرة القصة ومغزاها، إنما يُراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابها الظاهرة، وحقيقتها المضمرة، وردّ الأمر فيهما إلى القدرة المدبِّرة، والاطمئنان إلى قدر الله فيهما، والمعني في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف. يراد القول: إن الحذر من الموت لا يجدي وأن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ويردان قضاء، وأن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب وحين يسترد، والحكمة الإلهية كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وأن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وأن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء... ثم جاء قوله تعالى بعد هذه الأقصوصة، أو القصة الذرية:" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "(سورة البقرة آية ٢٤٤).. هنا ندرك طرفاً من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول، وفي أجيالها جميعاً ... ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله . وبعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة، التي تضمنتها الحادثة يأت بعد ذلك دور الجمال الفني في الأداء: " ألم تر إلى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ " .. إن في التعبير استعراضاً لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان: " ألم تر؟ " .. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار .. ومن مشهد الألوف المؤلفة الحذرة من الموت، المتلفتة من الذعر .. إلى مشهد الموت المطبق في لحظة، ومن خلال كلمة: " موتوا " .. كل هذا الحذر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة .. كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة: " موتوا " .. ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج؛ كما يلقي صرامة القضاء، سرعة الفصل عند الله..

" ثم أحياهم " .. هكذا بلا تفصيل للوسيلة .. إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة، المتصرفة في شؤون العباد، لا ترى لها إرادة، ولا يكون إلا ما تشاء.. وهذا التعبير يلقي الظلّ المناسب علي مشهد الموت ومشهد الحياة: " وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"(سورة البقرة: ٢٤٤-٢٤٥).

ونحن في مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق .. فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير: " والله يقبض ويبسط " .. متناسقاً في الحركة مع قبض الروح وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار:



وهكذا يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد إلى جوار التناسق العجيب، في إحياء المعاني وجمال الأداء بالرغم من إغفال عنصري الزمان والمكان"(١).

٢. الشخصيات:

إن المذهب المتّبع في رسم الشخصيات في القصة القرآنية أو في معظمها على أقل تقدير كان المذهب غير المباشر، أي عرض الشخوص في تفكيرهم وأعمالهم،

وحركاتهم، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبحات روحها حتى لكأنها الشخص الذي نعاشره منذ زمن فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وحنايا فؤاده "(٤٣).

وهذا المذهب سمة فنية محضة، وهو بعينه غرض للقصص الفني المجرد – وها هو ذا القصص القرآني، ووجهته الأولي هي الدعوة الدينية، يُلمّ في الطريق بهذه السمة أيضاً، فتبرز في قصصه جميعاً، ويرسم بضع " نماذج إنسانية " من هذه الشخصيات، تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية"(٤٤).

ومهما تكن صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحرِّك الأحداث، وتضطرب بها، أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات، أو تتساوق وتتوازن، فلا تطغى الشخصية علي الحدث، ولا يطغى الحدث على الشخصية "(٤٥).

فالقرآن حرص علي إحداث الترابط الوثيق بين الشخص والحدث مع الوحدة في أخلاقيات الشخصية فلا تتغير ملامحها، أو تبهت صورها فلا تقوم علي وجه واحد دون اضطراب أو تناقض أو تبديل وتحوير"(٤٦).

لذلك لم يعن القرآن برسم الخطوط الشكلية للشخصية، وإبراز ملامحها الخارجية، كما يفعل بعض المولعين بالقصّ، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين ووصف الفم والأنف والجبين، وتشبيه نبرات الصوت والمشية، وتفسير نظرات الفرح، والحزن والغضب، وابتسامات البراءة والمكر والسخرية، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان، لأن ذلك كله لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية، وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية، وعن دوافعها وانفعالاتها، وسلوكها من خلال الوصف، أو سرد الأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة "(٤٧).

الأشخاص والأبطال:

إن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ أنبياء ولا تاريخ ملوك، فمن الأنبياء من أغفل

القرآن ذكره " مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" (سورة غافر من آية ٧٨)، وعنايته بالملوك والحكام محدودة وما ذكره القرآن عن الملوك والحكام ليس سوي نماذج أعطاها تبيّن مشاهد من الحكم، لتكون لمن بعدهم عظة وذكرى.. والقرآن الكريم يذكر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصة، حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع، ولا يسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته... ولكنه يمثل للقارئ أو السامع صوراً حية تهز المشاعر في دائرة تدور حولها أحداث القصة .. ويتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات، أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود ومعروفة مستيقنة لكل من القارئ والسامع..

ولهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآني بأسمائها، أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها . وفي الأعمال التي تضاف إليها .. حيث يري المرء وحدة الحركة بين الشخصيات والأعمال التي تصدر عنها .. وحقًا لا تلوح لعين الناظر شخصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث بعد أن يبرز ويأخذ مكانه في الوجود "[٨]". ولذلك عندما نبحث في شخوص القرآن . نجد أنها تعكس نظرة القرآن الكليّة لأمر الوجود ؛ النظرة التي تضم المبدأ والمعاد، والإنسان والكون، ومناشط الحياة الإنسانية حتى أن القرآن يتحدث عمّا صغُر من الخلق كالنمل، كما يتحدث عمّا عظُم كالسماء ذات البروج ومواقع النجوم .. وهذه النظرة تنعكس علي شخوص التاريخ في القرآن وأبطاله، فشخوص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للإلهام وأسوة للناس مصداقاً لقوله تعالى فيما قصّ علي رسوله عن الأنبياء: " أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ "(سورة الأنعام من آية ٩٠). وإذا كان المصطفي – وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين – يدعوه ربه إلى الاهتداء بمن سبق من الأنبياء، فما أحرانا أن نطيل الوقوف عند هذه النماذج الإنسانية، ومن ارتبط بقصصهم، أو جاهد علي فترة منهم "[٩]".

في الأنبياء نجد نماذج متكاملة من الأعمار، طفولة عيسي، وشباب إبراهيم، وكهولة محمد، ثم شيخوخة إبراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء: طفولة مريم

وشبابها ونضج امرأة فرعون وإيمانها، ثم زوج إبراهيم، وقد تقدمت بها السن: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ "(سورة هود: آية ٧٢).

ونقرأ نماذج متعددة من الأسرّ وموقع الأسرّ وموقع المؤمن فيها: نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة إبراهيم، والأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح، والزوج الصالح والزوجة الطالحة، في قصة نوح أيضاً، والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون، والأب الصالح وقد توزع أبناؤه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف وإخوته، حتى أكرم الله الجميع بالنبوة وجمع الشمل: " قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة يوسف الآيتان ٩٢-٩٣) . ويختبر الله الإنسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهي قدر أكثر من نبي ورسول . وقد تنهي حياته بأن يموت شهيداً كما في قصة يحيى، وقد يلقى في السجن كيوسف، وقد يختبره الله بإقبال الدنيا كسليمان: " قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ "(النمل: من آية ٤٠).

وقد يُبتلى بأن يَصرف عنه قومه، ويَرموه بالجنون والسحر والكهانة والكذب، وقد لقي الرسول هذا كله واحتمله، ونفي القرآن الكريم هذا كله، وسجّل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه. يقول تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ "(سورة البقرة من آية ٢١٤).

وبذلك نري في القصص القرآني رحمة الله وقد أدركت رضيعاً لا يدرك من أمره شيئاً: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"(القصص:٧).

وشابا وقف وحيداً يدافع عن الحق: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

"(سـورة الأنبياء: ٦٠) ثم كان من قومه أن " قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "(الأنبياء: ٦٨-٦٩).

وتـدرك شيخاً كبيراً أمضي السنين داعياً إلى الله فلم يستجب له إلا القليل، يقول الله تعـالى عـن نـوح: " فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ "(الأعراف: آية ٦٤).

وقـد تـدرك الرحمة وحيداً كيونس عندما ابتلعه الحوت ثم نبذه في العراء أو جمعاً محـصوراً بـين المـاء والعدو: " فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ " (الشعراء: ٦١-٦٢) .

وقـد تكـون النجاة برّا، كما في هجرة المصطفى من مكة إلى المدينة، أو بحراً كما في قصة نوح والسفينة(٥٠) .

رسم الشخصيات في القصة:

الأشـخاص في القـصص القـرآني مـن نوع الشخصيات النامية، أي التي تتطور وتـنمو قلـيلاً قلـيلاً، بـصراعها مـع الأحـداث أو المجـتمع، فتتكشف للقارئ كلما تقـدمت في القـصة، وتفجـؤه بـما تغني به من جوانبها وعواطفها الإنسانية المعقدة، وهـذا التصوير الفني للشخصيات يقدمه لنا القرآن بشكل مقنع، فلا يعزو إليها من الصفات إلا ما يبرر موقفها تبريراً موضوعياً في محيط القيم التي تتفاعل معها..

وفي كـل قصة من قصص القرآن تقريباً، نجد شخصاً أو أشخاصاً يقومون بدور رئـيس فـيها، إلى جانـب شخـصيات أخـري ذات دور أو أدوار ثانوية، يقوم بينهم جمـيعاً ربـاط يـوحد اتجـاه القـصة ويتـضافر علي ثمار حركتها، وعلي دعم الفكرة أو الأفكـار الجوهـرية فيها، وذلك بتلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم، وتجاه الموقف العـام في القـصة، ويلاحـظ في التصوير القرآني لهذين النوعين من الشخصيات أنهما مأخـوذان مـن واقـع الحياة، وكل شخصية منهما لها دورها ورسالتها التي تؤديها في خدمة أغراض القصة وأهدافها(٥١).

ومن النماذج الإنسانية التي قدمتها القصة القرآنية، وتجاوزت بها حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية، نشير فيما يلي إلى أبرز شخصيات القصص القرآني:

١. شخصية إبراهيم:

لقد كانت شخصية إبراهيم محوراً لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها في تطور رائع، إنه أنموذج الهدوء، والتسامح والحلم: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ " (هود: ٧٥، والتوبة: ١١٤) فهاهو ذا في صباه، دائب التفكير والتأمل يبحث عن ربه: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ "(الأنعام: ٧٦-٨٠).

ثم وهو يحاور أباه في معبوده، ويقنعه أن يهجر عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، وينهاه عن عبادة الشيطان، لأنه يخاف عليه أن يسمه عذاب من الرحمن، ويكون للشيطان ولياً. ويقف الأب من ابنه موقفاً غليظاً صلباً ويأمره أن ينتهي عن آرائه ومعتقداته، ويعجب منه كيف يرغب عن آلهة أبيه، ثم يهدده بالرجم، أو الطرد إن لم ينته ويتراجع . ويبقي الفتي أديباً، باراً، محباً لأبيه، جديراً بتحمل رسالة السماء، متلطفاً في جوابه لأبيه، فيقول له: " قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا " (مريم: ٤٧-٤٨) . وإبراهيم الهادئ الرزين الوقور في صباه، وشبابه يبقي هو هو في شيخوخته، بل تزيده الشيخوخة وقاراً ورزانة، وعقلاً. ذلك أنه حين ينزل في مكة مع أهله وأسرته يجد الأرض قفرًا، والدنيا قحلاً، والمكان جدبيًا، فيرفع يديه إلى السماء ضارعًا إلى من آمن به ويجار

داعياً: " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (سورة إبراهيم:٣٧) ومثل هذا الهدوء والإيمان، وطاعة الله تتجلى حين يري في المنام أنه يذبح ابنه، فيلبي، ويطيع، وتكون معجزة الفداء بذبح عظيم (١٠٢).

وهكذا برزت شخصية إبراهيم المثالية من خلال هذه المواقف، فكان مثلاً في حصافة الرأي، وحب التطلع إلى اليقين، والامتثال لأمر الله في تفانٍ وإخلاص، والرفق والحلم والرأفة والحنان . وقد تجمع في شخصه من جليل الخصال ما تفرق عن غيره من الناس علي مدي الأجيال. فكان أمة بذاته كما أثنى الله عليه: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"(سورة النحل: ١٢٠-١٢٢).

ولا عجب، فإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسع الناس بمحبته ولينه، يحنو علي قومه، رغم إيذائهم له . فهو لا يطلب العذاب والهلاك لمن عصاه، وإنما يكلهم إلى رحمة الله وغفرانه فيقول عن قومه " رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "(سورة إبراهيم:٣٦).

كما أن ما جُبِل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه وإكرامهم، وسؤال ربه أن يعفو عن قوم ابن أخيه لوط، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهم مرسلون إلى لوط ليأمروه بالخروج من القرية مع أهله قبيل الصبح، موعد هلاك قومه . فكان يجادل ربه في شأنهم رجاء أن ينظر إليهم بعين الرحمة (١٠٣).

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصية إبراهيم هذه السمات نراه يرسم لشخصية " موسي " مثلاً سمات أخرى، منها ما يلتقي معها، وفيها ما يقابلها. فيجعل منه أنموذجاً للزعيم القوي المندفع بحدة الطبع والمزاج، وسرعة الانفعال، وحساسية الوجدان. ولعل هذه السمات هي التي جعلت نجاحه قوياً في قيادة شعب صلب المراس، معقد النفسية، وهو شعب بني إسرائيل الذي كان من طبعه

الـتلكؤ في الطاعـة، والجمـود في المشاعر، والمراوغة، والسخرية في المواقف الجدية، ومقاومـة شـيع الحكـام المـصريين الـذين كان من أخلاقهم البغي والكبر، واحتقار الفقـراء والـضعفاء، وتقـديس الكـبراء وذوي الثـراء: " اللهُ اللهُ أَعْلَـمُ حَـيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"(سورة الأنعام: من آية ١٢٤).

٢ـ شخصية موسى: أنموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج:

فهـا هـو ذا قـد رُبّي في قـصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتى قوياً: " وَدَخَـلَ الْمَدِينَـةَ عَـلَى حِـينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ " (سورة القصص: من آية ١٥) وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحاً..

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين: " قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَـهُ إِنَّـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ"(سـورة القـصص مـن آيـة١٥ -١٧). " فَأَصْـبَحَ فِي الْمَدِينَـةِ خَائِفًـا يَتَرَقَّبُ "(سورة القـصص مـن آية ١٨)... وتعتبر مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفرع المتلفت للشر في كل حركة. وتلك سمة العصبيين أيضاً.

ومع هذا، إنه ينظر: " فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَـوِيٌّ مُّبِـينٌ"(سـورة القـصص: مـن آيـة ١٨). ولكنه يهمّ بالرجل الآخر كما همّ بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهمّ به بفعلـته، فيتذكـر ويخشى: " فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُـرِيدُ أَن تَقْتُلَنِـي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُـرِيدُ أَن تَكُـونَ مِـنَ الْمُصْلِحِينَ "(سورة القصص:١٩). وحينئذ ينصح له بالرحيل رجـل جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا. فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئ الطبع حليم النفس:

كـلا، فهـا هو ذا ينادى من جانب الطور الأيمن: أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حـية تسعي وما يكاد يراها حتى يثب جرياً، لا يعقب ولا يلوي . إنه الفتي العصبي نفـسه ولـو أنـه قـد صـار رجلاً، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة الكبرى(٥)"..

ثم لندعه فترة أخري، لنري ماذا يصنع الزمن في أعصابه:

لقد انتصر علي السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى مـيعاد ربه علي الطور، وإنه لنبي . ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُـرْ إِلَـيْكَ قَـالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَـرَانِي "(سورة الأعراف من آية١٤٣).. ثم حدث مالا تحتمله أية أعصاب إنسانية: " فَلَـمَّا تَجَلَّى رَبُّـهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَـيْكَ وَأَنَـاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِـينَ "(سـورة الأعـراف:١٤٣).. عـودة العـصبي في سرعـة واندفاع!

ثـم هـا هـو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهًا، وفي يديه الألواح التي أوحاهـا الله إلـيه، فـما يتريّث وما يني: " وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ "(سـورة الأعراف من آية١٥٠)... وإنه ليمضي منفعلاً يشد رأس أخيه ولحيته ولا يـسمع لـه قـولاً: " قَـالَ يَـا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي "(سورة طه:٩٤)..

وحـين يعلـم أن " السامري " هو الذي فعل الفعلة، يلتفت إليه مغضباً، ويسأله مـستنكراً. حتـى إذا علـم سرّ العجـل: " قَـالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا " (سورة طه:٩٧) .. وهكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة..

فلـندعه سـنوات أخـرى: لقـد ذهـب قومه في التيه ونحسبه قد صار كهلاً حينما افـترق عـنهم، ولقـي الـرجل الـذي طلـب إليه أن يصحبه ليعلّمه مما آتاه الله علماً .

ونحـن نعلـم أنـه لم يـســتطع أن يـصــبر حتى ينبئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة، فافترقا ...

تلـك شخصية موحدة بارزة، وأنموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القـصة جميعاً[155]. وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم علي مبدأ عـام يسمي في علم النفس " اتساق شخصية الفرد " بحيث إن سلوكه يتناغم بصفة مـستمرة مـع الظـروف الداخلـية والخارجـية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدّد وجهته ونمطه .. وما ذلك إلا لأن القرآن قد عبّر بأمانة عن تصرف الشخصية في مواقفها، واستخدم دقّـة التعبـير عن مشاعرها، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها. فهي رغم تعدد مـواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة، لانعـدام الوحدة الموضوعية بينها، لكنا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر، وائـتلاف الـصفات، وتفاعـل الـسمات المزاجية والخلقية علي الخصوص. ما يلقي الأضواء علي جوانبها النفسية[156].

فإذا انتقلنا إلى شخصية يوسف عليه السلام، وما كان فيها من سمات تترجح بين الإنـسانية والمثالـيّة بـين مطلـع حياته، وفي كنف أبيه يعقوب عليه السلام، وفي بيت عزيز مصر، ثم في جلوسه أمينا علي خزائن الأرض وحاكماً..ومثل شخصية يوسف المترجّحة بين الإنسانية والمثاليّة شخصية سليمان عليه السلام، وقصته مع ملكة سبأ، إنهـا تعكـس مرة صورة الإنسان، وأخري صورة النبي، وثالثة هذه وتلك، دون أن تطغي واحدة علي الأخرى[157].

الأبطال المجهولون:

ومـا تفرّد به القرآن عنايته بالأبطال المجهولين، فيخصص لهم عدداً من الآيات، وتفاصـيل مـن الحوار وإشادة بالمواقف، ويسلّط عليهم من الأضواء أكثر مما يسلّط علي بعض الأنبياء .. وقد تجاوز القرآن في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر الـتحديد مـن الأسـماء والأمـاكن والأزمـنة، وإن تـباين هـذا التجاوز من قصة إلى

أخري، وأكثر نماذج الأبطال المجهولين تفصيلاً في القرآن هي " مؤمن آل فرعون ":
وتبدأ قصته من قوله تعالي:

" وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " (سورة غافر:٢٨) إلى قوله تعالي: " فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ "(سورة غافر: ٤٤-٤٦).

ثم يذكر بعد ختام القصة ومشاهد القيامة، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع إلى الله:
" إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (سورة غافر ٥١-٥٢).

والقصة مما تفرّد به القرآن، وهي درس عن الحق والدعوة إليه، لجأ فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم ذكّرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وربط جحودهم بما حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف: " حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا " (سورة غافر:٣٤). وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون، وهو يأمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسي. ثم دعا قوم فرعون إلى اتّباع الحق . وصرّح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجّى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب[٨٨].

وهذا النظر مما يلقي الضوء علي مثل قوله الله عز وجل: " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ " (سورة يس:١٣-١٤).. ونقرأ حتى آخر القصة نجد خلوّها من الأسماء .. حتى للمرسلين .. فهذه الشخصيات المغطّاة النكرات لا

تدعـو ضـرورة إلى كشفها أو التعريف بها، لأنها لا تؤدي دورها في الحدث القصصي هـنا باعتـبارات خاصة مميّزة لها .. وإنما هي مثل عام لجنسها كله في صلاحيته للقيام بهـذا الـدور.. ومـن هنا تكون عمومية المثل وصلاحيته وشموله لجميع الأفراد فيما ضرب لـه، وسـيق مـن أجلـه، ولأن غـرض الـسامعين أو القارئين، وعبرة القصة، ونتاج الموعظة لا تستدعي أكثر من ذلك"[١١].

ممـا سبق عرضه يتضح لنا أن المحور الرئيس لهذه القصص جميعاً هو الإيمان بالله تعـالي، إلا أن نـشاطات هـؤلاء الأبطـال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسة زراعة وصناعة وتشييداً...

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصرة الحق. يقول الله تعالي: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (سورة الأحزاب:٢٣)

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ "(سورة آل عمران: ١٩٥)

والآيـات دعـوة إلى مـتابعة المـسيرة في بـناء الحـياة عـلي الخـير وعمرانها بالعمل الـصالح وهي تنير السبيل أمام بطولات جديدة دون أن تقتصرها علي مواقع محددة مـن المجـتمع . وصفوة القول إن البطولة في القرآن لا تقتصر علي الأنبياء، وإن كان هـم فـيه الـنصيب الأوفى، ولا تقـف كثـيراً عـند الملـوك، وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطـال المجهولـين والجمـوع المؤمـنة .. وإذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخـية المعـاصرة بحـركات الـشعوب والجماعـات الإنـسانية، وفـيها الكثير من الـبطولات المجهـولة . فـإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعاً وتتسع له[١٢].

شخصية المرأة:

جـاء القـرآن الكـريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها في دستور شريعة أو دسـتور ديـن، وأكرم من ذلك لها أنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وزوجه، وبرّأها من رجس الشيطان ومن حِطّة الحيوان..

وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة أنـه رفـع عـنها لعـنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول. فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم[١٦]:

" فَوَسْـوَسَ لَهُـمَا الـشَّيْطَانُ لِيُـبْدِيَ لَهُـمَا مَـا وُورِيَ عَـنْهُمَا مِـن سَوْءَاتِهِمَا "(سورة الأعراف:٢٠)

وكلاهما ظلم نفسه بذنبه:

" قَـالاَ رَبَّـنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "(سورة الأعـراف:٢٣). ولـيس عـلي ذريّة آدم وزوجه من بنين وبنات جريرة تلحقهم بعد أبويهم أو تلحق أحداً من الأبناء بجريرة الآباء:

" تِلْـكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (سورة البقرة: ١٣٤)

ولـذلك حـرص القرآن الكريم في قصصه علي تقدير المساواة بين الرجل والمرأة، في طبيعتهما البشرية، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر، وأنه لا فـضل لأحدهما علي الآخر بحسب عنصره الإنساني وخلقه الأول، وأن المفاضلة بـين أي رجـل وأيـة امـرأة إنـما تقـوم عـلي أمور أخري خارجة عن طبيعتهما، وهي الأمور المتعلقة بالكفاية والعلم والأخلاق.. وما إلى ذلك، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض[١٦].

وتـبرز المـساواة بيـنهما في القـيمة الإنـسانية المـشتركة، في قصة إبراهيم وتبشيره بغـلام، فقـد كانت البشارة مرة له: " وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ " (سورة الذاريات:٢٨)

ومـرة لـزوجه " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ "(سـورة هود:٧١).. وذلك لا يدلّ علي أن في القـصة واقعتين مختلفتين، أو أن القرآن يتناول مسائل التاريخ في حرية فنية، كما يري الناظـرون في قـصص القـرآن "٦٣"، ولكنه يدلّ علي نظرة القرآن إلى الزوجين وكأنهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معاً، فهما شريكان في هذه المنة "٦٤".

ويتـضح مـن ذلـك أن القـرآن الكـريم أعطـي للمـرأة مكانة واضحة في القصة لأمـرين أولهـما ارتـباط القـصة بالدعـوة "٦٥" . وثانيهما إبراز مساواتها مع الرجل في صـفاته الطبيعـية .جـسمانية وعقلـية وروحية.. وإن كان هنالك شيء من التمييز فإنه يدعو إليه تنسيق العناية الإلهية.. كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه:" هو الذي خلقكم مـن نفـس وحـدة وجعـل منها زوجها ليسكن إليها . فلما تغشها حملت حملاً خفيفاً فمرت به"(سورة الأعراف:١٨٩).

فإذا ذكرت المرأة في القرآن أو في قصص القرآن فذلك لأن وضعها يستوجب لها ذلك. وحكم الواقع والمجتمع والنظام يقتضيه "٦٦".

وبالنظر والتأمل نجد النـواحي التي تدمج المرأة في القصص القرآني الكريم تقرر في الـنفوس معـاني هـي بالمرأة ألصق وأنوثتها بها أحق. كما أنها تحقق عبراً لا تتحقق دون ذكر المرأة فنذكر من ذلك علي سبيل المثال:

١ـ عاطفة الأمومة:

تتمـثل بمميـزاتها في المـرأة ولا تتمـثل بغيرها، وكذلك الحنان الأنثوي والعطف الإنساني، وذلك كله يتحقق في قصة ميلاد موسي:

" وَقَالَـتِ امْـرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَـدًا وَهُـمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُـؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُـمْ وَهُـمْ لَـهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ

حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة القصص:٩-١٣).

تتجلى هنا يد القدرة الإلهية في حماية موسي، حمايته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحبّ الحاني في قلب امرأة، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره – وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل بغير هذا الستار الشفيف[١٦]

٢ـ الحياء والخجل:

فالحياء الطبيعي والخجل المحبب لا يتجلى علي وجهه الصحيح الصادق في غير المرأة ولننظر في قصة موسي مع بنات شيخ مدين: " وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (القصص:٢٣-٢٥).

ونقف هنا عند قوله تعالي: " تمشي علي استحياء " حيث تبرز فيه مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حيت تلقي الرجال ." علي استحياء" في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأوجزه وأدلّه:" إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا". فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج، إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب.

٣ـ الفكر المستقل والإدارة المتحررة:

لقد أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني، كإنسان لها شخصيتها التي تعبّر

عـنها بالقـبول والرفض، والفكر المستقلّ، والإدارة المتحررة، وكامرأة لها خصائص أنوثـتها.. فقـد اسـتطاعت امرأة فرعون أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثـرات والقيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، وأن تنساق في تيار المجتمع الـذي تعيش فـيه، بـل تعلـن عن موقفها في ثبات وإيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فـرعون وقـومه، وتبين لها الحق في دعوة موسي، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغـم مغـريات الحـياة الـرخيّة الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، ورغم آصرة الـزوجية التـي تربطها بفرعون فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان بالمبادئ والقيم[١٦٨]:

" وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّـذِينَ آمَـنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَـنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْـصَنَتْ فَـرْجَهَا فَنَفَخْـنَا فِـيهِ مِـن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" (سورة التحريـم:١١-١٢)

وإفـراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل علي المكانة العالية التي جعلـتها قـرينة مـريم في الذكـر، بـسبب ملابسات حياتها.. فهما الاثنتان أنموذجان للمـرأة المتطهـرة المـصدقة القانـتة .. ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فـرعون .. فالإشـارة القـرآنية تعنـي حقـيقة دائمـة مـستقلة عـن الأشـخاص، والأشـخاص مجـرد أمـثلة لهـذه الحقـيقة، فالقـرآن الكـريم يستخدم الحادثة المفردة لتـصوير الحقـيقة المجـردة، الباقـية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان[١٦٩].. أما ذكر اسـم مريم كاملاً فهو اصطفاء لمريم بالذات وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ" (سورة آل عمران:٤٢-٤٣)- اختـيارها لتـضع مولودا دون أن يمسها رجل.. ولذلك لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة فرعون، لأن القرآن حين تأتي أخبار المعجزات والقصص الإيمانية، لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا ، لأن هذه لمحات إيمانية مقصود أن يقتدي بها الناس ..

ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة، لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم .. إلا مريم – فكلما ذكرت في القرآن[١٧٠] .. لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرّر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة .. ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ " نساء الأرض "، ولكنه استخدم لفظ " نساء العالمين "، أي نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله .. لن توجد أنثى يتكرر لها ماحدث لمريم مما اصطفاه الله سبحانه وتعالى به،وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر[١٧١].

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط، وامرأة نوح، فكلتاهما لم تهتد بنور النبوة المشرق في بيتها، بل تحولت عن زوجها النبي إلى الجبهة المعادية وخانت دعوته، وكانت حرباً عليه مع الكافرين . فأصابها ما أصابهم من عذاب أليم:" ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ " (سورة التحريم: ١٠)

وفي إشارة القرآن هنا ما يؤكد المسؤولية الفردية: فكل إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء[١٧٢].

كذلك فإن القصص القرآني يشير إلى ضعف المرأة أحياناً أمام عاطفة الحبّ حتى إنها لتندفع في بعض الأحيان دون أن تشعر إلى ما كان ينبغي خلافه .. فقد راودت يوسف وغلّقت الأبواب .. وقالت: هيت لك .. إلى أن مكرت به حين تعفف عن متابعة الهوى الجموح وامتنع عن الإصغاء إلى داعى الشهوة والإثم والجريمة، وآثر مرضاة الله، وقال: " قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " (سورة يوسف: ٢٣)

وفي هذه القصة تظهر وهى عاشقة ؛ وهى منتقمة لكبريائها ؛ وهى نادمة، كما صوّر لنا أيضا القصص القرآني المرأة وهى في مكان الصدارة الدولية، ملكة ذات دولة ودلال .. وذات سلطان وجلال، ولها في قومها المكان الذي اكتسبته بعقلها وحكمتها وتدبيرها قبل أن تكتسبه بملكها وسلطانها .. يتمثل ذلك في ملكة " سبأ

" ومـا كـان بيـنها وبـين سليمان ممّا ورد في قصة الهدهد إذ يقول: " إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُـمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ "(سورة النمل: ٢٣)، واستطاعت تلـك الملكـة أن تدبّـر أمر مُلكها، وتستشير قومها إلى أن اجتمعت بنبي الله سليمان، وأسلمت معه لله رب العالمين " [١٧٣] .

وهـنا تـساؤل مثار حول المرأة في القصص القرآني: هل إذا خلت القصة القرآنية مـن المـرأة يكـون تلك القصة مكانها من التأثير والإثارة في نفس القارئ، شأنها هذا شأن القصة التي تطلّ فيها المرأة بوجهها ؟

في الحقـيقة لقـد جـاءت القـصة القـرآنية خالية من ذكر المرأة، أو الإشارة إليها، تلمـيحاً أو تـصريحاً، وقد تمثل ذلك في قصص كثيرة أبرزها قصص سورة الكهف، مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والعبد الصالح، وقـصة ذي القـرنين .. وجـاءت أيـضاً القـصة القـرآنية والمـرأة تكاد تكون العنصر الغالب فيها مثل قصة يوسف، وقصة ملكة سبأ، وقصة مريم ..

ومـن دراسة هذين الأنموذجين من القصص القرآنى يبدو لنا في وضوح بيِّن أن وجـود المـرأة في القـصص القـرآني أو عـدم وجـودها، ليس له وزن في حساب هذا القـصص، إلا مـن حـيث تقريـر الواقـع، ومـا يقضي به منطق الحق في الحدث التي تصوّره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحـياة الإنـسانية، التـي تلـتمس منها العبرة العظة، أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقـي في الحـدث، ولم يكـن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكـان في القـصة القرآنية، بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصص من واقع الحياة الماضية، ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدها على النحو الذي كانت عليه من قبل، وعلى ما كان لها من موقف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية " [١٧٤] .

ولـيس مـن أهـداف القـصة القـرآنية أن تـستعرض أمـثالاً لحـب وهـوى المرأة وعاطفـتها إن لم يكـن ذلـك لحكمـة أرادهـا الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرةً لأولي الألباب .

٣ – الحوار في القصص القرآني:

للقصة في القرآن الكريم طريقتان:

أ) طـريقة عـرض الأحـداث بـشكل تقريـري ينـتقل فيه الحدث من مرحلة إلى مرحلة حتى يبلغ نهايته.

ب) طـريقة الحـوار .. الـذي يحـاول أن يمـثّل فيه كل طرف من أطراف القصة، ولكـل بطـل مـن أبطالهـا دوره الـذي يعـبّر عنه بأسلوب واضح، ويثير فيها بعض القضايا التي يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح..

أمـا قـيمة الطـريقة الأولي، فتتمـثّل في ملاحقـتها للقـضايا الصغيرة في التاريخ، ووقـوف القـاص، موقف المرشد الذي يقود تفكير السامعين أو القارئين إلى النقاط الأساسية في أسلوب يقرُب من التلقين الذي يُراد منه تعبئة الفراغ بشكل دقيق..

وأمـا طـريقة الحـوار، فإن قيمتها في محاولتها تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، فلا يترك أي جانب خفي فيها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها..

وهناك نقطة أخري، يتميز فيها الحوار، وهي أنها تجسد الموقف فنشعر فيه بالحياة المتحـركة التي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جوٍ إلى جوٍ وتعيش فيها الأحداث الماضـية مـن خـلال أبطالها الذين نشعر بهم، ونحن مندمجون في القصة – يتحركون أمامنا في أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنا حاضرين معهم..

ومـن الطبعـي أنـنا لا نستطيع الحصول علي أكثر هذه الجوانب في عرض القصة بالطـريقة التقريـرية التـي تـتحدّث عـن الموضوع بأسلوب الحكاية أو التقرير، وإن كانت تعطينا معرفة تفصيلية للموقف..

وربـما كـان هـذا هو السبب في تركيز القرآن الكريم علي الحوار القصصي في أكثر مـن موقـف، وفي أكثـر مـن قـصة مـن أجل التأكيد علي الصورة الحقيقية المتجسّدة المتحـرّكة للـتاريخ الرسالي الذي يراد له أن يرتبط بالحاضر، في عملية وحدة رسالية

رائعة، أو للقضايا الحيوية التي يريد القرآن الكريم إثارتها في حياة الناس وتعميقها في نفوسهم[١٢٤] .

ولذلك تميز الحوار القصصي القرآني بأنه لم يكن مصدره دائماً هو الإنسان، كما هو المألوف بل اشتركت فيه عناصر متباينة:

فنجد في القصص القرآني حواراً:

بين الله والملائكة:

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "(البقرة: ٣٠)

" أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ " (البقرة: ٢٥٩)

وبين الله وإبليس:

" قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ " (الأعراف:١٢-١٤).

وبين الإنسان والملائكة:

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ " (سورة ص: ٢١-٢٢).

وبين الإنسان والحيوان:

" وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ " (النمل: ٢٠-٢٢)[١٧٦].

والحوار في القصص القرآني يجري في نمط أساليبه الرفيعة . مهما كانت الأشخاص والمتحاورون، فهي مقاولة بين شخصين أو أكثر، يعبّر عن معانيها أرفع الكلام وأسماه وأعرقه في مرماه، إنه صور تُخرج خبايا النفوس، فيصوّرها خالقها من خلالها، وتكشف عن طوايا الصدور، فيعرضها الرب سبحانه علي وجهها .. ونحن حين نقف بين يدي أحد مواقف القرآن في حواره القصصي نجد المشهد كله حاضراً مشخصاً يملأ الأسماع والأبصار، ويملأ حتما تلك الفراغات والفجوات التي تقع عادة بين ثنايا الحوار وطوايا الصراع من غير تعمّل أو تكلّف أو اصطناع[١٧٧] .

ولا شك أن الحوار الذي يديره القرآن في دقة وحساسية لإحياء مشاهد القصص أو تصوير انفعالات الأشخاص قد اقتضي اتباع أسلوب اللاعنف، وطريقة اللين لأن القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآني الكبير، وهو الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق.

وإن شئنا أن نستزيد تصوراً لذلك، فلنتابع الحوار في قصة موسي عليه السلام:

الحوار في قصة موسي:

لقد كانت قصة موسي عليه السلام، في القرآن الكريم، من أكثر القصص القرآني توزيعاً في سوره، فقد ذكرت فيما يقرب من الثلاثين موضعاً أو تزيد، ولعلّ قيمتها في هذه الحياة المتحركة أبداً.. في شخصية موسي القوية التي دخلت إلى الحياة في ظروف صعبة، في أول ولادته، وفي المجتمع المقهور المستعبد في ذلك الوقت، وفي الحياة القلقة التي درج فيها في أول خطواته، مما جعله يختزن ذلك كله في كيانه، ليواجه الحياة من موقع الشعور بالقوة التي ما أن تمتد في الصراع الذي يحاول أن

يجرها بعيداً حتى ترجع إلى الله سبحانه في موقف إنابة وابتهال .. ولقد مرت حياته بمواقف صعبة جداً، قبل أن يرسله الله نبياً إلى فرعون، فحفلت بالكثير من الأحداث والمواقف .. مما ترك أثراً في شخصيته، فجعلها تهتز قليلاً في شعور خفي قلق من قوة الطغيان والكفر، المتمثلة في فرعون وسيطرته الكبيرة الممتدة في حياة أمته "[١٧٨]:

حواره مع الله:

ولذلك وقف موسي – أمام تكليفه بالرسالة – في الموقف الخائف الذي يتقبّل الرسالة بإيمان، ولكنه يريد أن يستجمع – في نفسه وفي خطواته – عناصر جديدة من القوة، التي يستمدّها من ألطاف الله من جهته، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخري. ولقد أبرز الحوار هذا الموقف العصيب الذي وقفه موسي، وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه.. هذا الحوار الذي تنطبق عليه قاعدة المشاهد الأربعة التي جاءت في القرآن الكريم، عن هذه المرحلة في سور " طه " و " القصص "و "الشعراء" و " النمل "، ثم الصور المجملة غاية الإجمال في " الفرقان " و " السجدة " و " النازعات "، فالتفصيل الذي تبدو فيه الصورة بكل معالمها الكبرى، ومعظم خطوطها الفرعية، تأتي في موضع ثم لا تلبث أن تتأكد هذه الصورة بتلك المعالم بصورة قريبة منها، وإن كان الإجمال يعوّض بإيراد تفاصيل جديدة، تحفظ للصورة طرافة تعينها علي استثارة الاهتمام، وبعث التشوّق والتطلّع، ثم تأتي بعد ذلك الصور التي يزيد نصيبها من الإيجاز، ليكون دورها إبراز خلاصة الحدث، وكأنه الحكم النهائي الذي يستنبطه حكمة هذا كله، وتبدأ الصورة الكبرى في سورة " طه " إذ يقول الله تعالي:

" وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى " (سورة طه:١٣-١٦).

ثم تبدأ المناجاة: " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى" (سورة طه: ١٧-٢٣). ثم تختتم المناجاة أيضاً في سورة " طه ": " اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى" (سورة طه:٤٢-٤٧).

ثم تأتي السورة التالية، سورة القصص، أقل ترسّلا، في إيراد التفاصيل ولكن مع الحرص علي جوهر الواقعة، وفي صيغة بطبيعة الحال، مخالفة للصيغة الأولي، أولا لاعتبارات الإيجاز والإجمال، ولإحداث التناسق أو الاتساق مع العبارة المستعملة في هذه الصورة، والإيقاع العام في السورة، التي هي الإطار الشامل، وتبدأ الصورة بالمناجاة، ثم تتبعها الوقائع بلا تمهيد:

" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ " (سورة القصص:٣٠-٣٥).

والمقابلة بين ما جاء في سورة " طه "، وما جاء في سورة " القصص " تبرز تماماً، منهج القرآن الكريم في التفصيل في الموضع الذي يختاره الله تعالي، ومنهجه في

الإيجاز في الموضع الذي يختاره لذلك رب العالمين "(٧٦) ومن ناحية أخري عرض الحلقة من القصة التي تؤدي الغرض منها وتبرزه في إطار السياق العام للسورة التي تعرض منها،" فالقصة القرآنية تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض. فهي أداة تربية للنفوس ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه، وتتعاون في بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمّر هذه القلوب" (٨٠).

حواره مع فرعون:

إن من أخطر مشاهد القصة القرآنية، وأكثرها دلالة علي دور هذه القصة وأعظمها امتلاء بخصائص القصة وتنوع أسلوب الحوار فيها، ذلك المشهد الذي دار الحوار فيه بين موسي عليه السلام من جانب، وفرعون مصر من جانب آخر، ففي هذا الحوار تتضح فلسفتا التوحيد والشرك، فتتصارع حجج الحق مع دعاوي الباطل، في إيجاز ووضوح، مع سرعة في الهجوم والدفاع حتى يتحوّل الموقف إلى مبارزة فكرية..، وقد جاء ذكر هذا المشهد في عدة لقطات في سور " الأعراف "، و" طه " و " الشعراء".

وبمقارنة هذه اللقطات يتضح جلياً الفارق بين أسلوب الإفاضة والإطناب، وأسلوب الإيجاز والاقتضاب، ففي الأسلوبين، نستطيع أن نعرف جوهر الحوار والأفكار الأساسية، التي دار حولها، وموقف المتحاورين وحجة كل منهما وحالته النفسية من الهدوء والطمأنينة في جانب، والقلق والانفعال والإذلال بالقوة في جانب آخر، ولكن في الإسهاب نجد الأفكار مبسوطة وعناصرها جميعاً مذكورة، والأمثلة المتعددة كلها واردة، ويستغني عن هذا كله في مواضع الإجمال (٨١)، ففي سورة طه نقرأ قوله تعالي:

" قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى " (سورة طه: ٤٩-٥٥) .

أ- أسلوب المراوغة في الحوار:

لقد تجاهل فرعون في - البداية - معرفة رب موسي وهارون، الذي يحملان رسالته وحاول أن يثير السؤال أمامهما عنه، كعملية إيحائية لقومه، بأن القضية لا تعدو أن تكون متعلقة بشخص منافس له غير معروف.. وكان جواب موسي كلمة جامعة تضع السائل في موقع الجهل التام، ولكن فرعون لم يستسلم وبدأ في إثارة سؤال آخر يريد به صرف الأنظار عن الجواب الذي لم يستطع مواجهته بشيء يذكر، وتوجيه الانتباه نحو قضية جانبية، تخلق جواً من الإثارة التي تعكر الأجواء ضد الرسالة والرسول، وهو موضوع القرون الأولي التي كانت تسير في غير خط الإيمان.. وكان جواب موسي، أن علمها عند الله فهو يعلم ما عملوا ويحفظه في كتاب يواجههم به يوم القيامة.. ثم أعاد موسي الحديث عن الله وخلقه السماء التي تهب الحياة للأرض مما تنزله من ماء يبعث الخصب الذي تنتفع به الناس والأنعام، ثم لخص الدورة التي يقتطعها الإنسان في هذه الأرض، منذ بداية وجوده، إلى خروجه منها ليقف بين يدي الله.

" وهذه لفتة بارعة من موسي - النبي - يواجه بها فرعون بخلاف ما أراده من الهروب عن جو الإفاضة في الحديث عن الله خشية منه أن يؤثر موسي علي أفكار من حوله، الذين كانوا يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة، إذ لم يسبق لأحد أن واجه فرعون بمثل ما واجهه به موسي من دعوة وحوار " (٥٥).

بـ- أسلوب الازدراء والاستخفاف:

كما يتضح من قول فرعون لموسي في سورة الشعراء: " ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكفرين " (الشعراء:١٨-١٩).

وذلك للتحقير من شأن موسي في قومه والحطّ من منزلته عندهم، فيذكره

بتربيته في قصره، ويذكره بحادث مقتل المصري في تهويل وتجسيم: " قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ٢٠-٢٢).

ويلاحظ من ناحية التنسيق الفنيّ في التعبير: " أن حرف الفاصلة في السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقوله: من المرسلين . يتمشّى موسيقياً مع الإيقاع السائد في السورة، بعكس ما لو قيل: وجعلني رسولا . ولكنه مع هذا يؤدي معني مقصوداً. وهو أنه واحد من كثيرين وأن الامر ليس بفذ ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفني والديني في التعبير "[١٨٣].

وبذلك يتضح لنا كيف تصرّف القرآن في التلوين، وكيف يربط جو القصة مع ما هي فيه من المناسبات، ويحكم أسلوبها بكل جو يلابسها من أجواء الكلام، ويجعل جو السورة الواحدة مقياس العرض الرفيع الأنيق.. فهناك معان متقاربة بين قصة موسي في سورة " الشعراء " وقصة موسي في سورة " طه "، وقصة موسي في سورة " القصص "، وغيرها من السور، ولكن الأسلوب مختلف بين هذه وتلك، اختلاف كل سورة عن الأخري في مسلكها البياني الخصيب، وعرضها الرباني العجيب، مما يُدرك بالذوق علي تفاوته..

ومن مزايا الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة في القرآن، ملء الفراغات التي تكون عادة بين مقاطع الحوار، حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد بأنه يعيش فعلاً مع أحداث القصة، ينتقل مع أشخاصها ويحاور أبطالها، ويشفق لهم أو منهم، أو عليهم.. فكل قصة – موقف أو مواقف تجتذب المتأمل، وتستقيد الناظر المتمهل، وتندمج في سلك الهداية الرفيعة والموعظة الحسنة..

وهذا هو السرّ في أن القرآن الكريم تارة يختصر القصة، وأحياناً يطيل في عرضها، ثم هو في موقف يأخذ بعض جوانبها، وفي موقف آخر يأخذ بعضاً بغاية الحكمة، ودقة التصوير، وجمال التقدير..

ونجد القصص القرآني الكريم يتميّز بالصدق في مدلولاته والتحقيق لمعاني ألفاظه وعباراته.. والتثبت من مفاهيم أبطاله وشخصياته .. فالشخصيات فيه

حقائق لها وجودها الذاتي ولها منطقها وسلوكها، ولها منزعها واتجاهها، ولها استقلالها وكيانها، وليس وراءها في أي مشهد ما، أو في أي موقف من المواقف يد تحركها، أو أصابع تشدها، أو " مخرج " يفصل دورها علي " قدها "، أو مؤلف يضع الكلمات في الأفواه، ويشد الشفاه بالعبارة والحوار..

من أجل هذا، كان للحوار القصصي في القرآن شأوًا بعيدًا جدًا في إحياء المشاهد التي ضم عليها الحدث القصصي، وفي إقدارها علي التأثير بالكلمة في تصوير رائع مليئ بالحركة.

ومن هنا، نستطيع أن ندرك الفرق الكبير والبون الشاسع بين القصص الأدبي الذي تتحرك فيه الأشخاص وتتحدث بما يضع القاص علي ألسنتهم من حوار، والقصص القرآني الكريم الذي يمكن القول فيه: بإنه جميعه انفعالات وانطباعات تصوّر الحق، وتتلوّن في ألوان الصدق، لما فيها من تحقيق الواقع العجيب، وتصوير الصدق القوي الذي يملأ النفوس إيماناً. ويزحم المشاعر بالإنسانية الرشيدة، والهدايات السديدة، ضرورة أنه من القرآن " الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " (سورة هود:١).. و " إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ "(الطارق: ١٣-١٤).في ختام الحديث عن عناصر القصة القرآنية ينبغي القول: " إن من حكمة القصص القرآني عدم استيفاء العناصر في موقف واحد، بل هي موزّعة التوزيع الذي يترك في كل موقف أثره المنشود. وهذا يرتبط ارتباطاً واضحاً بمفهوم سليم.. وهو أن القصص القرآني في جملته يجري مجرى الأقصوصة لا مجرى القصة الطويلة، ومن أسرار ذلك أن تكون النفوس مشوّقة إلى استيفاء بعض العناصر، فتدرك جانبًا منها في مقام وجانبًا آخر في مقام، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها، ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم من قصصه"[١٨١].

ثالثا: أغراض القصص القرآني

إن اشتمال القرآن الكريم علي هذه الوفرة الغزيرة من القصص الواعي المحكم،

ليدلّ علي الأهمية الكبيرة والمكانة العظيمة للقصة القرآنية، وقيمتها في التوجيه النفسي، وفي الهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم..

ولم يكن هذا القصص سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلّى بها السامعون، ثم يغفلون عن حكاياتها أو يتّعظون،... إن هذا القصص كان تاريخاً لسيرة الدعوة الدينية، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة، وما هي العقبات التي اعترضتها؟ وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها؟ وماذا صنع الأنبياء بإزائها وكيف قبلت الأمم المدعوّة رسالات الله؟ أو صدّت عنها، بم انتهى الصراع بين الغيّ والرشد[١٨٥].

" وهكذا قضي سبحانه أن تجيء القصة القرآنية متجاوبة مع غريزة " حب الاستطلاع " مشبعة لها . علي صفة لا يحس فيها المستمع بضغط التكليف ومشقة الامر والنهي، وهكذا أصبحت القصة علي المدي الطويل لها دورها في التأثير، وفي مجري الحياة من حيث لا يشعر الإنسان "[١٨٦] .

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص المتنوع نقرؤها في قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(سورة يوسف:١١١).

فالقرآن كتاب الدعوة وتاريخها. وفي ثنايا السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور وكرّت الدهور. وإننا لنجد فيما قصّ القرآن الكريم من وصايا الأنبياء ونصائحهم وإرشادهم لأممهم، كلاماً منسقاً، وهدياً منسجماً، صدر من مشكاة واحدة، وانساق إلى هدف واحد يمهّد أوله لآخره وتصدّق نهاياته بداياته، وكأنهم خطباء فوق منبر واحد، مع إنه بين النبي والنبي أزمان وأزمان، وبين الأمة والأمة تغيّرت قرى، وبادت أمصار، هذا وقد عرض القرآن الكريم قصصاً أخري لم يكن أبطالها أنبياء ولا مرسلين، وإنما أقوام من هنا أو من هناك ممن طواهم الدهر ولكن بقيت ذكراهم – إن خيرا أو شراً باقية أمام الناس ماثلة أمام

أعينهم علّهم يثوبون إلى دينهم، فالدين يهدف إلى صلاح المعتقد، وتدبير حياة الإنسان علي الوجه الأتم، فليس الدين بمعزلٍ عن الحياة، وبذلك تكون القصة إحدى وسائله الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والتي تتمثل في إبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها "[١٨٧]، فقد " تناولت القصة القرآنية جميع الأغراض القرآنية، فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله الواحد القهار وتوحّد الأديان في أساسها، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والإنذار والتبشير، والصبر والجزع، والشكر والبطر.. وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، قد تناولته القصة، وكانت أداة وسبيلا إليه "[١٨٨]... وفوق كل ذلك رققت القصة القرآنية ذوق العرب والمسلمين، وارتقت بأساليب البيان عندهم، ومهدت لهذه الآثار الضخمة من الكتب والموسوعات، ودواوين الشعر"[١٨٩].

وفي الحقيقة أن أول أهداف القصة القرآنية وأغراضها نستمدها من الظروف التي أوحت بهذا القصص.. فقد جاء أن " النضر بن الحارث" كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول – عليه الصلاة والسلام – وكانت قريش تستملح حديثه، وتنصرف عن النبي، فكان طبيعياً – ومحمد – صلي الله عليه وسلم – بصدد البرهنة علي أن ما جاء به حق – أن يعلمه الله سبحانه وتعالى مثل هذا القصص ليبلغه إلى قومه عساهم يؤمنون، وعن غيّهم الفاسد يرجعون، وما كان لهم – لو أنهم أرادوا وجه الحق – إلا أن يؤمنوا به ويصدقوا دعواه، محمد – صلي الله عليه وسلم – لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصاري، فإذا جاء وأخبر عن أمم بادت وقرون خلت، وأسهب في قصص إبراهيم ويوسف وموسي وعيسي – عليهم السلام – أفلا يدل ذلك علي أن ما يقوله حق ؟ لقد اتخذ القرآن من هذه القصص دليلاً علي أنه وحي يوحي .. ولذا كان من أغراض القصة القرآنية:

أولاً: إثبات الوحي والرسالة:

فالقرآن ينصّ علي هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها

حيث جاء قوله تعالى في أول سورة " يوسف ": " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ "(يوسف:٢-٣) .

وفي سورة " هود " التي وردت بعد قصة نوح نقرأ قوله تعالي: "تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ "(هود:٤٩).

ثانياً: الدعوة إلى الصبر والثقة في الله:

لأنه إذا عرض سبحانه وتعالى علي نبيّه سيرة أصحاب الدعوات مع أقوامهم، وما لاقوه من متاعب، وما صادفهم من أزمات انكشف غمّه وانزاح همّه، وثبت علي دعواه.. والقرآن يبرز ذلك في قوله سبحانه:" وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "(هود: ١٢٠).

وهكذا كان الرسول – صلي الله عليه وسلم – يجد في هذا القصص صدي نفسه.

ثالثاً: التوجيه والإرشاد:

إذ لا ينكر أحد أبداً ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية قد تدحض كل خلق أو عادات أو آراء زائفة .. فالقصص القرآني يتجه إلى تحقيق دعوة السماء للأرض من الإيمان بالله ورسله، وذلك بشرح العقائد وتصويرها وحسن التصرف فيها .. وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا الهدف في جوامع من عباراته بقوله سبحانه: " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَـدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "(النحل:٣٦).

وهنا نري أن الله سبحانه أضاف إلى ذلك القصص، الأمر بالسير في الأرض لزيادة العظة والاعتبار، وتوجيه العباد إلى تطبيق كل ما ورد في القصص القرآني علي

الواقـع الخارجي. وإرشادهم إلى أن الخير في اتباع ما يوحي إلى رسوله وما يدعوهم الرسول إليه.

رابعا: الترغيب والترهيب:

ويقترب أمر السير في الأرض بالإنذار والتخويف، فالإنذار في القصص القرآني لـه معنـى تهذيبـي إصـلاحي يهـدى بـه الله من شاء من عباده إلى الطريق الحقّ والى صراطٍ مـستقيم .. ومازلـنا نـمارس هـذه الـسنة الإلهـية الكـريمة في نظـام الكـون والوجـود: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "(سورة الروم:٩). وهـذا الغرض من أغراض القصص القرآني يجعلنا نطرح تساؤلا حوله: إن الإنذار بالعـذاب، ونحـوه مـن أغراض القرآن الكريم في غير القصص. فما الذي يدعو إلى هـذا اللـون من القول. والى الحفل به والعناية بأمره والجواب: إن ذلك لحق. ولكن الـذي يجـب التنبـيه علـيه والالـتفات إلـيه، هو أن للقصص من التأثر على النفوس بمقتـضى فطرها ما ليس لغيره من ألوان القول، فهو لون يبيّن أن ما نذر الله سبحانه بـه مـن العذاب قد وقع لمن جحد- وعَنَدَ- ونزع عن رحابة الإيمان وعمق العقيدة، وأصالة الحق، إلى ضنك الباطل وزيف الضلال(١١).

خامساً: إبراز وحدة الدعوة بين الأنبياء:

إذ أن المدقق في القصص القرآني بقلب عامر بالإيمان وإعمال سليم للعقل لابدّ أن يـشعر أن مـن أهـمّ أهـداف هذا القصص القرآني إبراز حقيقة عقيدية مهمة تتضح خـلال الـسرد التاريخـي وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة علي تتابع الأجيال . كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله. وقضية واحدة هي: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني في الحقيقة، يبدو بارزاً شديد البروز من خلال السرد القرآني، وتتخذ له وسائل شتي:

أ- فأحياناً يوحد أسلوب القصص (مع التنويع الواضح في القرآن) بحيث تجيء العبارة موحدة علي لسان كل رسول، في الشريط المتتابع للرسل:

كل رسول يقول الكلمة ويمضي، ويأتي من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير.

ب- وتارة يقال عن قوم معيّنين أنهم كذّبوا " الرسل " مع إنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم.

جـ- وتارة يقال عن أقوام متعمدين إنهم عَصَوا " رسول " ربهم، فيوضح ذلك أن كل أمة كذّبت رسولها، ويوحي في ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد الذي بُعث إلى هذه الأقوام جميعاً، لأنهم – علي اختلاف أقوامهم، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم – قد قالوا ذات القضية.. ومن هنا فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام..

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء عن الرسل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء بصفة خاصة: " لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . فقال: يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم... وإلى عاد أخاهم هودا . قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون .. وإلى ثمود أخاهم صلحاً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم ءاية .. وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان "(الأعراف:٥٩-٨٥)"".

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء: حيث جمعت بين الوسيلتين، إذ وحّدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذّبون " المرسلين " جميعاً، بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم . وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذّبوا " الرسل " مع أنهم كذّبوا رسولهم الخاص وحده وهو " نوح " ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً:

" وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا "(الفرقان: ٣٧).

ومـن أمـثلة النوع الثالث ما جاء من أنباء ثمود وعاد، وفرعون، والمؤتفكات، في سـورة الحاقـة: " كَـذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُـوا بِـرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِـيَةٍ سَـخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَـوْمَ فِـيهَا صَرْعَـى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَـن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً " (الحاقة: ٤-١٠).

والتعبـير – وإن كـان يُفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عَصَت رسولها- إلا أن اللفـتة فـيه واضـحة، أن الرسـل كلهـم الـذين أرسـلوا إلى فـرعون، ومـن قـبله، والمـؤتفكات قـد جمعـوا في رسول واحد، لأن مهمتهم كلها واحدة، وقضيتهم كلها واحدة .. فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها ..

وكـذلك مـا جاء في سورة الشعراء عن " موسي وهارون " معاً، أنهما " رسـول " رب العالمـين: " قَـالَ كَـلَّا فَاذْهَـبَا بِآيَاتِـنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ١٥-١٧).

ولـيس هـناك لـبس عـلي الإطـلاق في أن المـتكلم اثنان معاً لا واحد، لأن الأمر صـادر إلـيهما معـاً: " فقولا "، ولأنهما يقولان: " أرسل معنا بني إسرائيل" فموسي وهـارون يتكلمان معاً .. وحتى لو فرضنا أن موسي وحده الذي يتكلم باسميهما معاً فهو يقول " إنا " ولا يقول " أنا " .. أي أنه يتكلم بضمير المثني لا المفرد، ومع ذلك يقـول " إنـا رسـول رب العالمـين " لأنهما – وهما شخصان – يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد [٦٢].

سادساً: وحدة المعارضة:

ومـن الأهـداف المهمة، الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل، إبـراز الموقـف المـوحّد الذي تقفه الجاهليات جميعاً من رسلها الذين أرسلوا إليها .. فكما أنها رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات، والزمان والمكان:

- " كَـذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ" (الذاريات:٥٢-٥٣).

وهكـذا نـري أنه دور واحد تقوم به الجاهلية دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البساطة، الخطيرة غاية الخطـورة .. دعوة لا إله إلا الله .. والقرآن يبرز هذا الدور إبـرازاً تامـاً في قصص الأنبياء .. وقد كان من أهداف هذا الإبراز ولا شك أن يقال للرسـول — صـلي الله عليه وسلم – وللمؤمنين: إن ما تفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب، هو عينه الذي صنعته كل جاهلية من قبل في التاريخ .. ثم كانت النهاية دائـماً هـي انتـصار الحـق، وهزيمة الباطل والعذاب للمكذبين، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

" فَكَذَّبُـوهُ فَأَنجَيْـنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ"(سورة الأعراف: ٦٤) (نوح عليه السلام)

" فَأَنجَيْـنَاهُ وَالَّـذِينَ مَعَـهُ بِـرَحْمَةٍ مِّـنَّا وَقَطَعْـنَا دَابِـرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ" (الأعراف: ٧٢) (هود عليه السلام).

" فَأَخَـذَتْهُمُ الـرَّجْفَةُ فَأَصْـبَحُواْ فِي دَارِهِـمْ جَاثِمِـينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْـتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِـحِينَ" (الأعراف: ٧٨-٧٩) (صالح عليه السلام).

" فَأَنجَيْـنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " (الأعراف: ٨٣-٨٤) (لوط عليه السلام).

" فَأَخَـذَتْهُمُ الـرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِـيهَا الَّـذِينَ كَذَّبُـواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ " (الأعراف:٩١-٩٣) (شعيب عليه السلام).

كـان هـذا هـدفاً قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم وقت نزول هذا القـرآن .. ولكـنه هدف قائم أبداً طالما كانت في الأرض جاهلية من أي نوع، ودعاة يعلنون دائماً: لا إله إلا الله، فيضطهدون ويعذبون ويقتلون . "(١٩٦).

سابعاً: موازرة النبي وإمداده بالمعجزات:

ويـضاف إلى أهـداف القـصص القرآني تأييد النبي – صلي الله عليه وسلم – فيما اصطفاه الله له من الرسالة، ولهذا التأييد هدف آخر غير هدف التثبيت والتسرية،فإن التثبيت هـدف يـتجلى في تحمّـل الشدائد، ومقابلة الأذى بقلب ثابت، والصبر علي المكـاره.. أمـا التأييد فيتصل بالتحدّي بالغيب، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطّلع علـيها إلا عـلام الغيوب.. فهو يوحي بها إلى من يصطفيه من عباده: " وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (سورة النساء:١١٣)(١٩٧).

ثامناً: بيان الأصل المشترك

بين دين " محمد " ودين إبراهيم بصفة خاصة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشدّ من الاتصال العام بين جميع الأديان . فتكرّرت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسي وعيسي:

" إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (سورة الأعلى: ١٨-١٩)" أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى "(سورة النجم ٣٥-٣٨)" إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة آل عمران: ٦٨) " مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ " (سورة الحج:٧٨) و " وقفينا علي ءاثـرهم بعيسي ابـن مريم مصدقاً بين يديه من التورة ...... إلى قوله تعالى " وَأَنزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ"(سورة المائدة ٤٦ -٤٨).

تاسعاً: بيان نعمة الله علي أنبيائه وأصفيائه

كقصص إبراهيم وموسي وعيسي، وسليمان وداود وزكريا ويونس، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتي، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، فمن تقدير القرآن الكريم لحياة سيدنا إبراهيم وبيان نعم الله عليه، قوله سبحانه: " وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ "(البقرة: ١٣٠).

وإن للسادة الصوفية شرحاً جميلاً لكلمة " الصالحين " حينما ترد، في مثل هذه المقامات، أنهم يقولون: " الصالحون للحضرة الإلهية، فيكون معني الآية الكريمة: وإنه في الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا .. هذا وقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم نذكر منها:

- إنه كان مسلماً: أي أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.
- وإنه كان أمة: والأمة والجماعة من كان علي الحق ولو كان وحده فهو قدوة يقتدي بها في الحق، وهو إمام.
- وإنه كان قانتاً: والقانت هو الخاضع الخاشع.
- وإنه كان حنيفاً: والحنيف هو الذي لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات أو ميل شرك.
- وإنه كان حليماً.
- وإنه كان أواهاً: والأواه كثير التأوه، وذلك يعني رقة القلب .
- وإنه كان منيباً: والمنيب هو الراجع إلى الله في كل أموره.
- وكان شاكراً لأنعم الله، وأنه في النهاية كان خليل الله . يقول سبحانه: " وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" (النساء: من آية ١٢٥) (١١٠).

عاشراً: الدعوة إلى التفكّر وإعمال العقل:

ومن أهداف القصص القرآني إيقاظ العقل ليفكّر ويستنبط . يقول تعالى " فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة الأعراف: ١٧٦).. وهكذا إن كان الإمتاع هدفاً للقصة مطلقاً، فان القرآن الكريم يضيف إلى متعة العين والأذن، متعة العقل بالتفكير، ومتعة القلب بالصبر والثبات، علي أن ينتهي ذلك كله بالعمل الذي يتوّج المكلّف به حياته"[١٩٦].

وهناك هدف من أهداف القصص القرآني، ربما لم يكن منصوصاً عليه في القصص ذاته، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولاً، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخري من القرآن، كما جاء في أول سورة العنكبوت:

" الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت: ١-٣).

إن القصص القرآني يقول لنا – من خلال السياق – إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه .. ويضع الطغاة في موضع الغلبة بقدر منه، حتى إذا جاء أمر الله جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله "[١٩٧].

الحادي عشر: التحذير من الغواية واتّباع الشيطان:

ومن أهم أغراض القصص القرآني ذلك الغرض الذي يرمي إلى تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوي، وأدعي إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير "[١٩٨].

الثاني عشر: التربية والتهذيب:

قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن، فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهج المتكامل، ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية

والتشريعية وحدة متناسقة، وإن تنوعت طرقه في التبليغ، والتعليم قصد الإمعان في التأثير، وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر، مع ارتباط وثيق بالمحور العام الذي يجمع تلك الأغراض علي اختلافها .. ولهذا كانت الوسائل والأهداف في القصة القرآنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، فبحيوية العرض في القصة، وقوة التخييل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثير بالتوجيه التربوي مالا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه علي النفس وهي في راحتها واسترخائها، أو في انطلاقها وتحررها. ففي قصص القرآن إذاً تربية دينية لها أثر عميق في النفوس مصدرها: عقيدة تضم الخالق والإنسان والكون، وتقوم علي أساس أن كل خلق كريم هو في ذلك الشعور الباطن، وهو الإيمان بالله الذي جعل الكون معرضاً رائعاً تتجلي فيها حقيقة الألوهية بآثارها، وتملأ جوانب الإنسانية بآياتها: " فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ " (سورة يونس: ٩٨).

والحقيقة التي يؤكدها القصص القرآني أن موازين القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله. فالكفر ظلمة وضلال، والإيمان نور وهداية، فلا إصلاح بغير عقيدة، ولا تربية بغير إيمان " ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " (سورة النور: ٤٠).ولذلك كان للقصة القرآنية دوراً عظيماً في تربية العقيدة وتعهدها وتنميتها، إذ ليست الغاية من التربية سوي تكوين العواطف الصالحة، ولكن هذه العواطف لا تصبح أساساً للخلق الكريم إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة، مصدر الإيمان والخير والأمن "(١)".

ولقد واجه " إبراهيم " قومه الجاحدين المشركين بحجة ألهمه الله إياها، وهي أن من يخلص لله لا يخاف من دونه، فهو أحق بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرك، " وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (الأنعام: ٨١-٨٢).

الثالث عشر:

وللقصص القرآني أهداف وأغراض أخرى كريمة لا تغاير ما أشرنا إليه وما أسلفنا الكلام فيه، وكلها تتصل بالأغراض الرئيسة والأهداف الحقيقية، ومنبثقة عنها في معنى هداية القرآن الكريم، فهي فروع لتلك الأغراض والأصول، وهي تتجه في جملتها إلى ناحيتين:

أ- ناحية تتصل بهدف التوحيد والإيمان السليم . وذلك هو التوكل علي الله والاعتزاز به . وهو في عرضه القرآني مما يحقق الأسوة الصالحة، والقدوة الطيبة، ويملأ النفس المطمئنة بالعزة بالله واللجوء إلى حماه، ففي حوار الأنبياء مع الكفار نجد فيضاً من التوكل، وغمراً من الإيمان والتبتل، فنقرأ في قصة نوح ما ذكر الله سبحانه في سورة يونس إذ يقول: " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[...] (سورة يونس ٧١-٧٢).

وفي قصة إبراهيم، ما هو أعجب، وهي متفرقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما تفرقت من قبلها قصة نوح. ففي سورة الشعراء دار هذا الحوار بينه وبين قومه: " قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (سورة الشعراء: ٧٥-٨٢).

ولننظر في مرأى آخر من جوانب ذلك الحوار .. وكيف انتهي أمره مع قومه إلى أن يلقوه في النار، ولمن كانت العاقبة؟ وما مدي استهتارهم به وبدعوته: " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

اللهَّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ" (سورة الأنبياء (٦٦-٧٠).

أما توكّل " موسى " علي ربه فقد أضفى توكلاً عجيباً لمن آمن معه فقالوا لفرعون - كما يقصّ سبحانه في سورة طه: " قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى" (سورة طه: ٧٢-٧٣).

ب- وأما الناحية الأخرى من تلك الأهداف الفرعية المنبثقة من الأغراض الرئيسة لقصص القرآن، فهي تعليم الأدب في الحوار، والمناقشة مهما غلظ المجرمون الكفار، وتصوير الذوق والرقة، والتلطف والعطف.. ولقد تجلي هذا المعني سافراً في قصة موسي إذ أرسله الله سبحانه إلى فرعون بسلطان مبين ومعه أخوه هارون .. وزودهما بقوله العظيم وتوجيهه الرشيد الحكيم: " اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" (سورة طه: ٤٣-٤٤).

ولقد صوّر الله سبحانه خلق المرسلين في هذا المعني الكريم في عدة مناسبات في جوامع الكلمات، إذ يقول سبحانه في بعض ذلك: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ " (سورة إبراهيم:٩-١٠).

يتضح من هذه المحاورات أن المرسلين يقابلون كل غلظة وجفوة، وكل شدّة في الخطاب وقسوة، بكل أدب رفيع وسلوك كريم، وتوجيه صادق كريم، ومعرفة أمينة دقيقة وتسامح ورحمة جديرة أن تحول كل عناد إلى انقياد، وأن تردّ كل غواية

إلى أدب وهداية .. وذلك من الدروس المستفادة والعبر الصادقة الحقّة التي يجب أن نـرتفع بمـستوانا إلـيها، ونخلق بسلوكنا معها في المعاملة وفي التفاهـم والمخالفة وفي كـل شؤون الحياة .. وهكذا يكون القرآن وقصصه هداية ورعاية، وموعظة وعبرة، وأسوة وقدوة [٢٠١].

الدعوة والقصص القرآني:

مـن خلال قصة إبراهيم وحواره مع أبيه تستمدّ الدعوة الإسلامية أول أسلحتها وهـو سـلاح الحكمة: " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَـتِ لِمَ تَعْـبُدُ مَـا لَا يَـسْمَعُ وَلَا يُبْـصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْـمِ مَـا لَمْ يَأْتِـكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَـانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِـيًّا قَـالَ أَرَاغِـبٌ أَنـتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَـلَامٌ عَلَـيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُـو رَبِّي عَـسَى أَلَّا أَكُـونَ بِـدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْـنَا لَـهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا" (مريم ٤١-٥٠).

تـبدو في هـذه الحلقـة مـن القصة شخصية إبراهيم الرضيّ الحليم.. تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه، كما تتجلّى رحمة الله بـه وتعويـضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفـيها الـصالحون. وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنّه لهم أبوهم إبراهيم ، هم هؤلاء المشركون [٢٠٢]..

" واذكـر في الكـتب إبـراهيم" التذكير هنا إغراء وسلوى للرسول صلي الله عليه وسلم، ثم إنه التذكير بإبراهيم عليه السلام بالذات:

(أ) لأنـه أبـوهم . (ب) والمـشركون مقـرون بنـبوّته وحقيّة رسالته .. فهي نقطة

اتفـاق يـضعها الداعـي بـين أيـدي المدعوين ليلتقوا معه عليها، فيكون ذلك أدعي للإصـغاء إليه والإقبال عليه.. ثم تلخّص الآية الكريمة عناصر القوة في شخصيته: " إنـه كـان صـديقاً نبـياً" .. إذاً فهـو يـتقدم إلى ساحة الدعوة ومعه أسلحته.. إيماناً وخلقـاً وحكمـة، فمـن مظاهـر حكمته عليه الصلاة والسلام مناداته لأبيه: ياأبت. فحق الأبوة يفرض عليه ألا يناديه باسمه المجرد، وحق الدعوة يتقاضاه أن يكون في خطابـه رفـيعاً رقـيقاً، ولـذلك لم يقـل يا أبي، وإنما: يا أبت، بما تحمله زيادة التاء من زيـادة بـر ومـودة، ثـم أنـه يكـررها أكثر من مرة، وذلك ليخفف بالتكرار من حدّة والـده، وليفـرض علـيه بهـا إحـراجاً يمـنعه مـن مـبادرته بالثورة، أو تأخيرها علي الأقل..

ثـم يتجه إبراهيم إلى مخاطبة عقل أبيه: " يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعنـي أهدك صراطاً سوياً ".. وبعد ذلك يتجه عليه السلام إلى وجدان أبيه ليهزه بعمق: " يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً" .

ويلاحـظ هـنا أن إبـراهيم عليه السلام لا يريد الضغط علي قلب أبيه بالتخفيف ليفجـره تفجـيراً، لكنه فقط ينبّه، يضيئ شمعته، فلعلها تنير الطريق. والآيات التالية توضح لنا ذلك:

أ- لم يـؤكّد إبـراهيم علـيه الـسلام وقـوع العذاب .. وإنما هو فقط يخاف وقوعه..

ب- ثم إنه يخاف من العذاب أن " يمسّه " لا أن يسحقه.

جـ- ويخاف أن يمسّه من قِبَل " الرحمن " ولا يقول من " الجبار " مثلاً.

أي أنه لا يضغط بعنف، لكنه يعبر الطريق إلى قلبه برفق ولين، لعله يلين..

يقول ابن القيّم تعليقاً علي موقف إبراهيم: وتأمّل قول إبراهيـم الخليل لأبيه: " يا أبـت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً" .. فابتدأ خطابه بذكر أبوّته الدالـة عـلي توقـيره، ولم يـسمّه باسمه. ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال: فقال لم

تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، ولم يقل: لا تعبد . ثم قال: " يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك" .. فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل علي هذا المعني فقال: " جاءني من العلم مالم يأتك" ثم قال: " فاتبعني أهدك صراطاً سوياً" .. ثم قال: " يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً " فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف علي من يشفق عليه، قال:" يمسك" فذكر لفظ المسّ الذي هو ألطف من غيره، ثم نكّر العذاب، ثم ذكر الرحمن..

وهذه الحكمة في معالجة الموقف شاهد صدق علي ما يجب أن يتحلّى به الداعية من خصائص لولاها لما أتت الدعوة أُكُلَها – بل إن الداعية حيث يتجرد منها يكون عبئاً علي الدعوة لا سند لها..

تواضع الداعية:

وفي التعبير بقوله تعالى: " عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا " تواضع يتوّج هامة الداعية الذي يرجع كل شيء إلى الله تعالي، ولا يقطع بما سيكون عليه، بل يتركه لتقدير الله تعالى وذلك قوله: " عسي ألا أكون " وإذا كان قوله: " شقياً " تعريضاً بأبيه وقومه، فإنه الأسلوب الممسك بالخيط فلا يقطعه فلعل فرصة قريبة تُتاح للعودة إليه .. ولا نغفل قوله " وأعتزلكم " ولم يقل " واعتزلك " رعاية لمشاعر الأبوة.. وتقديراً من الابن لوالده مهما كانت درجته من الجحود والجمود..

ونري من هذا كلّه كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإثبات الدعوى، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب في نفوس من يخاطبهم، ثم يلقي إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث شاء، ألقي إليهم بالنتائج كلها لبراهينه، والاستدراج كما رأينا يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه..

إن إبراهيم عليه السلام كمسلم ينزّه لسانه عن الفحش، ثم هو كداعية مأمور أن

يـتلطّف بالمدعو لا سيما إذا كان أباه، وأن يرتّب الكلام في أحسن اتّساق وأن يسوقه أرشق مساق[١٠٣].

وأخيراً: إذا وضعنا في حسابنا هذا كله كان لنا في النهاية أن نجمع خيوطاً عديدة يمثل كـل مـنها غرضاً مهماً من أغراض القصص القرآني، ولكن هذه الخيوط كلها تلتقـي عـند نقطـة واحدة، وتتجاذب لدي عقدة موحدة، تلكم هي الناحية الدينية، والدعـوة إلـيها بتلك الطريقة المهذبة الوعظية، ولا غرو فقد خاطب القرآن الكريم بهـذا القـصص حاسـة الـوجدان الديـنية، بلغـة الجـمال الفنية، فإذا أدركنا أن الفن والـدين صنوان في أعـماق النفس، وقرارة الحس أدركنا أيضاً مدي ما وصلت إليه هـذه الأغراض من نجاح، وأي نجاح " وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (سورة يوسف: ٢١)."

لقـد وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم، وجدّد علي الناس ذكرها، وذلك لكـي يـداوي عللاً متشابهة، ويطب أمراضاً متماثلة، ومن أجل هذا كثُرت القصص لتُحـصي جملـة كبـيرة من الأمراض الاجتماعية، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشـتى الـنذر، إن القرآن وهو يقصّ أنباء الأولين يحوّلها إلى دواء سائل عام، يسكب من قطراته علي نفوس المعاندين يبغي شفاءها دون نظر إلى تراخى القرون واختلاف المخاطبين[١٠٤].

" إن القـصص القـرآني دروس في العقيدة،دروس في حقيقة لا إله إلا الله .. وإن كـان ثـوبه ثـوب القصة، وإن كان فيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب"[١٠٥]..

(١) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب، ص ٦٩، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٨.
(٢) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة ص ٧٢، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٥.
(٣) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب. ص ٧٠.
(٤) وقد تمثلت هذه العناصر عند " هوميروس " في ربط " داعية الألم Pathos " (وهي الفعل الذي يُهلك أو يُؤلم، وما إلى ذلك مما تسوقه المصائر ويكون مثار الرحمة) بالمخاطرات التي قامت بها الشخصيات في " الأوديسيا " وقد مهد كذلك للقصص الخيالية النثرية – ما قام به شعراء المآسي اليونانية منذ " يوربيدس " من ربطهم العنصر العاطفي بالأحداث التي يسوقونها، غيبية كانت أم إنسانية . . ومن جهة أخرى عمد المؤرخ اليوناني " كسينوفون Xonophon " إلى خلط الخيال بالتاريخ فيما يُشبه القصة، في تأريخه لملك الفرس " كورش " في كتابة " كوربيديا " ...
انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٦٤ – ٤٧٠ بتصرف، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
(٥) من المعروف في الملاحم القديمة مسخ الإنسان إلى حيوان أو شجرة أو حجر . وقصة " أبوليوس " عنوانها " الحمار الذهبي " وفيها تم مسخ " لوسيوس " إلى حمار ثم عودته إلى حالة الإنسان على يد كاهن للإلهة " إيزيس".
انظر: د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٦٧ . هامش ٢.
(٦) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٧٧-٤٧٨.
(٧) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩٥ – ١٩٦.
(٨) د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٩٢.
(٩) على النجدى ناصف: القصة في الشعر العربى إلى أوائل القرن الثانى الهجرى ص ٤ –٥، دار نهضة مصر، بدون تاريخ، وانظر القصة العربية القديمة، للأستاذ محمد مفيد الشوباشي - ص ٥٨.
(١٠) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح، ص ٦٥، المطبعة النموذجية، القاهرة بدون تاريخ.
(١١) على الجندى ناصف: القصة في الشعر العربى، ص ٤.
(١٢) د. محمد أبو الأنوار: من قضايا الأدب الجاهلى، ص ٣، ٨ مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٦.

(١٣) المرجع السابق، عن البيان سنة ١٩١١ مقال " الانتقاد " لطه حسين ".
(١٤) د. على النجدى: في تاريخ الأدب الجاهلى ص ٢٥٨، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٤ .
(١٥) صادق إبراهيم عرجون: الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام، بينى وبين الأستاذ محمد فريد وجدى، ص ١٨-١٩، مطبعة الإرشاد، القاهرة، سنة ١٩٣٦ .
(١٦) د . محمد أحمد العزب: عن اللغة والأدب والنقد . رؤية تاريخية . . ورؤية فنية، ص ٣٨٩ ، ط ١ . دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .
(١٧) سيد قطب: النقد الأدبي . أصوله ومناهجه ص ٧٦، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .
(١٨) د . الطاهر أحمد مكى: القصة القصيرة ص ٧٧ -٧٨، دراسة ومختارات، دار المعارف، ط ٤ . القاهرة، ١٩٨٥ .
(١٩) المرجع السابق. ص ٩٦ .
(٢٠) المرجع السابق . ص ٩٦.
(٢١) د. مصطفي علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث ص٢١، دار المعارف. القاهرة ١٩٨٢.
(٢٢) د . الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة .. ص ٧٨
(٢٣) د . رشاد رشدي: فن القصة القصيرة، ص ٥٤، ط ١ . مكتبة الانجلو . القاهرة، سنة ١٩٥٩
(٢٤) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٦ .
(٢٥) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩١، ط ١ . مطبوعات دار الشعب - القاهرة ، سنة ١٩٧٨ .
(٢٦) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٧ .
(٢٧) صبرى حافظ: الخصائص البنائية للأقصوصة ، ص ٢٨ . مجلة فصول . المجلد الثانى . العدد السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ .
(٢٨) المرجع السابق . ص ٢٩ .
(٢٩) المرجع السابق . ص ١٨٧ .
(٣٠) د. الطاهر أحمد مكى: القصة القصيرة . . . ص ٧٥ .
(٣١) سيد قطب:النقد الأدبي . أصوله ومناهجه، ص ٨٠ . دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .
(٣٢) د . محمد مندور: الأدب وفنونه . ص ٩٨ . دار نهضة مصر، جـ ٢، القاهرة بدون تاريخ .
(٣٣) جورج برناردشو: دراسة السوبرمان البرجوازى ص ١٥٦ -١٥٧، مقال لكريستوفر كودويل . تقديم وترجمة: إبراهيم حماده . مجلة فصول . المجلد الخامس العدد الثالث، سنة ١٩٨٥ .

(٣٤) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب،ص ٧٧ .

(٣٥) المرجع السابق، ص ٧٤ .

(٣٦) د. مصرى عبد الحميد حنورة: الأسس النفسية للإبداع الفنى في الرواية، ص ٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة، سنة ١٩٧٩ .

(٣٧) د . محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٨١ بتصرف .

(٣٨) المرجع السابق، ص ٤٨٢ بتصرف

(٣٩) المرجع السابق، ص ٤٨٣ بتصرف.

(٤٠) د. فاطمة الزهراء: العناصر الرمزية في القصة القصيرة ص٢٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة، سنة ١٩٨٤.

(٤١) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح ص ١٦٢ - ١٦٧ بتصرف، المطبعة النموذجية . القاهرة، بدون تاريخ.

(٤٢) المرجع السابق، ٨٩.

(٤٣) ابن منظور: لسان العرب . مادة قصص .

(٤٤) أبو هلال العسكرى: الفروق اللغوية ص ٢٩ - ٣٠، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، بدون تاريخ، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي .

(٤٥) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى الشافعي، أحد أئمة الدنيا في الفقه والأصول والتفسير، توفي سنة ٥١٤ بنيسابور

(٤٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص ١٧٧ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المجلد الثاني، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة

(٤٧) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص ٤٥ ، دار الفكر العربى . القاهرة، سنة ١٩٦٥ .

(٤٨) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي. ص ١٥٨ . دار الشروق. القاهرة ط٤ . ١٩٨٠ .

(٤٩) سورة الحجرات . الآية ٦ . وانظر محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٥٩ - ١٦٠ ترجمة عباس محمود . مصر ١٩٥٥ .

(٥٠) د . التهامى نفرة - سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٢١ - الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤ .

(٥١) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٥٢) محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٢٠٠، جـ ٣، كتاب اليوم، العدد ١٨٧ - ١٥ يونيو ١٩٨١ .

(٥٣) سيد قطب: في ظلال القرآن . الملجد الرابع ص ٢٢٨٩، طـ ١٢، دار الشروق، القاهرة، سنة ١٩٨٦ .

(٥٤) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠١ .
(٥٥) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٠.
(٥٦) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠٣ .
(٥٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٢ .
(٥٨) المرجع السابق .
(٥٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٣، ٢٤٤.
(٦٠) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص ١٥٧ .
(٦١) سيد قطب: ظلال القرآن . المجلد الثاني، ص ٨٧٤.
(٦٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٣١ / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، ١٩٨٥ .
(٦٣) التكوين (٤ : ١ – ١٧)
(٦٤) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الثاني ص ٨٧٧- ٨٧٨.
(٦٥) علي شلش: في عالم القصة، ص ٢٩، ط ١ . مطبوعات الشعب، القاهرة، ١٩٧٨ .
(٦٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن ص ٣٣٤-٣٣٥.
(٦٧) د. عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم، ص ١٥٨، ط١، دار مصر للطباعة . القاهرة، ١٩٥٦
وانظر كذلك د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن ص ٢٣١، دار الشروق ط٢، القاهرة ١٩٧٦ .
(٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٥ – ٢٤٨.
(٦٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠ .
(٧٠) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠.
(٧١) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٥٠ – ٣٥١.
(٧٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧١ .
(٧٣) ابن قيم الجوزية: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ١٦٩ .
وانظر: د. محمد حسن عبد الله: الحبّ في التراث العربي ص ٠١٢ عالم المعرفة (٣٦). الكويت سنة ١٩٨٠ .
(٧٤) المرجع السابق، ص ١٣ .
(٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٣.
(٧٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٤ .
(٧٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨٠ .

(٧٨) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥.
(٧٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨١.
(٨٠) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٤.
(٨١) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٣.
(٨٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجد الرابع، ص ١٩٨٣.
(٨٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٧.
(٨٤) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٥
(٨٥) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ١٣٩.
(٨٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٢٥ – ٣٢٦.
(٨٧) محمد قطب: منهج الفن الاسلامي، ص ١٥٧.
(٨٨) د. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص ٣٦، دار المعارف مصر، ١٩٧٠.
(٨٩) Encyclopedia Britannica . Vol. 21 P. 701 1956. Year
(٩٠) Charles chadwich: symbolism . P. 6 first publication Britain 1977.
(٩١) سيد قطب: في ظلال القرآن . ج ٣، ص ١٢٤٧.
(٩٢) د. فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص ٢٦٦ – ٢٦٧، منشأة المعارف . الاسكندرية، ١٩٧٦.
(٩٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣٨.
(٩٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ٩٩ و ١٠٩.
(٩٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٣، ص ١٢٤٧.
(٩٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤١، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥.
(٩٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ دار احياء الكتب العربية . القاهرة، ١٩٨٤.
(٩٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٥٠.
(٩٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩١٣.
(١٠٠) د . بكرى شيخ أمين: التعبير الفنى في القرآن، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .
(١٠١) د . السيد تقى الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٠ .
(١٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩، وراجع قصة مولد موسى في سورة القصص، آيات ٣ –١٢ .
(١٠٣) راجع القصة في سورة الكهف: الآيات ٥٩ – ٨١ .

(١٠٤) سيد قطب التصوير الفني في القرآن: ص ١٥٠ -١٥٣ .

(١٠٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٦٦ - ٣٦٦٧ .

(١٠٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٤٢ وانظر أيضا: التصوير الفني في القرآن ص ١٥٤ .

(١٠٧) انظر سورة الأحقاف: آية ١٥ .

(١٠٨) انظر سورة الإسراء: آية ٧٨ .

(١٠٩) انظر سورة البقرة: آية ١٨٥، وآية ١٩٧ .

(١١٠) انظر سورة القصص: آية ٧٨ .

(١١١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٢ -١٤ .

(١١٢) راجع سورة يونس آية ٦، وسورة الفرقان آية ٦٢، وسورة لقمان آية ٢٩، وسورة المؤمنون آية ٨٠ .

(١١٣) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ٥٦ -٧٥ .

(١١٤) د . عبد الصبور شاهين: الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية، ص ١٥، مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، العدد ١٠ - السنة ٤٥، ١٩٨٧ م .

(١١٥) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الاسلام، ص ٦٥ .

(١١٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٤٤١ .

(١١٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٥٩ .

(١١٨) د . عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . عالم الفكر، ص ١٥ -١٦ .

(١١٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٠.

(١٢٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ١٦ -١٧ .

(١٢١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦١.

(١٢٢)سيد قطب: ظلال القرآن، المجلد الأول، ص٨٠.

(١٢٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٨٠ .

(١٢٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٧، ١٨ .

(١٢٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩٠ . لبنان ط٢، ١٩٨٣ .

(١٢٦) سورة الإسراء: آية ١ .

(١٢٧) راجع القصة في سورة هود.

(١٢٨) راجع القصة في سورة المؤمنون.

(١٢٩) سورة مريم: آية ٥٦، وسورة الأنبياء ؛ آية ٨٥.

(١٣٠) سورة الأنبياء: آية ٨٥.

(١٣١) سورة الدخان: آية ٣٧، وسورة ق ؛ آية ١٤ .

(١٣٢) سورة الفرقان: آية ٣٨؛ وسورة ق آية ١٢.

(١٣٣) راجع القصة في سورة يس: آيات ٢٠ إلى ٢٩.

(١٣٤) راجع سورة التوبة: آية ١٢٠، والأحزاب: آية ١٣.

(١٣٥) راجع سورة آل عمران: آية ١٢٣؛ والانفال: آية ٣٤.

(١٣٦) راجع سورة التوبة: آية ٢٥.

(١٣٧) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، ص ١٩.

(١٣٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٩-٢٠.

(١٣٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٢٧٧.

(١٤٠) أبـو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي: تفسير القرطبي. الجامع لأحكام القرآن، جـ٦، ص ٤٠٧٢. كتاب الشعب. القاهرة.

(١٤١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر،ص٢١.

(١٤٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الأول، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(١٤٣) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(١٤٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٦٤.

(١٤٥) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢١.

(١٤٦) د. فؤاد علي رضا: من علوم القرآن، ص ١٩١.

(١٤٧) د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٠.

(١٤٨) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦.

(١٤٩) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٠.

(١٥٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ. مجلة عالم الفكر، ص ٣٠-٣١.

(١٥١) د. محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث: ص ٥٣٠، ٥٣٣.

(١٥٢) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢.

(١٥٣) د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٤-٣٦٦.

(١٥٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ١٦٤-١٦٥.

(١٥٥)المرجع السابق. ص ١٦٥-١٦٦.

(١٥٦)د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦١، ٣٦٩.

(١٥٧) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(١٥٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٦-٣٧.

(١٥٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦-٦٧.

(١٦٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ٣٧.

(١٦١) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص ٥٥، دار نهضة مصر، القاهرة.

(١٦٢)د. علي عبد الواحد وافي: المرأة في الإسلام، ص ٣٩، دار نهضة مصر ط٢، القاهرة، ١٩٧٩.

(١٦٣) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٤٧، مكتبة الانجلو، ط٤، القاهرة، ١٩٧٢. حيق يقول: " إن المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص، وهي الأمور التي يبحث عنها، وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة، ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات.

(١٦٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٠-٤٠١.

(١٦٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩١.

(١٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٠.

(١٦٧) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩.

(١٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠١.

(١٦٩)سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٢١.

(١٧٠) ورد اسم " مريم" في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٦٥. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر. ط٢، القاهرة ١٩٨١.

(١٧١) محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٣٧٨.

(١٧٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٢.

(١٧٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص٧١.

(١٧٤) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣و ٤.

(١٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢١٥ -٢١٦.

(١٧٦) والخوض في الطريقة التي جرى بها الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يجدي. وقد استشكل بعض المفسرين ولا سيما علماء الكلام منهم خطاب الرب سبحانه وتعالى للشيطان في هذا التحاور الطويل، واختلفوا فيه: هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر؟ أم بغير واسطة وكيف؟ وهل يقتضي التكريم؟ وهل ما قصّه القرآن على لسان الهدهد تخييل أو تمثيل أو تعبير بلسان الحال؟ .. إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تفضي إلى التحكم، والإيمان يدعونا إلى التسليم بأن ما جاء في هذا الحوار حق، دون البحث في كيفيته.
انظر: د. التهامي نفرة . سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤١٤.

(١٧٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٣ و ٧٥.

(١٧٨) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٣.

(١٧٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص١١٩،١١٨، كتاب الهلال، عدد ٣٣٢، دار الهلال، القاهرة،١٩٧٨.

(١٨٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٦.

(١٨١) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ١٣٥.

(١٨٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

(١٨٣) سيد قطب: في ظلال القرآن. المجلد الخامس، ص ٢٥٩١.

(١٨٤)السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٨-٧٩.

(١٨٥)د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، بين النظرية والتطبيق، ص ٢٩٣، المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، الكتاب الرابع، القاهرة ١٩٧٠.

(١٨٦) د. محمود محمد عمارة: الدعوة من خلال القصة القرآنية، مجلة منبر الإسلام ص١٢، العدد ١١. المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨.

(١٨٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني: ص ٢٩٣ –٢٩٤.

(١٨٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٠.

(١٨٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ٨.

(١٩٠) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٩٦.

(١٩١) انظر سورة هود من ٢٥: ٨٤، وسورة الشعراء من ١٠٥: ١٨٠.

(١٩٢) محمد قطب: دراسات قرآنية ص ١٠٢ – ١٠٤، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٣.

(١٩٣) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١٠٩.

(١٩٤) انظر: السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن. ص ١٠٦.

(١٩٥) انظر: د. عبد الحليم محمود. في رحاب الأنبياء والرسل. كتاب اليوم. ص ١٠٩. العدد ٢٩٤. القاهرة ١٩٨٩.

(١٩٦) د. محمد محمد عمارة: أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية، منبر الإسلام (١١).ص ١٣.

(١٩٧) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١١٠ – ١١١.

(١٩٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٧.

(١٩٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٤٣ – ٥٤٧.

(٢٠٠) سورة يونس: ٧١ – ٧٢.

(٢٠١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١١٠ و ١١٨.

(٢٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٣١١.

(٢٠٣) د. محمود محمد عمارة:أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية. منبر الاسم ص ٧٢-٧٤. العدد (١١١).

(٢٠٤) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن الياني، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

(٢٠٥) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص١١١.

الخصائص اللغوية والأسلوبية

مقدمة:

يقول تعالى: " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا " (سورة النساء:٨٢). إن التناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً. ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها، ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها – بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه – ما يملك إدراكه، في محيط يتكيّف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .. ومن ثمّ فإن كل فرد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية، ومستطيع – عند التدبر وفق منهج مستقيم – أن يدرك من هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق ما تهيّئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه..

تتجلّى هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف " ابتداءً في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية .. ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثّر، القوّة والضعف، التحليق والهبوط.. إلى آخر الظواهر التي تتجلّى معها سمات البشر، وأخصّها سمة " التغيّر " أي الاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، يبدو ذلك في كلام البشر، واضحاً عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو أي كان في صناعته، التي يبدو فيها الوسم البشري واضحاً .. وهو التغيّر والاختلاف "[1].. والحقيقة أن النقد الحديث يقول إن " العمل الفني يطمح إلى الكمال، أي أنه في صورته المثالية كامل – ولكنه لا يرقى إلى هذه الصورة المثالية أبداً، فهو مرتبط بنقصان البشر، وما هو في الحقيقة إلا سجل مجد لمشاعر وأفكار أبعد ما تكون عن الكمال شكلاً ومضموناً، ويقول العماد الأصفهاني: " لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن ولو زِيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل . وهذا من

أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر" وحتى عندما يصل العمل إلى " الصورة النهائية" فإن ذلك لا يكون إيذاناً بالكمال أبداً، فالصورة المكتملة ليست كاملة لأنها تستند إلى معايير لا تفتأ تختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر .. ومن جمهور إلى جمهور في نفس الزمان والمكان" (٢).

هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات، والتناسق، هو الظاهرة الملحوظة في القرآن – ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي – " فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز – تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها – ولكن مستواه وأفقه، والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى – كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان – إنه يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل علي الصانع، يدل علي الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال، ولا تتوالى عليه الأحوال " (٣).

وإذا تأملنا القصة القرآنية والأسلوب الذي قُدّمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتّضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استنادا إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ " قصة " يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو: الإعلام بالنبأ " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (سورة الكهف:١٣)، أو تتبّع الأثر وتقصيّه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص:١١)، بل واعتماداً علي ما في عرضها من طرق فنية، " رغم أن شروط القصة بمعناها الاصطلاحي لا تنطبق عليها غالباً، لأنها إلى الأقصوصة أقرب، وذلك لقصرها، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان علي ذكر حلقة منها أو أكثر وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة، كما شاع ذلك في معظم القصص الفني "(٤). فالقصة القرآنية لا يقصد بها العمل الفني المجرد، بل هي مزيج من العمل الفني والعلمي والديني، كما هو شأن البيان القرآني جميعه، ومعني ذلك أن من يطلب فيها أحد تلك المقاصد لاشك أنه واجده فيها علي أرقى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في العمل الأدبي، كما أشار البيان القرآني نفسه إلى ذلك في قوله تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (سورة

يوسف: ٣) " فالقرآن لم يحدّد وجه الأحسنيّة .. أهو أحسن القصص بياناً وأسلوباً، أم أحسنه صدقاً فنياً، أم أحسنه صدقاً واقعياً، أم أحسنه عرضاً لوقائع التاريخ القديم، أم أحسنه وصولاً إلى متلقيه، أم أحسنه قياماً علي الحقائق ونأياً عن الخيال ؟ هو أحسن القصص في كل ذلك وغير ذلك كما قال عنه منزّله وموحيه جلّ وعلا "(١) ... وسنحاول فيما يلي أن نكشف عما نوفّق إليه من جوانب تلك الأحسنيّة في الخصائص اللغوية والأسلوبية.

أولاً: الخصائص اللغوية:

" القرآن هو ضمير الحياة العربية، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثم لا يدل عليها حين التعرّف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأنّ هذه الروح تحاول أن تفصح عن معاني النبوغ الفني في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تهيّج الإحساس بها في كل نفس، فيجزئ ذلك في البيان عنها، لأن الإحساس إنما هو اللغة النفسية الكاملة" (١) .

والقصص القرآني باب من أبواب البيان القرآني العظيم .. ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه.. ونحن إنما نبحث الإعجاز اللغوي في القصص القرآني، نبحث ما أنفرد به في نفسه علي وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره علي أي وجه من الوجوه، وبذلك يتركز بحثنا عند الخصائص اللغوية في القصص القرآني، من ناحية اللفظ والمعني.

" ومن أظهر الفروق بين أنواع الخصائص اللغوية في القصص القرآني، وبين هذه الأنواع في كلام الأدباء، أن نظم القصص القرآني يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبني هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تُبني هي عليه، فليس فيه من المذاهب الكلامية التي بُنيت عليها علوم البلاغة..

فالصور البلاغية في الإبداع القصصي القرآني، إنما هي وجه من نظم حروفه، بخلاف ما نجده في كلام الأدباء، فهذه الصور تصنع لموضعها وتبني عليه فربما

وقت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم قصصه ثم نزل غيرها في مكانها لرأينا النظم نفسه غير مختلف، وندرك بذلك مزية عظيمة في توازن حروفه، وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تُغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها ؛ وأنواع البلاغة فيه إنما هي من وجوه التأليف بين معاني الكلمات.. فالحرف الواحد في القصة القرآنية معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية و لآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته القصصية إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية"[1].

وبذلك يتضح لنا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل:

الحروف وأصواتها:

لما قُرئ القرآن علي العرب، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها[2]، فلم يفتهم هذا المعني، وإنه أمر لا قِبَلَ لهم به، وكان ذلك أبيَن في عجزهم، حتى أن من عارضه منهم " كمُسيلِمة "، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حسِبه نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوي عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولي للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحُروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع..

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنّة أو ليناً، أو شدّة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علي مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ؛ أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدّة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ؛ وحسبنا بهذا

اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقا في القرآن وقصصه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، ونحو ذلك مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقا...

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقا، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقا نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن [١]، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلي أن ذلك لا يكون أكثر ما نجد إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخري من النظم الموسيقا"[٢].

وبتطبيق هذا النظم الموسيقا العجيب علي سورة " مريم "، الذي يستغرق القصص نحو ثلثيها، نحسّ أن للصورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: " رضياً . سرياً . حفياً. نجياً، فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف، فتجئ فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب: مدّاً . ضدّا . إدّا. هـدّاً، أو زايا: عزّاً، أزّاً . وتنوّع الإيقاع الموسيقا والفاصلة بتنوّع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فتسير الفاصلة هكذا:

" ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادي ربه نداء خفياً... الخ"[٣] وتليها قصة مريم وعيسي فتسير الفاصلة علي النظام نفسه:

" واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ... إلخ "[٤] إلى أن ينتهي القصص، ويجئ التعقيب، لتقرير حقيقة " عيسي بن مريم " وللفصل في قضية

نبوته، فيختلف نظام الفواصل .. فتطول الفاصلة، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخيّة على النحو التالي:

" ذلك عيسي ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .. إلخ "[(١٣)].

وهكذا يتغيّر نظام الفاصلة فتطول، وتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مدّ طويل. وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، مستمداً منها. ولهجة الحكم تقتضي أسلوبا موسيقياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً، بدل إيقاع القصة الرخيّ المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغيير..

وبمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك التقرير وعاد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخيّة المديدة:

" واذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يابت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً.. إلخ "[(١٤)].

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغيّر الإيقاع الموسيقا، وجرس الفاصلة: " قل: من كان في الضللة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب، وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً .. إلخ "[(١٥)] وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

" وقالوا: اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ... الخ "[(١٦)].

" وهكذا يسير الإيقاع الموسيقا في السورة وفق المعني والجو، ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعني في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جوٍ إلى جو، ومن معنى إلى معنى"[(١٧)].

" إن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقا، وشحنة من المعنى المتمّم للآية . فالمعنى هو الذي يتحكم في نوع الفاصلة،

ثم يأتي النغم الموسيقا متمّماً للروعة التي يتميّز بها أسلوب القرآن"[18].

" وهذه هي طريقة الاستهداء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدّى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّقت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض"[19]

ومثال ذلك ما نجده في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (سورة الشعراء:٧٥-٨٢).

فقد خطفت ياء المتكلم في " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين "محافظة على حرف الفاصلة مع " تعبدون، والأقدمون، والدين ... " .

ومثله في قصة موسى والعبد الصالح: قال ذلك ما كنا نبغ . فارتدا علي ءآثارهما قصصاً" (سورة الكهف:٦٤)، فلو مددنا ياء نبغي كما هو القياس لا ختل الوزن نوعاً من الاختلال .. وأحياناً لا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية، ومع ذلك نلحظ الموسيقا الكامنة في التركيب، والتي تختل لو غيرنا نظامه مثل ما جاء في قصة زكريا: " ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" (سورة مريم:٢-٤) فلو حاولنا مثلاً أن نغيّر فقط وضع كلمة " مني " فنجعلها سابقة لكلمة " العظم ":

لأحسسنا بـما يـشبه الكـسر في الوزن الموسيقا، ذلك أنها تتوازن مع " إني" في صدر الآية هكذا: قال رب إني وهن العظم مني"...

" وهكـذا نلحـظ نـوعاً مـن الموسيقا الداخلية، يكمن في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة، وهو يُدرك بحاسة خفيّة، وهبة لدنيّة" (٣٠).

ثانياً: الكلمات وحروفها:

الكلمـة في الحقـيقة الوضـعية إنـما هي صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس، إمـا صـوت الـنفس: فهـو الـصوت الموسيقا الذي يكون من تأليف النغم بالحـروف ومخارجهـا وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متـساوقة وعـلى نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعنى قُطِع به...

إما صوت العقل: فهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكـلام، ومـن الوجـوه البيانية التي يداور بها المعنى، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى بها.

أمـا صـوت الحـس: فهـو أبلغهـن شـأنا، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبـداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، بما يسوقه إليها من طرائف المعاني..

وإذا ذهبنا نبحث في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغـات جـميعاً، وهي في كل لغة تُعدّ أصلاً في بلاغتها، لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي:

- الاقتصاد في التأثير على الحسّ النفسي:

ونلاحـظ ذلـك في كلـمات القـصص القـرآني، فهـي لا تُسْرف على النفس، ولا تـستفرغ مجهودها، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه " (٣١)، ولذلك نجد الكلمات في القصص القرآني، تتميز بمميزات منها:

١ـ جمال وقعها في السمع (٢٢):

ويـرجع ذلك إلى دقة القرآن في استخدامه للألفاظ وحسن اختيارها في مواقعها. فقـد جـاء عـلي لسان السحرة الذين آمنوا بموسى على الرغم مما أوْعدهم به فرعون من عقابٍ شديد: " رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا"(سورة الأعراف: ١٢٦).

فـإن مـا يثيره لفظ " أفرغ " وما يوحي به من لين ورفق وطمأنينة يحسها من هدأ جـسمه بما يلقي عليه. وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية التي ينالها من منح الـصبر الجميل، فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ " صبّ " فقال: " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " (سورة الفجر: ١٣). وهي مؤذنة بالشدة والقوة معاً...

" وهكـذا فـإن للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس، كما أن لجرسها إيقاعاً في الأذن.. والكلـمات في التعبير، كالألوان في الرسوم، والأنغام في الموسيقا، ويكفي أن نقـرأ مـا ورد في قـصة " زكـريا " مـن دعـاء، وتميّـزه بإيقاعـه الغنائي ؛ ودعاء " إبراهيم " وأصوات ألفاظه المتقطعة المتهدجة، ودعاء " نوح " المجلجل المديد، فهي كلها في سموها وحرارتها كأنها أناشيد السماء"[٢٣].

٢ـ " اتساقها الكامل مع المعنى " (٢٤):

أ – العلاقة بين الآية وفكرتها:

حـيث نلحـظ الانـسجام بـين الفكـرة التـي تحملهـا الآيـة، والخاتمة التي تنتهي بالفاصـلة، ولنقرأ قوله تعالى مثلاً علي لسان عيسي عليه السلام عندما يسأله ربّه يوم القـيامة: " أَأَنـتَ قُلـتَ لِلـنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّـيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ "، فيجيب فيما يجـيب: " إِن تُعَـذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (سورة المائدة: ١١٦-١١٨).

فقـد نتـساءل عندما نقرأ هذه الآية: لماذا لم تنته بقوله مثلاً: " وإن تغفر لهم فإنك أنـت الغفـور الـرحيم "، مـع أن الـسياق يُوحـي بالغفـران؟ ولكننا إذا أمعنّا النظر وجـدنا أن الـذي اسـتحقّ العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلي

السلطات، وقوته أعظم القوي، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهوّر، وإذا جاءت الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة، فلأن القادر علي العقاب عزيز دائماً ... ولكن ليس كل عزيز عادلاً. فكم من ملوك وحكام ومن بينهم سلطان علي الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة، إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم، ولذلك نجد أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم "[٢٥].

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة .

ب- " ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه "[٢٦]:

" أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه ووضعها في الأماكن اللائقة بها، بحيث تكون مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخري لا تستطيع توفيق المعني الذي وفق به أختها، فكل لفظة من إفراد القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعني أقوي أداء . ولذلك لا نجد فيه ترادفاً، بل كل كلمة تحمل معنى جديداً، ولها في النفس إيحاءات خاصة، ولذا دعا القرآن إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر "[٢٧]: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا" (سورة الحجرات:١٤) .ولذلك لا يجوز القول بوقوع الترادف في لغة القرآن لأنّه كلام فصّلت عباراته وأحكمت ألفاظه ووضع كل حرف فيه بإتقان بديع، ولذا وجب علينا في دراستنا للغة القصص القرآني أن نتتبع ألفاظه لنبرز ما بينها من فروق دقيقة ودلالات مميزة:

- كل ... وأجمع: في قصة الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له:

" فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ" (سورة الحجر: ٣٠، سورة ص:٧٣).

وقال الخليل وسيبويه: إن مجيئها في الآية علي هذا النحو لإفادة التأكيد بعد التأكيد . وهذا الكلام صحيح من وجهة النظر النحوية، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد فيقال فيهما " توكيد بعد توكيد " وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة .. فلفظ " كل " في صوره المختلفة يدل علي الإحاطة والشمول، أما لفظ " أجمع " فيدل علي الضم والاجتماع . فيكون الأول تأكيداً لمعني الوحدة في الفاعل . والثاني تأكيداً لمعني الوحدة في الفعل .. ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود وهيئته ليدل بالأول (كلهم) علي عموم الامتثال، وبالثاني (أجمعون) علي سرعة الاستجابة ... وبهذا يكون التأكيد بـ (كل) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ (أجمع) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل ..

وقد سئل " المبرد " عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال: " فسجد الملائكة " احتمل أن يكون سجد بعضهم . فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا . ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كلهم وأحد منهم في وقت آخر . فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة [٢٨].

وتتجلي هذه الدقة أيضاً في قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام:

" إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة الحجر: ٥٩).

فقد ذكر لفظ أجمعين دون أن يأتي معه بلفظ كل . لأن المقام مقام إحاطة وشمول في هيئة الفعل وحركة الزمن لأن النجاة تحققت للناجين من آله في لحظة واحدة، هي نفس اللحظة التي تحقق فيها الهلاك بالصيحة علي المجرمين من قومه . ولم يقل (كلهم) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من الآل بدليل قوله (إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) (سورة الحجر: ٦٠). ولو قال (إنا لمنجوهم كلهم) لكان ذلك منافياً للاستثناء [٢٩].

ـ الزوج ... والبعل

فالـزوج يـدل عـلي ربـاط الثنائـية بين قرينين فإذا انفك هذا الرباط انتفت صفة الزوجية فيهما .. وأما لفظ " البعل " فيفيد معني الفحولة في المعاشرة الزوجية..

وفي إطـار هـذه الفـروق الدقـيقة جاء اللفظان في مواضعهما من القرآن الكريم، ويخـصّنا هـنا ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٢).

فالموقـف موقـف دهشة واستغراب، فقد بشّر الملائكة إبراهيم بالولد وهو شيخ كبـير وامرأته عجوز عقيم، فلما سمعت استغربت الخبر وعبرت عن موضع الغرابة فـيه بقـولها (أَأَلِـدُ وَأَنَـاْ عَجُـوزٌ وَهَــذَا بَعْلِي شَيْخًا). وهي محقّة حين تبني قولها علي معهـود الحـياة في اسـتعدادات الطبـيعة البـشرية التـي يقتضي التناسل فيها خصوبة الشباب في الأم وبعولة الشباب في الزوج..

وهـذا مـن ألطـف الإشـارات في إفهـام القصد، ولو قالت (وزوجي شيخاً) لم يـتحقق لهـا ذلـك، فـإن الـشيخوخة لا تتـنافي مـع الزوجية ولا تكون مبعث إنكار واسـتغراب .. ويـؤكد هذا المعني قولها " شيخاً " بالنصب فهي لم ترد الإخبار وإلا لقالـت " بعـلي شيخ " ولكنها أرادت اظهار الحال التي عليها بعلها من الشيخوخة التـي تحول دون تحقق البعولة فيه .. وقد اعتبر " الواحدي " ذلك من لطائف النحو وقـال إنه قائم مقام قولها: أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ... والمقصود تعريف هذه الحال المخصوصة وهي الشيخوخة ..[٣٠].

ـ السنة ... والعام:

فقد اختلف التعبير بهما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام:" قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ " (سورة يوسف: ٤٧-٤٩).

وهـذه المخالفـة في التعبـير تلفـت النظر وتشد الانتباه، فظاهر السياق يقتضي أن يـتوافق التعبـير ويطـرد اللفظ ليوائم نسق العبارات، والخروج علي هذا النسق يدل علي أن وراءه حكمة بيان وإحكام معني:

أولاً: السنة:

ويوحـي جرسـها في اللغـة بمعـناها، وهـو معنـي يـدور حـول الحدة والقطع، والـضمور والجفـاف.. وجـاء بهـذا المعنـي في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " (سورة الأعراف: ١٣٠). أي الشدة والقحط .

ثانياً: العام:

وهـو مـن العوم بمعني السباحة والانتشار، ودلالته دلالة خير ورخاء إذاً فالعام زمن مخصوص بالخير موصوف بالرخاء.

وفي ضـوء هـذا تتكشف بعض جوانب السرّ في اختلافها في لغة القرآن فقد جاء لفظ السنين في قوله: " تزرعون سبع سنين دأبا" وقوله: " ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد" . أي سبع سنين، لأن المقام مقام شدة ومعاناة وتقتير في الأوقات وتضييق في الأرزاق يـدلّ علـيه الـسياق ويـصرّح بـه المقـال، ويحمـل علـيه حسن التدبّر لنسق العـبارات: " تـزرعون .. دأبـا فـما حـصدتم فذروه .. إلا قليلاً مما تأكلون .. شداد يـأكلن مـا قدمـتم لهـن إلا قلـيلاً مما تحصنون " . وهي عبارات تصور واقع المعاناة، وتكشف عن الجدب العام والقحط الطويل.

أمـا لفـظ العـام فقـد جاء في قوله: " ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفـيه يعـصرون " . لأنـه مقـام الفـرج بعد الضيق، والرخاء بعد الشدة، والخصب العميم بعد الجدب والجفاف..

" وبهـذا يتبـين لـنا أن المخالفـة بـين لفظيهما مخالفة بيان واختلاف مقام لامخالفة ترادف واختلاف تنويع في العبارات " [٣١]

ومثل هذا، اختلاف التعبير بهما في قصة نوح، في الآية الكريمة:

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا "(سورة العنكبوت: ١٤). وكان مقتضى التناسب البلاغي في السياق يتطلب المطابقة بينهما في أسلوب الاستثناء، فيقال (ألف سنة إلا خمسين سنة) .. وإنما خالف بينهما على هذا النحو، للدلالة على أنهما زمانان متغايران وأن أيام لبثه عليه السلام في دعوة قومه كانت أيام معاناة ومشقة وجهاد، لاقى فيها أشدّ ألوان العنت والمخاصمة مما جعله يشكو إلى الله إصرارهم على الكفر، وعنادهم لدعوة الحق ويستصرخه: " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (نوح: ٥-٧).

" قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا " (سورة نوح: ٢١-٢٢).

ولما اشتد عنتهم وزاد ضلالهم قال: " وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (سورة نوح: ٢٦) . مما يدل على أن أيامه معهم كانت سنين مشقة لا أعوام راحة ورخاء، ثم جاء الطوفان فاقتلع جذور الكفر وطهر وجه الأرض وعمّ السلام والأمان والرخاء فعاش عليه السلام أيامًا هي أعوام رخاء ووئام [٣٢].

- أكل ... وافترس

يقول " الخطابي " في تفسيره لقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ " سورة يوسف من آية ١٣.

وأن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، أصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظيما، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق يشهد على صحة ما ذكروه، فادّعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبّر عنه إلا بالأكل [٣٣].

- **البث ... والحزن**

فقد جاء في قصة يوسف لفظ البث معطوفًا على الحزن، في قوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ " (سورة يوسف:٨٦). ولدقة الفرق بينهما عدّهما كثير من العلماء من المترادف الذي يختلف لفظه ويتحد معناه .

وأصل البثّ في اللغة: التفريق والانتشار [٣٠]، ومنه في القرآن الكريم:

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا " (سورة الواقعة: ٥-٦).

" يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " (سورة القارعة:٤)

فالبثّ: الهمّ الشديد سمّي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمّله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتمانه فيبثّه الناس، ويتخفّف إليهم منه .

أما " الحزن": فأصله في اللغة الغلظ والخشونة، ومنه قيل للأرض الغليظة الصلبة حزن [٣٥]، فالحزن: الهم الذي يسيطر على صاحبه ويستولي عليه الأيام والليالي حتى يعجز عن معالجته ونسيانه، وسمّي بذلك لغلظه وتأبيه على السلوان .. وهو معنى في الهمّ غير معنى البث، وعطفه في الآية عطف تغاير لا عطف ترادف .. والقصد من ذكرهما معا الجمع بين نوعى الهم للدالة على أن " يعقوب " عليه السلام إنما يفزع إلى الله وحده في كل أحواله ويشكو له وحده أنواع همومه: الحزن القديم الذي تسلط واشتد وازداد مع الأيام صلابة وغلظاً، لا يلين مع الزمن ولا ينقاد للنسيان، والبث الجديد الذي نما وتزايد حتى ملأ الصدر على رحابته وضاق به الصبر على سعته، فلم يجد له حيلة ولم يستطع له علاجاً إلا أن يبثه إلى الله ويستعين به عليه [٣٦]

- **الخشية ... والخوف**

يقول " الزركشي ": لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولاشك أن الخشية أعلى من الخوف، وهى أشد الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية إذا كانت يابسة

وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء، إذا كان بها نقص وليس بفوات .. وفُرِق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيرًا، ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، قالوا: شيخ للسيد الكبير، والخيش لما عظم من الكتان، والخاء والواو والفاء في تقاليبها تدل على الضعف"[٣]

و" لأبى هلال " رأى في الفرق بين الكلمتين يذهب فيه إلى أن الخوف: يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمّى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال تعالى: " وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ " (الرعد: ٢١) .. وقال تعالى على لسان " هارون " عليه السلام:" إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (طه: ٩٤)، وذلك لأنه خشى القول المؤدى إلى الفرقة، والمؤدى إلى الشيء بمنزلة من يفعله[٥].

إذاً فالخوف في رأى " أبى هلال "، إنما يكون مع التوقع والترقب في موقف مجهول النتائج ظنّي الاحتمالات، وعليه تكون الخشية خاصة بالحالة التي تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود، أي أن الخوف: شعور يتعلق بالضرر المنتظر، والخشية: حالة تنشأ عند وقوع الضرر المنظور .

وهذا الذي أشار إليه " أبو هلال " في معنى الخوف أشار إليه الراغب في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء " (سورة فاطر: ٢٨) . فقال: عبر بالخشية في جانب العلماء لتيقنهم بعظمة الله وعلمهم بجلاله، ومثله: " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ "(سورة ق: ٣٣) أي خاف خوف المتيقن العالم[٦] .

وهذه الملاحظات الدقيقة في الفرق بين دلالتيهما معتبرة في الآيات التي تعرضت لذكرهما في القصص الآتية:

أ- قصة " موسى وعبوره البحر ": في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى " (طه: ٧٧).

ففي جانب توقع الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال له:(لاتخاف) بشارة له بالأمان والنجاة وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه، وليشعره بأن أمر فرعون هيّن وخطره ضعيف ..

وفي جانب خطر الغرق قال (ولاتخشى) لأن الشعور بالخطر عند قوم يسيرون وسط الماء أمر عظيم ونخطر ومتيقن منظور، فكان التعبير بقوله (ولاتخشى) تعبيراً مناسباً ليقتلع كل مظاهر الخوف من نفوسهم، ولذا حذف المخشى لتذهب النفس فيه كل مذهب، فلا يترك له مصدراً يخشاه ..

ب- وقوله تعالى في قصة " يوسف ": " وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (سورة يوسف:١٣).، حيث عبر بالخوف دون الخشية ليفيد أن ذلك إنما كان منه على سبيل التوقع والشك لا على سبيل التيقن والجزم .

جـ- وقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح ":" وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا " (الكهف: ٨٠).

عبّر بالخشيّة دون الخوف ليفيد أن ذلك إنما كان من العبد الصالح على أساسٍ من علمٍ ويقينٍ لأن قتل النفس لا يقع لمجرد خوف من خطر ضعيف مظنون(١٠).

- **الحيّة .. والجان ... والثعبان**

فقد وصف القرآن بها عصا موسى عليه السلام في مقامات مختلفة .. وملحظ التدبير أن المشبه فيها شيء واحد والمشبه به شيء واحد كذلك، اختلفت أسماؤه اختلاف ترادف لا اختلاف تباين .. وبدهي أن هذا الاختلاف يتوافق مع الاختلاف في جهة الإلحاق المرادة في ملمح التشبيه ..

فالحية: اسم لما عظم من الأفاعي، واشتقاقه من الحياة أو من التحوّي بمعنى التجمع والتلوى، ومنه سميت المعىّ حوايا لتجمعها والتوائها .. وقد شبّهت عصا موسى بالحية لاكتساب هذه المعاني في قوله تعالى:" وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " (طه:١٧ - ٢٠).

فهـذه هـي الحالـة الأولى التـي يتعرف موسى عليه السـلام على مظهر المعجزة في عـصاه، وقد أراد الله أن يطلعه على هذا السرّ ليكون على خبر منه، فهي ليست عصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وإنما هي معجزة رسالة وبرهان رسول، فقد كانت في يمينه عـصا جافـة ميتة فإذا هي تتحول بقدرة الإعجاز إلى حياة تتحركـ ومخلوق يسعى ..

" وإذا تدبّرنا لفظ " حية " أوحى لنا بالمقابلة المستورة بينها وبين كلمة " عصا " وهى مقابلة تقوم برهاناً على الإعجاز حين تصور لنا مظاهر الموت في العصا مشاهد حياة تتحركـ وتسعى .. وبهذا يكون لفظ " حية " أصدق الأسماء الثلاثة تعبيراً عن معناه في مقام السياق "(١) .

أمـا لفـظ " جـان "، فقـد جاء يلائم مقامه في قوله تعالى: " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا " (النمل: ١٠ ؛ القصص: ٣١).

إن الجـان اسـم لمـا دقّ مـن الأفاعـي وخف، وهو في تصاريفه يدور حول معاني الخفـة والرشـاقة المصحوبة بالعجب والخيلاء (٢)، ولهذا جاء مناسباً لكلمة " تهتز " في التـشبيه ليعطـى التـصور الدقيق لحركة العصا حين تحولت إلى أفعى دقيق الجسم خفيف الحركة يتراقص في استعراض للرشاقة يأخذ بالألباب (٣).

ثـم يأتـى لفظ " ثعبان " في موضعه من قوله تعالى: " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِـينٌ " (سـورة الأعراف: ١٠٧ ؛ الشعراء: ٣٢). وهو لفظ يدل على تفجّر الحركة وسرعـة انسيابها وأصله من ثعب الماء إذا تفجر وانساب، وهو أيضاً يدل على معنى الـضخامة والفخامـة، ومـنه قـيل: الأثعـبان للـوجه الـضخم، وبـه سُـمّي الثعبان لضخامته .

فلفـظ " ثعـبان " بدلالـته على هذه المعاني أنسب الأسماء الثلاثة بالبيان في المقام الـذي جـاء فـيه، وهـو مقام تحدٍّ ونزال جمع فيه فرعون الأجناد، وحشد له السحرة والحـواة فـسحروا أعـين الـناس واسـترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وقال لموسى مـتحديا: إن كـنت جـئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه

فتحولت إلى ثعبان ضخم مهول ينساب في حركة سريعة وانقضاض خاطف فليلقف ما يأفكون، وبهذا تصدق الآية وتحقق المعجزة ويقول السحرة آمنّا بربّ العالمين .

فالموقف على هذا النحو من التأزّم والشدة لا يناسبه إلا أن تكون العصا على هيئة الثعبان ضخامة منظر، وسرعة انقضاض وقوة افتراس ليتحقّق جوّ الرعب والرهبة فتكون الغلبة ويتأكد العجز "".

وهكذا يكون كل واحد من الأسماء الثلاثة قد جاء تعبيراً دقيقا يصور حالة خاصة في مقام خاص ولو أن واحداً من هذه الأسماء الثلاثة جاء في موضع صاحبه لاختل هذا التناسب المحكم البديع .

وهكذا يتأكّد لنا من هذا البيان الواضح من لغة القصص القرآني بما لا يدع مجالاً للشك أن لغة القرآن لا تقرّ الترادف بمعناه العام، وإنما تحتفظ لكل لفظة منه بمقامها الخاص ومعناها المميز، الأمر الذي يجعل من ألفاظه مهما ترادفت وتقاربت ذوات مستقلة لاتتماثل ولاتتكرّر ولاتتبادل مواضعها في الدلالة أو السياق .

جـ - مشاكلة اللفظ للمعنى:

من الأسرار التي استدعت انتباه الباحثين ما اصطلح على تسميته بمشاكلة اللفظ للمعنى، فالمعنى إذا كان جزلاً كان اللفظ كذلك وإن كان " الزركشي " في البرهان يعكس القضية حين يقول:" ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك " ""... والأمثلة التي توضح لنا هذه المشاكلة كثيرة، وسنعرض منها ما هو خاص بالقصة القرآنية:

١ - يقول الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام:" إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ " (آل عمران: ٥٩). ولم يقل من " طين" كما أخبر به سبحانه في غير موضع:" إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ " (سورة ص: ٧١) .إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى

لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثفهما، لمّا كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية أتى بها يصغر أمر خلقه عند من ادّعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس في المعنى من غيره من العناصر، ولمّا أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه، إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى: " وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء " (سورة النور:٤٥). فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر، لأنه أتى بصيغة الاستغراق، وليس في العناصر الأربع، ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها ..

٢ – قوله تعالى في قصة يوسف: " قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " (يوسف: ٨٥).. لقد نقلت الآية مواقف غريبة، وقفها أبناء يعقوب من أبيهم وأخويهم، فقد ألقوا " يوسف " في الجب وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب، وجاءوا أباهم عشاء يبكون، وكذبوا على أبيهم، ونالوا منه، واتّهموا أخاهم بالسرقة، وجاءوا أباهم يزفون إليه خبر اتّهامه مستشهدين بأهل القرية، فسكت الأب على ألم ومضض، وتولّى عنهم وتذكّر يوسف وتأسّف عليه، وبكى حتى فقد بصره .. وقد حملت الآية هذه الغرابة من جهات كثيرة:

أ- فـ "تـاء" القسم أغرب أدوات القسم وهى لا تجئ إلا في المواقع الغريبة على عكس الواو والباء .

ب-و" كان " أكثر استعمالاً من " فتئ "، وفتئ لا تستعمل بدون " ما " وجيئها بدونها غريب أيضاً

جـ- – وقد أتت الآية بأغرب ألفاظ الهلاك، وهو " الحَرَض ".. فمواقف بني إسرائيل الغريبة حملتها الألفاظ التي جاءت غريبة من حيث مجيء القسم بالتاء دون الواو والباء، ومجيء " فتئ " دون " كان " واستعمالها بدون " ما "، وكذلك التعبير " بالحَرَض " دون الهلاك (١)

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظه غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس..

٣ – ومن الألفاظ التي لم يستخدمها القرآن لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة، وسائرها نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نَظْم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمد) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بألطف عبارة وأرقها وأعذبها. وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح، وذلك في قوله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " (سورة القصص: ٣٨).. فلننظر هل نجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا ؟ لننظر ونتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله:" فأوقد لى ياهامان على الطين " ولننظر موقع هذه القلقلة التي هى في الدال من قوله (فأوقد) وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبّر عن حسنه، وكأنها تنتزع النفس انتزاعا..

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجازاً آخر، فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سُلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين [٧] .

٤ – وما يشذ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز، حتى أننا لو تدبرنا الآيات التي لا نقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهى بالطبع فطنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإننا نرى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه

ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيها ليس فيه شيء، ولنتأمل قوله تعالى في قصة " ضربات مصر ":" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ " (سورة الأعراف:١٣٣).

فإنها خمسة أسماء، أخفّها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمّل والضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفّتها، ثمّ (الجراد) وفيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفها في اللسان وأبعدها في الصوت لمكان تلك الغنّة فيه، ثم جئ بلفظة (الدم) آخراً، وهى أخفّ الخمسة وأقلّها حروفاً، ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتمّ بها هذا الإعجاز في التركيب " (٤٥).

٥ – ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها وموقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو مايجرى مجرى الحشو والاعتراض، ومن الكلمات التي يقول النحاة أنها زائدة قوله تعالى في قصة يوسف:" فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " (سورة يوسف:٩٦) ، فإن النحاة يقولون إنها " أن " زائدة، أى في الأعراب، فيظن أنها كذلك في النظم ويقاس عليها، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد هو تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه، لَبَعُد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما، وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهى " أن " في قوله: " أن جاء " (٤٦) .

ومنه:" مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ " (سورة الأعراف:١٢)، بدليل الآية الأخرى: " مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ " (سورة ص: ٧٥)، ليس المعنى: ما منعك من ترك السجود ؟ فإنه ترك، فلا يستقيم التوبيخ عليه .. وقيل: ليست بزائدة من وجهين:

أحـدهما: أن التقديـر مـا دعـاك إلى ألا تـسجد ؟ لأن الصارف عن الشيء داعٍ إلى تركه، فيشتركان في كونهما من أسباب عدم الفعل.

الثاني: أن التقدير ما منعك من ألا تسجد .

وهـذا أقـرب ممـا قـبله، لأن إبقاء المنع على أصله، وعدم زيادتها أولى لأن حذف حـرف الجر مع " أن" كثير كثرة لاتصل إلى المجاز، والزيادة في درجتها .. بالإضافة إلى أن في زيادتها تأكيد الإثبات، فإن وضع " لا" نفي ما دخلت عليه، فهي معارضة للإثـبات، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض ؛ أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط (١٠)

بهـذا الـذي قدمنا ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقصِ في أمثلته لأنه أمر مطرد – بالإضافة إلى ما لم نُحط به خُبرا- نعرف أن القرآن على العموم – والقصص فيه على الخـصوص – أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع .. فكل كلمة منه ما دامت في موضـعها فهـي من بعض إعجازه، ومن هنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث:

ثالثاً: الجمل وتركيبها:

الجملـة هـي مظهـر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يُحيل بها الإنـسان هـذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصوّرها في نفسه أو يصفها؛ تري الـنفس هـذه المـادة وتحـسّها . عـلي حـين قـد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضـاً، ولكنه بالكلام كأنه يراها.. هذا من ناحية التأليف عند البشر، أما في القرآن عندما ننظر إلى جملته القصصية من جهة تركيبها، نجد أنه انتظم أسباب الإعجاز من الـصوت في الحـرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقـدراً عـلي تـركيب الحـواس النفـسية في الإنـسان تقديـراً يطابـق وضعها وقواها وتـصرفها، وذلـك إيجـاد خلقـي لا قِـبَل للناس به ولم يتهيأ، إلا في هذه العربية عن طـريقة المعجـزة التـي لا تكـون معجزة حتى تخرق العادة، وتفوت المألوف وتعجز الطـوق، وإنـما امتـنع أن يكـون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو

الذي يأخذه فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته .. وروح التركيب هذه، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نَظْمه وخرج مما يطيقه الناس ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نَظْم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النَظْم: فمن ههنا تعلّق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هى صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب "[١] . كالمواعظ والحكم والتعليم، وضرب الأمثال، هذا غير القصص القرآني الذي لاتخلو قصة من قصصه إلا وضمير الجلالة للمتكلم يحرسها ويحميها من فطنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه .

" وإذا كان علماء المعانى يجعلون البلاغة درجات فإنهم مقرّون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز عينه" [٢]... حقيقة أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم.. إذاً لا يحق القول إن القرآن جاء بالاستعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه، وارتباط معانيه علي وجوه السياستين من البيان والمنطق، فجري علي أصولها في أرقي ما تبلغه الفطرة اللغوية علي إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوّز حيث يتجوّز، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرّر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء، فما البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التنبيه إليه، فهى تعطى القدرة على النظر والفهم ولكنها لا تعطى بمقدار ذلك في العمل والصنعة، ولذلك سوف نُجمل تفصيلاً أو نشير إلى بعض الوجوه المعجزة في لغة القصة القرآنية من الناحية البلاغية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجاد

بعضه، ويفصح عن بعضه، إنما هو وحي بمعانيه وألفاظه، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني، ولابد أن يكون فائدة للناس كافة ليعملوا، وصادقا على الناس كافة ليستفيدوا، ومعجزاً للناس كافة ليصدّقوا"[٥٢].

الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية:

١ – الإجمال:

وله وجهاته الكثيرة في تركيب الجملة منها:

أ – أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب، كقوله تعالى في قصة موسى: " وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً" (سورة القصص:٢٣). بمعنى الجماعة ، وفي قوله عن إبراهيم عليه السلام: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً " (سورة النحل ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به.وبمعنى الدين في قوله تعالى:" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ "(الزخرف: ٢٢).وبمعنى الزمان في قوله تعالى: " وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ "(يوسف: ٤٥).

ب – حذف في الكلام: كقوله تعالى في قصة قوم صالح: " وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً " (سورة الإسراء:٥٩)، أي آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء . .

جـ– من جهة عدم استعماله الآن: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: " فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" (سورة الكهف:٤٢) اى نادما.

د– من جهة التقديم والتأخير: كقوله تعالى في قصة إبراهيم: " حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ " (سورة الممتحنة:٤)، معناه " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم ".. وهناك ما قدم والنية به التأخير مثل قوله تعالى في قصة: إبراهيم والملائكة: " فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٠-٧٢) . وكان لهذا التقديم وجهان:

أحدهما: يعتمد علي التفسير اللغوي وهو: ضحكت المرأة. حاضت وقد اعتمد البعض عليه في تفسير الآية. وقيل أصله: فبشرناها بإسحاق فضحكت: أي حاضت بعد الكبر عند البشري، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة [٤٤].

والثاني: يعتمد علي التفسير النفسي: فقد روى " الأزهري " عن " الفراء" في تفسير هذه الآية: لما قال رسل الله عز وجل لعبده وخليله إبراهيم: لا تخف، ضحكت عند ذلك امرأته: وكانت قائمة عليهم، وهو قاعد، ضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق، وإنما ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كما خاف إبراهيم [٤٥]

ويقول الأستاذ العقاد: هنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار، فتعجب . لا تملك سارة أن تجهر به. فتقول: إن هذا لشيء عجيب ...

ويقول إن كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم – تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحوّل الشعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والغراء والغيرة والتسليم .. ولا تغني هنا كلمة " سرّت "، أو " كلمة " استبشرت " أو " فرحت "، في مكان كلمة " ضحكت " . فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات [٤٦]

٢ – تنوع أسلوب الخطاب: ويأتي على أوجه كثيرة منها:

أ – خطاب النوع: نحو " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (سورة البقرة: ٤٠)، والمراد " أبناء يعقوب " من الكتابيين ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا، دون " يابني يعقوب ". وسرّه أن القوم لما خُوطبوا بعبادة الله، وذُكّروا بدين أسلافهم، موعظة لهم وتنبيهاً من

غفلتهم، سُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن " إسرائيل " اسم مضاف إلى الله سبحانه في التأويل، ولهذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم قوماً إلى الإسلام يقال لهم: " بنو عبدالله "، قال: " يا بني عبدالله "، إن الله قد حسّن اسم أبيكم " يحرّضهم بذلك على ما يقتضيه اسمه من العبودية . ولما ذكر موهبته وتبشيره به قال: " يعقوب "، وكان أولى من إسرائيل، لأنها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى فقال: " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ " (سورة هود: ٧١)

وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، لكن لفظة موافق للعربي، من العقب والتعقيب. والمعجزة هنا في مشاكلة الاسمين للمقامين .

وكذلك قد يكون للشخص اسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر لمقصد . ومنه قوله تعالى على لسان عيسى: " وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " (الصف:٦) ولم يقل " محمد "، لأنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه، فنبّأه وشرّفه، فلذلك تقدّم على محمد فذكّره عيسى به . ومنها أن " مدين " هم أصحاب الأيكة، إلا أنه سبحانه حين أخبره عن مدين قال:" أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " ((هود: ٨٤).، وحيث أخبر عن الأيكة لم يقل " أخوهم ": " كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ "(الشعراء:١٧٦)، " وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ " (الحجر:٧٨)." وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ " (سورة ص:١٣)، " وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ " (سورة ق:١٤)، والحكمة فيه أنه لما عرّفهم بالنسب، وهو أخوهم في ذلك النسب ذكره، ولما عرّفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها العذاب لم يقل أخوهم، وأخرجه عنهم .

ومنه " وذا النون " (الأنبياء: ٨٧)، فأضافه إلى الحوت والمراد " يونس " وقال في سورة القلم: " وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ " (القلم:٤٨)، والإضافة " بذي " أشرف من الإضافة " بصاحب "، ولفظ " النون " أشرف من " الحوت " ولذلك وجد في حروف التهجي، كقوله: " ن وَالْقَلَمِ " (القلم:١) . وقد قيل قسم وليس في الآخر ما يشرفه بذلك[٥٧] .

ب – خطاب الاثنين بلفظ الواحد:

كقـوله تعـــالى في قصة موسى: " قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى " (سورة طه: ٤٩)، أي " وهارون " وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف إذ كان هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات .

والـثاني: لمّـا كان هارون أفصح لساناً منه، على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب الخـصم الألـد . ومـثله في قصة آدم: " فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى "(سورة طه: ١١٧). وفيه أيضا وجهان:

أحدهما: إنها أفرده بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام .

والثاني: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيّز الرجال، ويحتمل الاغضاء عن ذكر المرأة ولهذا قيل: من الكرم ستر الحرم ..

وقـوله: " فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الشعراء: ١٦)، فهما اثنان ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رب العلمين[٨٨] .

وقوله تعالى في قصة آدم: " فَتَابَ عَلَيْهِ " (البقرة: ٣٧). ولم يقل " عليهما " اكتفاء بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه[٨٩] .

ج – خطاب الجمع بعد الواحد

كقوله تعالى في قصة موسى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُـيُوتًا وَاجْعَلُـواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس:٨٧). فثنّى في الأول، ثـم جمـع ثـم أفـرد، لأنـه خوطب أولاً موسى وهارون، لأنهما المتبوعان، ثم سبق الخطاب عاماً لهما ولقولهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم خصّ موسى بالبشارة تعظيماً لـه ...

د – خطاب الاعتبار:

كقوله تعالى في قصة صالح لما هلك قومه: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف:٧٩). خاطبهم بعد هلاكهم، إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بدر وقال: " والله ما أنتم بأسمع منهم "، وإما للاعتبار كقوله: " قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا" (سورة العنكبوت: ٢٠) .

٢ – الكناية:

أ – إن للقرآن الكريم في قصصه المثل الأعلى والمنزلة التي تعجز عنها أساليب الأدباء، ومعلوم أن لكتاب الله تعالى غاية أخلاقية لها مكانها البارز بين الغايات السامية التي يحققها ذلك الكتاب المعجز، وإذا كان هذا شأنه فلابد من أن تتفق ألفاظه وأساليبه وصوره البيانية مع هذه الغاية، وهذا يفسّر لنا خلوه تماماً من كل ما يجرح الذوق أو يخدش الحياء، أو يتعارض مع التربية الخلقية التي يغرسها ذلك الكتاب الكريم في النفوس المؤمنة ... فلننظر إلى الأدب العالي والذوق الرفيع، وصور الكناية التي تؤدى الغرض أداءً أبلغ من التصريح، في قصة يوسف وامرأة العزيز حيث توالت الكنايات وأخذ بعضها بعناق بعض، لأن الحقائق المعبّر عنها بها مما يجب ستره وتغطيته، فأدت الكناية دورها أبلغ أداء: " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ " (يوسف: ٢٣) . فقد كنى بالمراودة عن الفحشاء التي طلبتها هذه المرأة منه، وقد عبّر عن هذا المعنى بعبارة مهذبة أغنت عن القبيح [١٠] .

ومن لطيف الكنايات وأحسنها قوله تعالى في القصة عن مريم " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " (سورة الأنبياء: ٩١). وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب، وفروج القميص أربعة: الكُمّان، والأعلى، والأسفل، وليس المراد غير هذا، فقد أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونُزّهت

القانتة المطهّرة عن الظنّ الكاذب والحدس"[1] .. إذاً فإحصان الفرج هنا رمز للطهارة، وإيماء لعفة، وإشارة إلى تكامل الأنموذج الإنساني، في أم عيسى عليهما السلام .

ب – ومن صور الكناية في القصة القرآنية " التعريض والتلويح "، وأما التعريض: فإنه الدلالة على المعنى عن طريق المفهوم، وسُمّي تعريضاً لأن المعنى باعتباره يُفهم من عرض اللفظ، أي من جانبه، ويسمى التلويح، لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، كقوله تعالى في قصة " إبراهيم " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ " (الأنبياء:٦٣)، لأن غرضه بقوله: "فَاسْأَلُوهُمْ" على سبيل الاستهزاء، وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سُئلوا، ولم يرد بقوله: " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا "، نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة .

ج – ومن صور الكناية في القصة القرآنية أيضاً: التوجيه، وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى في قصة ميلاد موسى " فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ "(القصص:١٢)، فإن الضمير في (لـه) يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون لفرعون . وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: (أنك عرفته)، فقالت: أردت: " ناصحون للملك " والرد على من اعترض عليه بأن هذا في لغة العرب لا في كلامها، أن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغةٍ أخرى"[2]

٤ - الإيضاح بعد الإبهام: ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانه بعد التشوّف إليه: لأنه يكون ألذّ وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها، كقوله تعالى في قصة موسى: "وَوَعَدنا موسى ثَلَثِينَ ليلة وَأَتْنَهاَ بعَشْر فَتم ميقَت رَبه أَرْبَعينَ لَيْلَةً" سورة الأعراف من آية ١٤٢، وأعاد قوله: "أربعين " وإن كان معلوماً من" الثلاثين"و " العشر" أنها أربعون " . لنفي اللبس، لأن العشر لمّا أتت بعد الثلاثين، التي هي نص

في المـواعدة دخلهـا الاحـتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر " الأربعين " نفياً لهذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة.

وإن قال قائل: إذا كان زمن المواعدة أربيعين فلِمَ كانت " ثلاثين " ثم عشراً؟

أجـاب ابـن عـساكر [١٣]: بـأن العشر إنما فُصِل من أولئك؟ ليتحدّد قُرب انقضاء المـواعدة، ويكون فيه متأهَباً مجتمع الرأي، حاضر الذهن؛ لأنه لو ذكر " الأربعين " أولاً لكانت متساوية، فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام، وتجدّد بذلك عزم لم يتقدم..

ولكـن المـواعدة في سورة البقرة وردت أربعين ليلة ولم يفصل العشر منها: " وَإِذْ وَاعَـدْنَا مُوسَـى أَرْبَعِـينَ لَـيْلَةً " (سـورة البقـرة: ٥١) .. وذلـك لأنـه قـصد في " الأعـراف " ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها فذكر على صفتها، وفي " البقـرة " إنـما ذكـر الامتـنان عـلى بنـى إسرائيل بما أنعم به عليهم فذكر نعمه عليهم مجملـة، فقال: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ "(البقرة: ٥٠)، " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ " (البقرة: ٤٩).

٥ – الخـروج عـلى خلاف الأصل: فالأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحـدث عـنه كـذلك . والأصـل أنـه إذا ذكـر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهـر الـسابق، والخروج على الأصل في تركيب الجملة القصة القرآنية له مقاصد عظيمة منها:

أ – قـصد التعظـيم: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: " لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا " (الكهف: ٣٨) ، فأعاد ذكر " الرب " لما فيه من التعظيم والهضم للخـصم . ومـثله في قصة مريم: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ " (آل عمران: ٣٧) .

ب – إزالـة الإهانـة والتحقـير: كقـوله تعـالى في قـصـة موسـى وفرعون: " وَكَـذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُـدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ " (غافر: ٣٧)

ج- إزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد: كقوله تعالى في قصة يوسف: " ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ " (يوسف:٧٦)، إنما حسن إظهار الوعاء مع أن الأصل " فاستخرجها منه " لتقدم ذكره، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ، فيصير كأنه الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء، وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس، الأبية، فأعيد لفظ الظاهر لنفي هذا ..

وإنما لم يضمر الأخ فيقال: " ثم استخرجها من وعائه " لأمرين:

أحدهما: أن ضمير الفاعل في " استخرجها " ليوسف عليه السلام، فلو قال " من وعائه " لتوهم أنه يوسف، لأنه أقرب مذكور فأُظهر لذلك .

والثاني: أن الأخ مذكور مضاف إليه، ولم يذكر فيما تقدم مقصوداً، بالنسبة الإخبارية، فلما أحتج إلى إعادة ما، وأضيف إليه أظهره أيضاً

د – قصد العموم: كقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح: " حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا" (الكهف:٧٧) ، ولم يقل " استطعمهم " للإشعار بتأكيد العموم، وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها إلا استطعماه وأبى، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة .

وقوله تعالى في قصة يوسف: " وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " (سورة يوسف: ٥٣)"""، فإنه لو قيل: إنها لأمارة " لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع إنه برئ من ذلك بقوله بعده: " إلا مارحم ربي "، وقوله: " إن ربي غفور رحيم "، ولم يقل " إنه " إما للتعظيم وإما للاستلذاذ.

٥ – الاستثناء والاستدراك: ويبدو واضحاً في تركيب الجملة كقوله تعالى في قصة آدم: " فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ" (الحجر: ٣٠-٣١)، فإن فيه معنى زائداً على الاستثناء، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ..

ومنه قوله تعالى في قصة نوح: " فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا "(العنكبوت:١٤) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر " الألف " واختصار اللفظ، فإن لفظ القرآن أخصر من تسعمائة وخمسين عاماً ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص ..

٦ – الاحتراس: وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال مثل قوله تعالى على لسان النملة في قصة سليمان: " لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " (النمل:١٨) . فقوله: " وهم لا يشعرون" احتراس بيّن أن من عدل سليمان وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بأن يشعرون بها . وقد قيل: إنما كان تبسّم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسّم بالضحك، لأنهم يقولون: تبسّم كتبسّم الغضبان، لينبّه على أن تبسّمه تبسّم سرور ..

وكذا قوله تعالى في قصة الطوفان: " وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (سورة هود: ٤٤) فإن سبحانه ما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، عقبهم بالدعاء عليهم، ووصفهم بالظلم، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب، احتراس من ضعف يوهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا علي الهالكين، ووصفهم بالظلم علي استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم، مع قوله أولاً: " وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ "(سورة هود:٣٧).

وأعجب احتراس وقع في القصص القرآني قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه الصلاة والسلام: " وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (القصص: ٤٤)......

وقال عن موسى: " وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ "(سورة مريم:٥٢)، فلما نفي سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضي لموسى فيه الأمر عرّف المكان

بالغربي، ولم يقل في هذا الموضع " الأيمن " كما قال " وندينه من جانب الطور الأيمن: أدباً مع النبي صلي الله عليه وسلم أن ينفي عنه كونه بالجاني الأيمن، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن، أو مشاركاً لمادته، ولما أخبر عن موسي عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسي، فراعي في المقامين حسن الأدب معهم تعليماً للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب "[١٥] .

وعلى هذا نستطيع – بعد الذي قدمنا – أن نكتفي بهذه الإشارة من تلك الجزئيات المعدودة، من نواحي الإعجاز في باب القصص القرآني من ناحية البلاغة .. ذلك الإعجاز الذي منح اللفظ العربي امتداداً في المدلول، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لغات البشر، ويمكن أن نلخص نواحي الإعجاز في نقاط ثلاث:

أولها: أنه قد حدث بتأثير كتاب علي لغة، وهو أمر لم يحدث في تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة.

وثانيها: أن أساس التحدّي في الإعجاز هو الكلمة بكل بنياتها، فقد نجد في القرآن كلمة علي حرف واحد، أفادت من الاستعمال القرآني تعدداً في المعني، وسعة في الاستعمال، وقد تكون علي حرفين وثلاثة، وأربعة، وخمسة، وهذا هو المقياس الكمّي الذي وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة.

وثالثها: قابلية اللفظ القرآني لتحمّل المزيد من الدلالة، وهو بذلك يمنح العربية مرونة في الأداء ومواكبة لتطور العلم، وقدرة علي استيعاب حقائقه في كل جيل. ولا شك أن ذلك كله يضفي علي بيان القصص تأثير تركيبي عميق ... ندرك منه فصاحة الأسلوب وبلاغة العبارة وسمو المعني والمفهوم، وثراء الفكر والمضمون.

" ولا ننسي أن نذكر فوق ذلك ما قالته الأعرابية – حين أعجب بعض الناس ببعض شعرها -: (ما ترك لنا القرآن من بيان وهو يقول: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "(سورة القصص:٧) فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ..

ونهيين وبشارتين)، هذا إلى أنها لم تعن بأن تشير في الآية إلى مصطلح القوم في لطف التصوير، وما تقتضيه الدقة في التعبير بالشرط وفي إيثار بعض أدواته علي بعض . وما تقتضيه الدقة في اختيار الفاصلة التي تساير أجراس السورة، أو أنغامها الموسيقية الموتورة "[٦٦].

ثانياً: الخصائص الأسلوبية:

ونقصد بالأسلوب تلك الطريقة التي يتم بها التركيب الأدبي للعناصر القصصية،ومما لاشك فيه أن القصة القرآنية تُعدّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتّضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن اصل الاشتقاق للفظ (قصة) يلتقي في المعني مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام بالنبأ " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (الكهف:١٣) ، أو تتبع الأثر وتقصّيه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ" (سورة القصص:١١)، بل واعتمادها علي ما في عرضها من طرق فنية .

ولا ننسى أن أسلوب القصص القرآني هو أسلوب التخاطب ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحدث والمشافهة خاصة في مبدأ القصة [٦٧].

وهناك خصائص أسلوبية عامة تحقق الغرض الديني للقصة القرآنية، عن طريق جمالها الفني، إذ أن هذا الجمال الفني يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق، وهذه الخصائص تمثلها بعض الظواهر الفنية التي لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون [٦٨]، منها:

(أ) تنوّع طريقة العرض:" إن البيان القرآني يحدّد الغرض من القصة ويسلك له الطريق الذي يوصل إليه، متوسلاً في طريقه إلى غرضه بالوسائل البيانية المناسبة أتمّ المناسبة. ومن ثم تنوّعت الطرائق تبعاً لتنوّع الأغراض، واختلفت الوسائل البيانية تبعاً لتنوّع الطرائق "[٦٩].

١ـ التقديم والتمهيد لعرض القصة:

وخير مثال لذلك هي " قصة الخلق "، أو " النشأة الأولى "، فقد ورد في سورة الأعراف تقديم قوي لقصة خلق آدم، تبدأ به السورة: يقول تعالي: " المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "(سورة الأعراف: ١-٢).

إن خطاب الرسول – صلي الله عليه وسلم – هو خطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن .. كل ما يجئ في السورة بعد ذلك من قصص، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة، وعودتها من الرحلة المرسومة، وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة، إنما هو خطاب غير مباشر – وأحياناً مباشر – للنبي صلي الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير، كما يشير هذا المطلع القصير ... ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة، ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم، ويذكّرهم بمصائر المكذبين، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ... جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصل عنهم في مواضعه من السياق: " وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ "(الأعراف ٤: ٩) .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون، ومن قدرة علي التصرف إلى نواميسه واستخدامها والانتفاع

بطاقاته ومقدراته وأقواته،" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ "(الأعراف:١٠).

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولي، وتصوير نقطة الانطلاق للبشرية في رحلتها المرسومة، والسياق يركز في هذه السورة علي هذه النقطة، ويعرض قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات عميقة:"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ " (الأعراف:١١) .

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدّد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً.. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدد الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، ومنافذ الشيطان إليه منها ..

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " (سورة الأعراف ٢٦-٢٧) .

٢- وقد يمهد للقصة بمقدمة توحي بخاتمتها علي نحو ما نري في قصة " يوسف " فأحداثها تبدأ عقب تقديم رؤيا يوسف التي قصّها علي أبيه وتنبؤ أبيه بما ينتظره في المستقبل من شأن عظيم " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "(يوسف:٤-٦).

ثم تبدأ مشاهد القصة وأحداثها، حتى إذا كانت خاتمتها عرفنا أنها كانت تصويراً دقيقاً لانتقال الرؤيا إلى واقع متدرج مع الأيام(٣٠): " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "(يوسف:١٠٠).

٣- وقد يمهّد للقصة بذكر ملخص لها يشوّق إليها، وينبّه إلى ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما قد يثار حول أحداثها، من تشكيك أو ما قد يثار حول أفكارها من آراء، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك، كما نري في قصة أصحاب الكهف، فقد مهّد لأحداث القصة بقوله تعالى: " أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا"(الكهف:٩-١٢) .

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تشاورهم قبل دخولهم الكهف. وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم في أمرهم .. إلخ . فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوّقة للتفصيلات(٣١).

٤- ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وذلك كقصة موسي في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا: " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ "(القصص: ٢-٦).

ثـم يمـضي في تفـصيلات قـصة مـوسي: مـولده ونـشأته ورضـاعه وكبره وقتله المـصري وخروجه .. فكأن هذه المقدمة، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة "(٢١)".

٥- وقـد يذكـر القـصة بدون مقدمات ولا تمهيد، مكتفياً بإيماء إلى محور القصة، عـلي نحـو مـا جـاء في قـصة سـليمان مـع ملكـة سـبأ، فالقصة تدور في محور العلم والإيـمان، ومـن ثـم بـدأت بعـد قوله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْـدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النمل:١٥) . وكما نري في الحلقة التي تعرضها سورة الأنبياء من قصة إبراهيم، فالقصة تدور في محور الجدل العقـلي القـائم عـلي التعقل والإتزان، ومن ثم بدأت بعد قوله: " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْـدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ " (سورة الانبياء:٥١) . ثم تلا ذلك قوله تعالى: " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ"(سورة الأنبياء:٥٢).

٦- وقـد يقـدم أحـداث القـصة وفـق تـرتيبها الواقعـي، فيصبح متلقي القصة مـشاركاً لأصـحابها، في الانـتقال مـع أحداثها ومواقفها، علي نحو ما نري في قصة مـريم التـي تقـدمها سـورة مـريم، ومـا نـري في قصة إبراهيم التي تعرضها سورة الأنبـياء، فـنحن مع قصة مريم ننتقل معها من حدث إلى حدث ونمر معها بالضيق جاهلين نهايته حتى نصل معها في النهاية إلى سماع صوت طفلها عيسي يبرئ ساحته ويعـرّف بنفـسه، ونحـن مـع قـصة إبراهيم ننتقل معه في تحدّيه لقومه وسخريته من معبوداتهم، ونتدرج معه دون أن ينكشف لنا شيء ينمُّ عما تنتهي به القصة، حتى نراه في النهاية كما رأي نفسه محفوظاً من النار التي ألقي فيها لتحريقه"(٢٢).

٧- وقد يقدّم أحداث القصة وفق ترتيب آخر ليجعل لنا بالكشف عن مفاجآت القـصة، إيـماء إلى أن مـن وقائع الحياة ما يمكن للعاقل المؤمن البصير إدراكه قبل أن يقـع لـيعمل عـلي تـدارك نفسه . كما نري في قصة أصحاب الجنة التي قدمتها سورة

القلـم فـبعد بـدء أحداثها مباشرة قدّم حدثاً يعرّفنا بما آل إليه أمر الجنة دون أن يؤثر ذلـك عـلي مـسار القصة، أو يصيبها بأدني قلق أو اضطراب: " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ "(سورة القلم: ١٧-٣٢).

٨- البـيان القـرآني في بعـض مشاهد قصصه يعتمد علي إحضار الأحداث دون تـدخل بالـرواية وما تستلزمه من حكاية علي ألسنة الأشخاص . وكل ما يصنعه أنه ينـبّه إلى عـنوان المشهد أو موضـوعه بما يتناسب مع السياق البياني العام، ثم يختفي لتـصدر الأحـداث والأقوال من أصحابها مباشرة علي غرار ما نعرفه حديثاً باسم (التمثيلـية)، فيـصبح متلقي المشهد كأنه حاضر وقائعه بنفسه دون واسطة. علي نحو ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقدم القرآن مشهد بناء الكعبة فنري إبراهيم وإسماعيل أمامنا بأشخاصهما يبنيان ونسمعهما بألسنتهما يدعوان، حتى كأنهما معنا في عصرنا هذا أو كأننا انتقلنا إليهما في الماضي نعايشهما: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ "(البقرة: ١٢٧-١٢٩).

فالبـيان هنا لم يتدخل إلا برفع الستار عن المشهد، وذلك قوله تعالى: " إذ يرفع " كلمـة (إذ) هـنا تمثل المفتاح الذي ينقلنا إلى الحدث الواقع أو ينقل الحدث ذاته إلينا فنشارك أشخاصه الزمان والمكان والحياة[١].

٩ - والقرآن في أكثر قصصه يعتمد علي أسلوب الأقصوصة في العرض، فيسيطر بـذلك عـلي الموقـف، لينتقي من الأحداث التي وقعت ما يحقق الهدف، وينسقها في إطـار فنـي لا يخـرج عن الحقيقة، ولا ينبو علي الواقع، فالبيان القرآني - هنا - يحرّك الأشـخاص الحـركة نفـسها التـي تحـرّكوها في الواقـع الماضي، غير أنه ينتقل بهم في قفـزات، مـتجاوزاً مـن ذلـك ما يراه لا يفيد في الغرض، فيجمع بذلك بين الصدق الواقعي والصدق الفني، إذ لا يتوسل إلى إبراز موضوعه بوسائل مخترعة ينسب فيها إلى أشخاصـه ما هم منه براء، ولا يترك ركام الأحداث الجانبية يطغي علي الموضوع فيـضلل المتلقـي، وينأى به بعيداً عن الموقف الحقيقي، ولذا يغلب علي قصصه نسبة الأقـوال إلى أصحابها بواسطة (قال)، وقصّ ما حدث بما يناسب من وسائل الرواية والـسرد القصـصي، عـلي نحـو مـا جـاء في قصة أصحاب الكهف، وقصة سليمان، وقصة يوسف ..

بـيد أن تنمـية الأحـداث في بعـض قصـصه تعتمد بالدرجة الأولى على الوصف والتـصوير كـما توضـحه قصة أصحاب الكهف، وفي بعضها تعتمد بالدرجة الأولي علي الحوار كما في قصة " موسي والعبد الصالح " التي قدمتها سورة الكهف .. وقد يجمـع بـين الوسـيلتين بدرجة متقاربة في تنمية الأحداث كما في قصة سليمان وملكة سبأ . ونبحث عن السرّ في ذلك فنجده يرجع إلى موضوع القصة، وإلى الغاية منها، فالقـصة التـي يقـصّد بهـا الـوعظ وإرسـاء قـيم خلقـية يهتم فيها بالقص الواصف المـستوعب، والقـصة التي يقصّد بها إقرار عقيدة أو توضيح فكرة يهتم فيها بالقص الحـواري، فتبث في ثنايا الحوار الخفيف ما يصعب علي العقل البشري استساغته من أفكـار وعقائـد . فـإذا اجـتمع في القصة المقصدان نجدها تقوم علي السرد الوصفي والحواري بدرجة تتقارب تقارب المقصدين فيها، وتتفاوت تفاوتها "[٧٢].

ب- وثانـية هـذه الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمـشهد، التـي يـتركها تقـسيم المـشاهد " وقـصّ " المناظـر، بحـيث تترك بين كل مـشهدين أو حلقتـين فجـوة يملـؤها الخـيال، ويـستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد والمشهد اللاحق..

وهـذه طريقة متّبعة في جميع القصص القرآني علي وجه التقريب، ولنضرب عليها

مـثلاً مـن قصة يوسف، فالقصة قد قسّمت ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدها:

لقد قدم إخوة يوسف وهو " علي خزائن الأرض "، في سنوات الجدب، يطلبون القمـح، فطلـب إلـيهم أن يحضروا أخاهم الآخر .. شقيقه .. فأحضروه – علي كُرهٍ مـن أبـيه – ثـم وضع صواع الملك في رحله وأخذ به رهينة، باسم أنه سارق، ليبقيه يوسـف عـنده .. ثم هاهم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم، وقد أبي علـيهم يوسـف أن يأخـذ أحـدهم مكانـه: " فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (يوسف: ٨٠-٨٢)..

وهـنا يـسدل الستار، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق، ولكن أمـام أبـيهم، وقد قالوا له ما وصّاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه. إنما يرفع الـستار مـرة أخـري لنجد أباهم يخاطبهم:" قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (سورة يوسف: ٨٣) ويُسدل الستار..

وهنا نري مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه، ونراه قد ابيضّت عيناه من الحزن، وهو دائـم الحـسرة علي يوسف، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله: " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف: ٨٤-٨٧) .

وهنا يسدل الستار، ويطوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف: " فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ "(يوسف:٨٨).

جـ وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة – التصوير الفني:

إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعني الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور . وعن الأنموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة . فإذا المعني الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الأنموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يُضرب، ويتخيّل أنه منظر يُعرض، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح علي المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنمّ عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة وليست حكاية الحياة..

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعني الذهني والحالة النفسية وتشخص الأنموذج الإنساني أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن [٧٦].

وبعد لقد استطردنا في تتبع معظم خصائص القصة القرآنية. ولكن مما لا شك فيه أن قوة العرض والإحياء هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً . وأن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها علي الألوان الأخرى.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.
(٢) د. محمد عناني: خرافة الكمال: جريدة الأهرم ٢٧/ ٥/ ١٩٨٨.
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، الملجد الثاني، ص ٧٢١.
(٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن: ص ٨٦.
(٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم – ص ١٤. مطبعة السعادة. القاهرة،ط١،سنة١٩٧٧.
(٦) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٠٩، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
(٧) المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.
(٨) كل الذين يدركون أسرار الموسيقا وفلسفتها، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً؛ ويعلو القرآن علي الموسيقا أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقا
انظر: المرجع السابق، ص ٢١٤.
(٩) وقال بعض العلماء: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه إنهم (أي العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا وجاء في القرآن علي أسهل موقف وأعذب مقطع، وهذا قولٌ ناقص.
انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
(١٠) المرجع السابق: ص ٢١٦- ٢١٧ بتصرف.
(١١) راجع سورة مريم: الآيات من ١ إلى ١٥.
(١٢) راجع سورة مريم: الآيات من ١٦ إلى ٣٧.
(١٣) راجع سورة مريم: الآيات من ٣٤ إلى ٤٠.
(١٤) راجع سورة مريم: الآيات من ٤١ إلى ٧٤.

(١٥) راجع سورة مريم: الآيات من ٧٥ إلى ٨٧.
(١٦) راجع سورة مريم الآيات من ٨٨ إلى ٩٨.
(١٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٣٠٠ – ٢٣٠١.
(١٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٢.
(١٩) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
(٢٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ٨٩ – ٩٠.
(٢١) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢٢٠ – ٢٢٤ بتصرف.
(٢٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ص١٥٠.
(٢٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٤ – ١٩٥.
(٢٤) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الادبية في دراسة القرآن، ص ١٥٠.
(٢٥) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٣.
(٢٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ص ٧٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٤، دار التراث، القاهرة بدون تاريخ.
(٢٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٢٢٢.
(٢٨) د. علي اليمني درديـر: أسرار الترادف في القرآن الكريم، ص٣٢-٣٣، دار ابن حنظل . القاهرة، ١٩٨٥
(٢٩) المرجع السابق، ص ٣٤.
(٣٠) المرجع السابق، ص ١٣١ – ١٣٢.
(٣١) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٩.
(٣٢) المرجع السابق ، ص ١١٩-١٢٠.
(٣٣) أبو سليمان محمد بن الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٣٦، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، القاهرة، بدون تاريخ .
(٣٤) ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص ٢٠٨.
(٣٥) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٨٦٢.
(٣٦) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٦٧-٦٨.
(٣٧) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ٤، ص٧٨.
(٣٨) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص ٢٠٠.
(٣٩) سورة ق من آية ٣٣.
(٤٠) المرجع السابق، أسرار الترادف، ص ٥٨-٥٩.
(٤١) د علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ٩٨-٩٩.
(٤٢) ابـن مـنظور: لـسان العرب، ص ٧٠٤، حيث يشير إلى معني أن العصا صارت تتحرك كما

يتحرك الجان حركة خفيفة، ويقول أبو العباس: شبهها في عظمها بالثعبان وفي خفتها بالجان.

(٤٣) د. علي اليمني دردير: أسرار الترادف، ص ١٠٠

(٤٤)المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤٥) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٤٦) المرجع السابق، جـ ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) في التعبير كلمة أخري جليلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد علي الطين تهكماً علي فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية وإعداد الآجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد علي الطين، ثم تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء، فكأنه لم يخرج لابناء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء. انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٤.

(٤٨) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٥.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٥٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ٣، ص ٧٩-٨٠.

(٥١) د. محمد أحمد الغمراوى: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٣٤ .

(٥٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن، ص ١٥١ .

(٥٣)مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ٢٥٨، ٢٧٢ بتصرف .

(٥٤) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن . جـ٣، ص ٢٨٠.

(٥٥) ابن منظور: لسان العرب، جـ٤ – ص ٢٥٥٨.

(٥٦)عباس محمود العقاد: جحا اضاحك المضحك، ص ٧١، دار نهضة مصر، القاهرة،بدون تاريخ .

(٥٧)الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي: البرهان في علوم القرآن،ج ١ ص ١٦٠ -— ١٦٢ .

(٥٨)سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٥٩٠ .

(٥٩) الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٩ - ٢١١ – ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٦٠)الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤ .

(٦١)الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٥ .

(٦٢) ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له: من كان أفضل عند النبى صلى الله عليه وسلم ؟ أبو بكر أم على ؟ فقال: من كانت ابنته تحبه .. والإشكال فى ضمير: " ابنته " وضمير " تحبه " فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج على ، وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول . البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣١٤- ٣١٥ .

(٦٣) هو محمد بن علي بن الخضر الغساني المعروف بابن عساكر، تلميذ أبي القاسم السهيلي

صاحب كتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام وكتاب ابن عساكر ذيّل عليه، جمع بينهما شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة في كتاب واحد سماه " التبيان".

انظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٦٤)وفي حاشية إحدى النسخ: " هذا مقول امرأة العزيز، ويوسف عند هذه المقالة في السجن، بدليل قوله: " ائتوني به " وأيضاً قول للرسول: " ارجع إلى ربك " ولم يخرج معه، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت من يوسف لأجبت الداعي " .

(٦٥) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ص ٦٥- ٦٦.

(٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٥٨.

(٦٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٢.

(٦٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٨.

(٦٩) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١١٦.

(٧٠) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.

(٧١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٩.

(٧٢) المرجع السابق.ص ١٤٩

(٧٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.

(٧٤) المرجع السابق، ص ١١٦.

(٧٥) المرجع السابق، ص١١٧-١١٨.

(٧٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤.

القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم

أ- توزيع القصة في القرآن الكريم: منهجه وأسلوبه:

يـرد القـصص القـرآني في مواضـع ومناسـبات، وهـذه المناسـبات التـي يـساق القـصص مـن أجلهـا هـي التـي تحـدد مـسار القـصة، والحلقـة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفنـي الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب[1] .

ولـذلك يلاحـظ الدارسـون للقـصة القرآنية أنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي، ولكـن يلتـزم فـيها بالوصـول إلى الغايـة من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نري من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد – كما في قصة يوسـف – ومـنها مـا تقـدم في حلقات، يخصّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقـة مـن القـصة فحـسب . ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين..

ولا شك في أن هذا المنهج من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية التي يعجز المخلـوق عن مجارات البيان القرآني فيها، لِمَا يحوج إلى استجماع القوي الفنية جميعاً في وقـت واحـد، حتـى لا يسقط موقف في معرض أو يزاد موقف، وحتي يتمكن من إدراك أبعـاد المعـرض وحـصر متطلـباته مـن الأحـداث، والقـدرة علي حشد تلك الأحـداث واسـتهلالها مـن القـصة بحيـث لا يهتـز المـسار الفنـي فيها، وبحيث لا يتناقص حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة[2].

ومـن هـنا ظنّ بعض الدارسين أن هنالك تكرار في القصص القرآني، لأن القصة

الـواحدة قـد يتكـرر عرضها في سور شتي ؛ ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطـريقة الأداء في الـسياق، وإنه حينها تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار[٣].

وعـلى الـرغم من أن هذه الخصيصة إحدى أسرار الإعجاز القرآني، إلا أن هناك مـن يـزعم أن في القـصة القـرآنية خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفـن – بمعنـي التزويق الذي يتقيد بواقع، وأن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقـية وإنـما هـي شخـصية فنـية اخـترعها البيان القصصي، ومن ثم فهي في تلك الحلقـة غـيرها في الحلقـة الأخرى وإن اتفقت معها في التسمية، ومن ثم فالأحداث التـي تدور في تلك الحلقة لا تمت بِصِلةٍ تاريخية ولا واقعية للأحداث المماثلة لها التي تدور في الحلقة الأخرى..

والحقـيقة أن عـرض الشخـصية الـواحدة في أكثـر من معرض ليس تكراراً ولا تناقـضاً، وإنـما هـو – الاسـتجابة للأحـداث والمواقـف والغايـة مـن القـصة، لأن الشخـصية – كما قرّرنا من قبل في معرض الحديث عن الشخصية في القصة القرآنية – ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك – ليس مقصوداً لذاته، و إلا لجمعـت كـل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة .. و إلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد، تطلـبها المعـرض كاملة أو لم يتطلبها .. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعـرض كاملـة أو لم يتطلـبها .. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض للشخـصية مـع حـدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بـذلك الحـدث لا غـير، لـتري العظـة والعـبرة مـن خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحـدث، ثـم تنتهـي المشاهد المصورة، وتطوي القصة عند ذلك، وتنتقل إلى موقف آخـر، فـإذا عـرض بعد ذلك ما يستدعي هذه الشخصية ذاتها مع حدث آخر رأيت حلقـة أخـري – أو قصة أخري – ذات مضمون جديد . وإن تراءت تكراراً لما سبق في سورة أخري..

فـشبهة التكـرار – كـما نرى – ما جاءت إلا من تكرار الشخصية، وعدم الوعي بقيمتها في القصة القرآنية"[1].

ولقد حظي هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً، واستغرق قدراً كبيراً مـن جهـدهم، ومـا من مؤلف في البلاغة والنقد قديماً وحديثاً إلا تناول هذه الظاهـرة في القصة القرآنية، ولقد انقسم الباحثون إلى فريقين الأول يري أن التكرار مـنهج ثابـت مـن مـناهج القـرآن، ولا يوجد فقط في القصة القرآنية وأنباء الرسل، وأحاديـث الأقـوام الغابـرين؛ بـل يـوجد في كـل مـا تناوله كتاب الله العظيم قياماً بالرسالة التي أسندها الله إليه وأنزل آياته من أجلها، أما الفريق الآخر فينفي التكرار تماماً، وفيما يلي نوضح أهم آراء هذين الفريقين:

يقـول صـاحب الـبرهان: " لقد غلط من أنكر كونه (أي التكرار) من أساليب الفـصاحة، ظـناً أنـه لا فائـدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها،لا سيما إذا تعلق بعـضه بـبعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها، إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقـرب وقـوعه، أو قـصدت الـدعاء عليه، كرّرته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقـسَّم علـيه أو الاجـتهاد في الـدعاء علـيه، حيث تقصد الدعاء ؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانـت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجـة علـيهم في عجـزهم عـن المعارضـة . وعـلي ذلـك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الـشهوات، ولا يقمـع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، وقال تعالي: " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْـرِ فَهَـلْ مِـن مُّدَّكِـرٍ "[2]وبذلك تكون الفائدة العظمي من التكرار هي التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرر، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كـرر الأقاصـيص والأخـبار في القـرآن فقـال: " وَلَقَـدْ وَصَّـلْنَا لَهُـمُ الْقَـوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّـرُونَ "(القصص:٥١)،وقال:" وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُـمْ ذِكْرًا" (طه:١١٣)، وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معني، خشية تناسي الأول، لطـول العهـد به ثم ينتقل " صاحب البرهان " إلى تكرار القصص في القرآن

الكريم، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسي وغيره من الأنبياء، ويقول إنما هي تكررت لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدهما: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا تري أنه ذكر الحية (١) في عصا موسي عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً (٢)، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء، أن يكرر أحدهم، في آخر خطبته أو قصيدته كلمة، لصفة زائدة..

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به من المهاجرين، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسي إلى قوم، وقصة عيسي إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجمع فيها فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد وتبصرة، لآخرين وهم الحاضرون.

الثالثة: تسليته لقلب النبي – صلي الله عليه وسلم – مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم . قال تعالى: " وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "(سورة هود: ١٢٠).

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفّر على نقلها كتوفّرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلي الله عليه وسلم، ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا، بأي عبارة عبّروا..

السابعة: أنه لما سخّر العرب بالقرآن قال: " فأتوا بسورة من مثله "(البقرة:٢٣) وقال في موضع آخر: " فأتوا بعشر سور " (هود:١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في

موضـع واحـد واكتفـي بها لقال العربي بما قال الله تعالي: " فأتوا بسورة من مثله" " إيـتونا أنتم بسورة من مثله "، فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه..

الثامـنة: أن القـصة الـواحدة من هذه القصص، كقصة موسي مع فرعون – وإن ظـن أنهـا لا تغايـر الأخرى – فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلـك حـال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظـيرتها مـن نوع معني زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فـرّق ذكـر مـا دار بيـنهما وجعلـه أجـزاء، ثم قسّم تلك الأجزاء علي تارات التكرار لـتوجد متفـرّقة فـيها ؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمـر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنـسبة ليوسـف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصية ؛ من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:

مـنها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هجْنة ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين ...

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً ؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات ..

ومـنها: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفـرقة في تـارات التكريـر فـيجد البليغ – لما فيها من التغيير – ميلاً إلى سماعها، لما جُـبلت علـيه النفوس من حبّ التنقّل في الأشياء المتجدّدة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ومنها: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعني واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلي الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هـذه القـصص والأنـبياء مـع تغايـر أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرفّهم الله سـبحانه بأن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع علي

كلامه عدد[1]؛ لقوله تعالى: " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (سورة الكهف: ١٠٩)، وكقوله: " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (سورة لقمان ٢٧) ويري " الخطابي": أن التكرار بلاغة. وترك التكرار في الموضع الذي يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول: " تكرار علي ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغني عنه غير مستفاد به زيادة معني لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع ؛ والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلّف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها "[2].

وقد وقف " القاضي عبد الجبار " عند التكرار في القصص القرآني، وردّ طعن الطاعنين بسببه، وبيّن أنه من الوجوه التي تجلّت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه، كما بيّن أن هذا التكرار كان تسلية للرسول – صلي الله عليه وسلم – وتثبيتاً لفؤاده علي مدي ثلاث وعشرين سنة هي مدة نزول القرآن، كما ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون في الموطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة. ولهذا قال تعالى:" وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " (هود: ١٢٠).

كما يرى " القاضي عبد الجبار " أنه قد يكون السرّ في هذا التكرار في قصص القرآن، أن يكون تسجيلاً لكلام السابقين والأحداث التي وقعت لهم، فيكون هذا التكرار مختصاً بكل حالة، فيقول في ذلك: " على أن كثيراً مما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء المتقدمين، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم في أوقات فكان ذكره بحسب تكراره، وذلك مما يدل علي عظم شأن القرآن أيضاً"[3].

ويقول " مصطفي صادق الرافعي " في تعليقه علي هذه الظاهرة: " لقد خفي

هـذا المعنى (التكـرار) عـلى بعـض الملحـدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العـربية ومقاصـد الخطـاب والـتأتي بالـسياسة البيانـية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق مـن قـوة وسـعة، وهـو – أخزاهم الله – كان أروع وأبلغ وأسري عن الفصحاء من أهـل اللغـة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً"[11]

ويقـول أيـضًا: وفي بعـض ذلـك التكـرار معنـي آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكـشف لهـم عـن سره، وأول مـن نـبّه عليه الجاحظ في كتاب (الحيوان) إذ قال " ورأيـنا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحـي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام "[12].

وأمـا (أبـو هلال العسكري) فقد ذكر التكرار عند حديثه عن الإطناب، ويبدو أنـه قـد نقل عبارة الجاحظ، حيث بيّن أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام، وأنـه قـد كثـر في القـرآن في خطاب بني إسرائيل لقلة فهمهم فيحتاجون إلى الشرح والإيـضاح والتأكيد، بينما كان الخطاب للأعراب، بالإشارة والوحي لعدم حاجتهم إلى ذلك، ومثل له من القرآن وفصيح الشعر"[13].

وإذا كـان تفـسير هـؤلاء الباحثـين المتقدمـين لـبلاغة التكـرار في القـرآن يتـسم بالتعمـيم، وتكـاد معظمهـا تـتفق علي أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام: كالتأكـيد والـوعد والوعـيد، فـإن " جـار الله الزمخشري " قـد نهج نهجاً يقوم علي التحلـيل النفـسي والـتعمق والتغلغل في كشف الأسرار النفسية والبواعث البلاغية التـي بـسببها كـان هـذا التكرار، في كلام الله عز وجل وفي القصص التي ساقها، إذ يـري الزمخشري " أن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور " .. ومـن ذلـك قـوله تعـالي: " إن في ذلـك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين " [14] فيقول الزمخـشري: " كرّر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها هذه الآية لأن كل قصة

كتنـزيل برأسـه، وفـيها مـن الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحـق في أن تفتـتح بـها افتـتحت بـه صـاحبتها، وأن تختـتم بها اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس "[١٤].

وهكذا في كل ما تقدم رأينا البلاغيين يتفقون علي بلاغة ما جاء في القرآن الكريم مـن آياتـه وقصصه مكرراً في أكثر من موطن ومردداً في أكثر من موضع، وأن تكرار القـصة الـواحدة في القـرآن الكـريم وثـيق الـصلة بمـنهجه القصـصي، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد:

١ـ غرض فني:

ويتمـثل في تجـدد أسـلوبها إيـراداً وتـصويراً، والتفنّن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوّع في أدائها لفظا ومعنى ..

٢ـ غرض نفسي:

وذلـك بـما لـه مـن تأثـير في الـنفوس، لأن المكـرّر ينطـبع في تجاويـف الملكـات اللاشـعورية التـي تختمـر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرّر في علم النفس[١٦].

ومـن آراء الفـريق الآخـر الـذي لا يقـرّ بوجود التكرار مطلقاً في القرآن الكريم نـستعرض رأي الدكـتور " محمـد أحمـد خلـف الله " الـذي يذهـب إلى عجز العقل الإسـلامي عـن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار . يرجع إلى أنه اعتمد المـذهب التاريخي في فهم القصص القرآني، ومن هنا رأي الكثيرون اعتبار القصص القـرآني مـن الآيات المتشابهات . يقول الطبري " المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به مـن قصـصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني".

ويقـول: " ولـو إن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني علي أساس فني وأدبي لمـا وقـف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولي، الذي عدّه تكراراً ليس من

التكرار في شيء لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص، وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر، ومن هنا كان الاختلاف. لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية .. فقصد القرآن من قصة موسي في سورة " طه " غيره من قصة موسي في سورة " النمل "، وقصة موسي في سورة " طه " قصة مستقلة، وقصته في سورة " النمل " قصة مستقلة . ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك قصة أخري . وعلي هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه "(١٧) .

وأما عن رأيه في وحدة الشخصية فيقول: " ليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلب الاتفاق في الشخصية علي بقية العناصر القصصية، من خلاف في المقاصد والأغراض، واختلاف في الصور والألفاظ، واختلاف في النسق والترتيب، واختلاف في فن البناء والتركيب – ومن هنا نحسّ أن الاختلاف القائم علي أساس الأحداث أيضاً يزول، فكوْن البشارة بالغلام مرة لسارة وأخري لإبراهيم عليه السلام لا يعتبر من الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة، وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير "(١٨)

ويقول: " إن هذا الوجه من الرأي يبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به المستشرقون من تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض النبي عليه السلام ودوافعه والظروف المحيطة به والمناسبات التي تدعوه إلى بعض المواقف . ذلك التطور الذي يمثلون له ما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام، لأن أساس هذا القول إن الوحدة القصصية تقوم علي وحدة الشخصية وهو قول باطل، يريحنا منه تقرير أن هذه الوحدة، إنما هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الشخص، ومن هنا تكون هذه قصة وتلك قصة، وتكون أقاصيص متعددة لشخص واحد عن موقف واحد، لتعدد الأغراض واختلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض "(١٩).

وغني عن البيان أن المقدمة التي بنى عليها " الدكتور خلف الله " حكمه في عدم

التـزام القـرآن الكـريم للواقـع في قصـصه غـير صحيحة. والمقدمة تتمثل في إقراره بوجـود مفارقـات بـين مـا يكـرر مـن أحـداث القصة الواحدة، وسوف ندفع هذه الـشبهة عـند عرضـنا لقـصة مـوسي موزعة في إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم، لننفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها علي افتراض وجودها ما يقتضيه العمـل الفنـي والأدبي مـن تـصرّف في عناصر الأحداث أو الشخصية . لأن هذا – وإن جاز في القصص الأدبي التاريخي – لا يجوز بحال في القصص القرآني والله تعالى يقـول: " لَقَـدْ كَـانَ فِي قَصَـصِهِمْ عِـبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْـبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَـصْدِيقَ الَّـذِي بَـيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْـصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "(سورة يوسف: ١١١).

إن الجـمال الفنـي في قصص القرآن لا يعتمد علي الخلق والابتكار والخيال ولكن علي صدق الرواية، وإبداع العرض، وجمال الأداء.

أمـا مـن ناحية الوحدة القصصية فيقول " الدكتور خلف الله " باستحالة الجمع بـين مـا جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور " البقرة "و " هود " و " الأنبياء " في وحدة قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء.

ولقد انطوى هذا القول علي مغالطات جسيمة لأن الوحدة القصصية، حسب ما تعـارف علـيه – الـنقاد – " هـي وحـدة بطـل القصة أو وحدة موضوعها، ووحدة البطل هنا هي " إبراهيم " في سورة البقرة، في بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه فـسأل ربـه برهاناً على كيفية البعث، وهي " إبراهيم " أيضاً في سورة الأنبياء عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهانًا علي ضلالهم في عبادة الأصنام: " فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِـيرًا لَّهُـمْ لَعَلَّهُـمْ إِلَـيْهِ يَرْجِعُونَ" (الأنبياء: ٥٨)وكاد ينجح في مهمته مع قومه لـولا أنهـم نكسوا علي رؤسهم .. وهي " إبراهيم " أيضاً، في سورة مريم حينما رأي نفـسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه وأكرمهم عليه إلى الإيمان بدعوته "[٢٠١].

أمـا وحـدة الموضوع فهي بالجملة طلب " إبراهيم " وهو يباشر دعوته أن يقتنع

هو بها بينه وبين نفسه، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ثم عجزه عن إقناع أبيه وما تخلل ذلـك مـن إلقائه في النار، وإقدامه علي ذبح إسماعيل ونجاته من النار ونجاة ابنه من الـذبح، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة وأخيراً مشيئة الله وقدرته في الهداية والإرشاد..

هذه هي الوحدة القصصية في قصة إبراهيم ومثلها في قصص الأنبياء(١) وأمـا مَن يقـول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين، فإنما يعني تناقضاً، في حين أن التـناقض معـدوم، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق: وهي الاختلاف بـين قـضيتين في الكـم والكيف والجهة، والاتفاق بينهما في وحدات ثمانية: الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقوة والفعل والجزء والكل(٢).

وإذا أمعنّا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة علي ضوء هذه القاعدة المنطقية، فلابد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معاً . وإذًا فلا تناقض.. وذلك ما أردنا توضيحه فيما يتعلق بقضية قد شغلت حيّزاً في فكر المفكرين والباحثين نخلص إلى أن مـا توهمه البعض من أنه تكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني كما نودّ أن نقول إن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم، وإنما التكرار وقع عـلى بعـض الحلقـات في القـصة لـيس فيها كلها فورود القصة الواحدة – في معظم الحـالات – مكررة في مواضيع شتي لا يتناولها كلها – غالباً – إنما هو تكرار لبعض حلقاتهـا ومعظمـه إشـارات لموضـع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نـادراً، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه وهذا ما يؤكده علـماء التفـسير عـند ذكـرهم أسـباب النزول لكل قصة علي حدة وإن كانت جميعها مـتداخلة أو تمـثل مرحلة واحدة .. وأن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القـصة الواحدة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختـيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، علي أن هناك ما يـشبه أن يكـون نظامـاً بحـسب تـرتيب نـزولها – فمعظـم القصص يبدأ بإشارات

مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة – وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات – حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعرض منها"[٢٣]

وفيما عدا التحليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي " التكرار " وإنما هي التوزيع، ولنتتبع ذلك في بعض قصص القرآن:

١ - لنتأمل معاً قصة " موسي عليه السلام " في معارضها المختلفة استيضاحاً عند التزام البيان القرآني لمنهجه، وتقديرًا لتلك الخصيصة الفنية في القصص القرآني نلاحظ:

(أ) إن المواطن القرآنية التي ذكرت فيها قصة موسي - لا موسي فحسب – تبلغ إحدى عشرة سورة وهي: (البقرة – المائدة – الأعراف – يونس – الكهف – طه – الشعراء – النمل – القصص – غافر – النازعات) منها سورتان مدنيتان هما (البقرة والمائدة)..

ويلاحظ أن ما جاء في البقرة إنما هو في ثنايا قصة بني إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسي وغير موسي، فذكر طرف من قصة موسي معهم في سورة البقرة جاء عرضاً في أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم، وما كان منهم من عناد وصد عن دين الله، وكفران بأنعم الله سبحانه: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ " (البقرة: ٥٠)

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل أما هنا فهي مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني

إسرائيل بقيادة موسي – عليه السلام – علي مشهد منهم ومرأى، وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب"(١)".

(ب) إن السور التي تعرضت لقصة موسي منها عشرين مشهداً هي:

١- ما أحاط بولادة موسي من أحداث ودفعت فرعون إلى تقتيل من يولد ذكراً لبني إسرائيل.

٢- خوف الأم علي وليدها وما أوحي به الله إليها

٣- وقوع موسي في يد فرعون وموقف امرأته منه.

٤- إشفاق أمه عليه وبحثها عنه.

٥- إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المرضعات .

٦- بلوغه مرحلة الشباب وما كان منه في تلك الفترة، من معاونة الإسرائيلي علي قتل المصري، ثم فراره حين علم بائتمار القوم به .

٧- اتجاهه إلى مدين، والتقاؤه شيخ مدين، وتزوجه إحدى ابنتيه.

٨- عودته إلى مصر بأهله وما وقع في رحلة العودة.

٩- تكليفه بالرسالة، وتخوّفه من لقاء فرعون، وطلبه من الله أن يعينه بهارون أخيه.

١٠ – مواجهة موسي لفرعون

١١ - إيمان السحرة .

١٢ - خروج موسي ببني إسرائيل من مصر، وتعقّب فرعون لهم.

١٣ - مطالبة بني إسرائيل موسي أن يجعل لهم صنماً .

١٤ - دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة.

١٥ - معاقبتهم بالتيه .

١٦ - خروج موسي لميقات ربه مستخلفاً هارون في قومه .

١٧ - لقاء موسي بربه وعودته.

١٨ - غضب موسي لاتخاذ بني إسرائيل العجل.

١٩ - طلبهم رؤية الله جهرة .

٢٠ - استسقاء موسي لقومه.

هـذه هي قصة موسي مع بني إسرائيل من مبدئها إلى منتهاها، وهي لم تأت كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم، بل اشتملتها إحدى عشرة سورة واختصت كل سـورة بعـدة مشاهد منها – علي حسب ما يقتضيه السياق – بحيث تبدو في تفردها قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود.

فـإذا أخـذنا كـل حلقـة مـن تلكـم الحلقـات، ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسي كلها مع بني إسرائيل، متكاملة البنيان، متلاحمة النسج، تربطها الـوحدة بمخـتلف مظاهـرها – عـلي الرغم من توزعها هذا التوزّع – سواء وحدة الموضـوع، أو وحدة السياق التعبيري، أو وحدة الجو النفسي .... دون أن نري فيها تكـراراً، أو تحـتاج إلى توضـيح أو تبيـين، وهذا إحكام وقدرة لا طوق لمخلوق علي السير في طريقها[٣٠].

وسـنكتفي فـيما يـلي بعـرض المـشاهد الـسبعة الأولي (مـن الولادة إلى البعث) وسنجد أنها قدمت في سورتين في معارض مختلفة، وبتفاوت فيما بين كل موضع هما سورة (طه) وسورة (القصص).

أما لقطات (القصص) فيبرزها قوله تعالي:

١ - " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْـنَاءهُمْ وَيَـسْتَحْيِي نِـسَاءهُمْ إِنَّـهُ كَـانَ مِـنَ الْمُفْـسِدِينَ وَنُـرِيدُ أَن نَّمُـنَّ عَـلَى الَّذِينَ اسْتُـضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُـمْ أَئِمَّـةً وَنَجْعَلَهُـمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ".

٢ - " وَأَوْحَيْـنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ".

٣- " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

٤- " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ".

٥- " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ".

٦- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ".

٧- " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى

الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ"(سورة القصص: الآيات من ٤-٢٨).

ولقطات (طه) يبرزها قوله تعالي:

١، ٢: " وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .

٣: " فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي" .

٤: " إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ " .

٥: " فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ" .

٦: " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا " .

٧: " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ " (سورة طه: الآيات من ٣٧-٤٠).

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقتين من اختلاف بيّن، يقرره السياق: فالمشاهد في سورة القصص، بناء قصصي مقصود ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم، ويري فيها غير بني إسرائيل أنموذجاً بشرياً يحركه الصراع بين الحق والباطل ولكن الله يتدخل المرة بعد الأخرى ليوجه الصراع في الوجهة التي تحقق النصر في النهاية للحق وأعوانه..

أما في سورة " طه " فالمشاهد لا تعدو أن تكون إشارات سريعة تلفت نظر

موسي إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق، مما يؤكد له أنه سبحانه سوف يكون بجانبه في كل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشتقات، ولذلك فإن هذه المشاهد إنما جاءت بعد أن كلف موسي بتبليغ فرعون ما أرسل به إليه، فأبدى موسي عليه السلام تخوّفه من فرعون، وطلب من الله أن يشدّ أزره بهارون أخيه، فاستجاب له الله ممتناً عليه بفيض نعمه المتوالي، مشيراً بذلك إلى ما يستوجبه من تضحيات، في سبيل الله المنعم الكبير"[1].

فهي كما نرى – ليست تكراراً للقصة، ولكنها عدة إشارات اعترضت قصة موسي في سورة " طه " لما ذكرت من أسباب – ثم هي – كما نرى – حديث خاص إلى موسي عليه السلام يذكره بقدرة الله التي لا تتناهي ولا تحد . ومن ثم كانت تلكم اللقطات مجملة إجمالاً عجيباً . بحيث لا يكاد الإنسان يحسّ بأن هناك فاصلاً اعترض مسار الأحداث الطبيعي، وبحيث لا تسير المشاهد في طريق قلق، وإن كان هو المسار الطبيعي، فلو زادت هذه اللقطات بعض التفصيل لانقطع الخيط الذي يربط القارئ بالقصة الأصلية، ولو أجملت اللقطات أكثر من ذلك – وهو غير ممكن البتة – أو حذفت وسارت القصة في طريقها من غير اعتراض لأصبحت القصة قلقة، ولأصبح بناؤها مهلهلاً"[2].

لا شك أن توزيع القصة الواحدة في عدة سور يؤدي إلى اختلاف عوامل التأثير في النفس الإنسانية، وذلك لتجدّد الأسلوب في الأداء تجدّداً يمدّ المشاعر بنشاط لا يفتر. فهذا عرض جديد لقصة " نوح" في سورة (القمر)، وقد سيقت لإنذار المُعْرِضين عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم – بما أصاب قوم "نوح" أول المكذبين برسالات السماء – من نكال وعذاب . وهي في هذه السورة الحلقة الأولى من خمس حلقات جسّمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون في جو مفزع رهيب:

" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء

عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ "(القمر: ٩-١٦).

وأخصّ ما يمتاز به أسلوب العرض هنا: الإيجاز البليغ، والإيقاع الموسيقي السريع، ولا شك أن للرنين الصوتي أثره القوي في تصوير الحادثة، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولي للدعوة . فقد كان يعتمد علي الإيجاز والموسيقا اللفظية الأخاذة، وإبراز الحوادث لزلزلة المشركين من موقف العناد.

وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور، وهذا التوزيع مقصود في القرآن، لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتي المناسبات، وبمختلف الأساليب .

" ولا شك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في سورة أخري أثناء عرضها لتلك القصة نفسها، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها علي موطن القصة منها، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني "(٢٨).

وتوزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم في عدة سور هو من آثار خضوعها للغرض الديني، حيث تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك، علي النحو التالي:

أ- نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولي: حلقة ميلاد بطلها، لأن في مولده عظة بارزة وذلك مثل: قصة آدم (منذ خلقه) وفيها مظهر لقدرة الله، وكمال علمه، ونعمته علي آدم وبنيه .. ومثل مولد " عيسي ابن مريم ": وهو يعرض بتفصيل كامل، ذلك أن مولده هو الآية الكبري في حياته، وحول هذا المولد قام الجدل كله،

وعـنه تفـرعت كـل قـضايا المـسيحية قبل الإسلام وبعده... وقصة " مريم ": فقد نذرت لله وهي في بطن أمها، وتولي كفالتها زكريا، ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله، فكانت " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّـى لَـكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ "(آل عمران:٣٧)... ثم تطوي حلقاتها حتى تـأتي حلقة ميلاد عيسي، وهي الحلقة المهمة الثانية في حياتها، وقصة " موسي ": لأن لمـولده في عهـد اضطهاد بني إسرائيل، وتذبيح الذكور من أطفالهم، ونجاته هو من ذلـك مـع وجـوده بـين آل فـرعون أنفـسهم ... قـيمة خاصة في بيان رعاية الله له، وإعداده إعداداً خاصاً للمهمة التي سينهض بها، ثم تعرض من حياته حلقاتها ذات المغـزي.. و " إسـماعيل " و " إسـحاق " تعرض حلقة مولدهما، لأن في هذا المولد عـبرة . فـأولهما رزقـه إبـراهيم علي الكبر، وأسكنه – علي الرغم منه – بجوار البيت المحـرم، والـثاني بُـشِّر بـه وامـرأته عجوز . وقد بلغ من الكبر عتياً – وكذلك يذكر مولد يحيي لزكريا بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً"(١٩)

ب- ونجـد قصـصاً أخري تعرض من حلقة متأخرة نسبياً: فإبراهيم تبدأ قصته فتـي ينظـر في السماء فيري نجماً، فيظنه إلهه، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين . ثم ينظر مرة أخري فيري القمر، فيظنّه ربه، ولكنه يأفل كذلك، فيتركه ويمضي . ثم ينظر إلى الـشمس فيعجبه كبرها، ويظنّها – ولا شك – إلهاً، ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى، فيفـيء إلى ربـه الذي لا يُرى .. ويدعو أباه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يجيبونه، فـيحطم أصنامهم في غفلة منهم حيث يقولون: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْـرَاهِيمُ "(الأنبـياء: ٦٠)، ويهمون بإحراقه فينجيه الله منهم: " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "(الأنبياء: ٦٩).

جـ- ثم نجد قصـصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً: فنوح وهود وصالح ولـوط وشـعيب، وكثيرون غـيرهم، لا تعـرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة وهي الحلقة الوحيـدة التي تعرض من حياتهم، لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها(٢٠).

- وتوزيع القصة الواحدة في عدة سور من القرآن الكريم كان من دوافعه التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء [1].

- فالله سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسي في سورة (الأعراف، وهود، والشعراء) ولم يذكر معهم قصة إبراهيم، وإنما ذكرها في سورة (الأنبياء، ومريم، والعنكبوت، والصافات).

والسرّ في ذلك أن تلك السور الأولي ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم، ونجاة الرسل وأتباعهم. وهذه السور لم يقتصر فيها علي ذكر من أهلك من الأمم، بل كان المقصود ذكر الأنبياء، وإن لم يذكر قومهم، ولهذا سميت سورة الأنبياء، فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وبدأ فيها بقصة إبراهيم، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل " محمد "، و " إبراهيم " أكرمهم الله، وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، وليس هو أب نوح ولوط، ولكن لوط من أتباعه، وأيوب من ذريته، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام: " وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ " (الأنعام:٨٤).

وأما سورة (العنكبوت)، فأنّه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين، ونصره لهم، وحاجتهم إلى الجهاد، وذكر فيها حُسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة مَن كذّب الرسل، فذكر قصة إبراهيم، لأنها من النمط الأول.

وكذلك في سورة الصافات قال فيها: " وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ "(الصافات:٧٣،٧٢،٧١)، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر قصة " إلياس " دون غيرها، ولم يذكر إهلاك قومه، بل قال " فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ "(سورة الصافات:١٢٧). وقد روي الله رفع " إلياس "، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة، فإن " إلياس " لم يقم بينهم، و " إلياس " المعروف بعد " موسي " من بني إسرائيل، وبعد " موسي " لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد "

نـوح " لم يهلك جميع النوع، وقد بعث الله في كل أمة نذيراً، والله سبحانه لم يذكر عن قـوم إبـراهيم أنهـم أهلكـوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلهـا بـرداً وسلاماً، وفي هذا ظهور برهانه وآياته، حيث أذلهم ونصره، " فَأَرَادُوا بِـهِ كَـيْدًا فَجَعَلْـنَاهُمُ الأَسْـفَلِينَ "(الصافات:٩٨) . وهذا من جنس المجاهد الذي يعـرض عدوه، والقصص الأول من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هـذا لم يقـم بيـنهم بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتـى هلكوا، ولم يوجد في حق " إبراهيم" سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وانتظار العـذاب الـنازل، وهكـذا " محمد صلى الله عليه وسلم – مع قومه، لم يقم فيهم، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك، و" محمد " وإبراهيم " أفضل الرسل، فـإنهم إذا علموا حصل المقصود، وقد يتوب منهم من تاب، كما جري لقوم " يونس "، فهـذا التناسـق الفني والموضوعي – والله أعلم – هو السرّ في أنه سبحانه لم يذكر قصة (إبراهيم) مع هؤلاء، لأنها ليست من جنس واقعتهم "[٢٢].

فإن قيل: فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟

فالجـواب: أما حالة " إبراهيم " فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسع في هلاك قومه لا بالـدعاء ولا بالمقـام ودوام إقامة الحجة عليهم، وقد قال الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّـكُم مِّـنْ أَرْضِـنَآ أَوْ لَـتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِـنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَـنُهْلِكَنَّ الظَّالِـمِينَ وَلَنُـسْكِنَنَّـكُمُ الأَرْضَ مِـن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِـيدِ " (إبـراهيم: ١٣-١٤)، وكـان كـل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا، وقوم إبـراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام، وإنما فيها من الجزاء مـا تحـصل به الحكمة والمصلحة، كما في العقوبات الشرعية، فمن أرادوا عداوة أحد من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعـداءه بـل أخـزاهم ونـصره، فهـو أشـبه بإبراهيم عليه السلام، إذ عصمه الله من كـيدهم وأظهـره حتـى صارت الحرب بينهم وبينه سجالاً، ثم كانت له العاقبة فهو

أشبه بحال محمد – صلى الله عليه وسلم، فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله، والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرهما"[32] .

ومن دوافع توزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم، بيان ما ليس بيّنًا في نفسه: ومنه قوله تعالى:

أ- في قصة لوط: " فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ " (الحجر:٦٥)، فلم يستثن امرأته في هذا الموضوع، وهي مستثناة في المعنى بقوله في الآية الأخرى:

" فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ " (هود:٨١)، فأظهر الاستثناء في هذه الآية .

ب- في قصة ضيف إبراهيم:" إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ "(الحجر:٥٢)، اختصر جوابه لبيانه في موضع آخر: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " (الذاريات:٢٥) .

جـ- في قصة " صالح " مع ثمود: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " (النمل:٤٥)، تفسير هذا الاختصام ما قال في سورة أخرى: " قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ "(الاعراف: ٧٥).

د- وقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: " أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ " (القمر:١٠) بين في موضع آخر: " وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (الأنبياء:٧٧).

هـ- وقوله حكاية عن فرعون لعنه الله: " وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (سورة غافر من آية ٢٩). فرد عليه في قوله: " وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " (هود:٩٧)

و- وقوله: " وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ " (البقرة:٨٨) أي أوعية للعلم، فقيل لهم: " وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "(الإسراء:٨٥) .

ز- وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ "(الأعراف:١٤٣). قال فإن آية البقرة وهي قوله: " حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً "(البقرة:٥٥)، تدل على أن قوله، ولم يثبت في التوراة أنه سأل الرؤية إلا وقت حضور قومه معه، وسؤالهم ذلك[٣١].

ومن هذا العرض يتقرر أن القصص القرآني له سماته التي تميّزه وله خصائصه الفنية التي ترقي به عن متناول المخلوقين، وأنه لم يلابسه شيء من الخيال القصصي، ولم يدخل عليه شيء غير الواقع، إذ هو ليس عملاً فنياً مستقلاً، في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة أحداثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد . إنما هو - إلى جوار كونه عملاً فنياً - خاضع في موضوعه، وفي طريقة صوغه، وإدارة حوادثه لمقتضي الأغراض الدينية، ومع ذلك فإنه ليشتمل - مع قيامه على الحقائق المطلقة من ألوان الإثارة والتشويق ما لم يشتمل عليه غيره من القصص.

وبتعبير آخر نقرّر أن القصة القرآنية تخاطب العقل بأصدق منطق وأوضحه وهي في الوقت ذاته تخاطب الوجدان والمشاعر بأقرب حديث إليها وأحبه - كما هو الشأن في سائر التعبيرات القرآنية - إذ يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير في الوجدان، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والوجدان الذي يدرك الجمال الفني الرفيع ويتأثر به يصبح وجداناً حسن الاستعداد لاستقبال المؤثرات الدينية والتأثر بها.

" ومن ثم كانت الوحدة في القصة القرآنية علي غير ما عهد المخلوقون من أدباء ونقاد، فهي وحدة في الموضوع، ووحدة في الجو، ووحدة في النسق، ووحدة في المنهج التأثيري، ووحدة في المسار القرآني علي عمومه، فالقصة في سور القرآن جزء منها متلاحم أتم التلاحم لا نحس تبايناً، ولا نجد افتراقاً، فالقصة في السورة مثل الآية فيها، تمثل اللبنة في البنية المحكمة القوية "[٣٢].

ب- القصة الكاملة في القرآن الكريم:

هناك قصص وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم، ولم يتم توزيعها في حلقات علي سور القرآن الكريم مثل بقية قصصه، كقصة " البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في " سورة البقرة "، وقصة أصحاب القرية في سورة " يس، وقصة نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب في سورة " ص "، وقصة " موسي والخضر، وكذلك قصة أصحاب الكهف " وصاحب الجنتين، وذي القرنين وغيرها، لكن الأمر يختلف في قصة يوسف للأسباب الآتية:

أولاً: انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور، سميت باسم " يوسف " الذي تدور حوله معظم أحداث القصة ... وهذا ما لم يكن لأية قصة أخري من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام، الذي سميت باسمه سورة من قصار السور، هي سورة نوح، علي حين أن بعض الأنبياء قد سُميت بعض السور باسمهم كسورة هود وسورة إبراهيم، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء [٣٦].

ثانياً: جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم، وفي ثمان وتسعين آية، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء، حيث تتعدد المعارض، وتتوزع المشاهد في كل قصة، فالقصص القرآني – غير قصة يوسف – يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً. أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً..

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداء كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة [٣٧].

وقد علّل " الزركشي " ذلك بوجوه منها:

أ- مـا فـيها من تشبيب النسوة به، وتضمّن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبـدع الـناس جمـالاً، وأرفعهـم مـثالاً، فناسـب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والـستر عن ذلك، وقد صحّح الحاكم في مستدركه حديثاً مرفوعاً: النّهي عن تعليم النساء سورة يوسف.

ب- إنهـا اختصت بحصول الفرج بعد الشدّة، بخلاف غيرها من القصص، فإن مالهـا إلى الوبال، كقصة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهـم، فلما اختـصت هذه القصة في سائر القصص: بذلك اتفقت الدواعي علي نقلها لخروجها عن سمت القصص.

جـ- إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلي الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقـاء نفسي تـصديره عـلي الفـصاحة، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء "[٣٨].

أمـا " الأوسي " فـيقول: " إنّ قـصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذّبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن عـن تكذيب الكفار للرسول – صلي الله عليه وسلم –، فلما ساق موقفاً من مواقف الـتكذيب ساق في أثره قصة منذرة بحلول العذاب لما حلّ بالمكذبين، وقصة يوسف علـيه الـسلام لم يقـصّد مـنها ذلك، وبهذا أيضًا يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقصة موسي مع الخضر، وقصة الذبيح ".

" وقـد اعـتُرض بأن قصة آدم عليه السلام كُرّرت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهـلاك مـن كذّبوا رسلهم: وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فـيها مـن الزجـر عـن المعـصية ما يجعلها أشبه ما تكون بتلك القصص التي كررت لذلك "[٣٩].

ثالـثاً: إذا كـان للمـرأة مكـان بـارز في قصة يوسف، وإذا كان دور المرأة في تلك القـصة هو الدور الذي يشتهيه الرجل منها، ويشوّقه الحديث الذي يعرض لوسائل

كيدها، وأساليب إغرائها، وشباك مغامراتها – فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً ليملأ فراغاً فيها.. أو ليلطّف من جوّ المأساة التي ضمّت عليها، أو ليجدّد نشاط المتلقي لها ... وإنما كان حدثاً جارياً مع اتجاه أحداثها، في الصراع بين الخير والشر، فيما بين الناس عامة، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة ... وصدق القرآن في نقله للأحداث، وبلاغته في عرضها، هو الذي يعطي القصة القرآنية هذا الجلال، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلاته ضراعة وخشوعًا، وأن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطي الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له..

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل، والإحسان، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان[1].

والذي نجده في قصة يوسف من روعة البيان وجلال العرض، ومن سموّ بالعاطفة، واستعلاء بالنفس علي الشهوات، وقيادتها إلى موقع الخير علي طريق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره – نجده كذلك في قصة أصحاب الكهف، أو قصة موسي والعبد الصالح مثلاً، وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ولا يشار إليها من قريب أو بعيد..

رابعاً: في هذه القصة، كما هو الشأن في معظم القصص القرآني يتجلّى سلطان "القدر" حيث تجري الأحداث في مجري يري الناس منه ما يكرهون أو يحبون، حسب ما يحسبون ويقدرون، ثم تجئ الخاتمة علي غير ما حسبوا وقدّروا، إذ الذي حسبوه خيراً هو شر، وإذا الذي ظنّوه شراً هو خير، مصداقاً لقوله تعالى:" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ"(البقرة:٢١٦).

خامساً: تتحرك الأحداث في قصة يوسف حركة مسايرة لحركة الزمن، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالي، كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع

مسيرة الزمن... فالصغير يكبر والكبير يشيخ ويهرم، والعواطف الشابة الحارة الثائرة تبرد وتهدأ.. وهكذا تظهر بصمات الزمن على وجوه الناس، وعقولهم وقلوبهم، كلما خطا بهم الزمن خطوة إلى الأمام .. فالزمن عنصر له مكانه، وله وزنه وحسابه في تلك القصة"[1].

سادساً: إن قصة يوسف هي القصة القرآنية التي جاء في صدرها قول الله تعالى: " نحن نقص عليك أحسن القصص"، ولذلك نجد من يستند على هذه المقدمة ويقول: " إن قصة يوسف – من حيث البناء القصصي – هي أجود قصة في القرآن، ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال:" نحن نقص عليك أحسن القصص ...."[2].

وهذا القول معناه أن غير قصة القرآن أقل جودة وأضعف فناً، وهو نقد وحكم على القصص لا يتفق مع إعجازه وتحدّيه، لأن القرآن حين تحدّى العرب أن يأتوا بمثله لم يقف من مسائل التحدّي عند حدود غير القصص، لقد تحدى بالقرآن كله قصصاً وغير قصص، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتماً، و إلا لجاء أحد كتاب القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر فنية حسب المصطلح علية بين المحدثين، من كتاب القصة ويكون بذلك قد كسرّ التحدّي بالقصص القرآني الذي أنزل للبشرية في كل عصر، فإعجازه وتحدّيه لا يقتصر علي العرب، ولكنه يمتدّ إلى البشرية في كل العصور.

" والخطأ ومنشؤه كامن في الحكم علي القرآن بمعيار اصطلاحي لجودة القصص يشترط وحدة الموضوع وإحكام التصميم وجودة الحبكة والانتفاع بالحوادث الاستطرادية، والقرآن هو المرجع، وهو الحكم في كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو غير قصص، فناً أو غير فن "[3].

سابعاً: إن قصة يوسف تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل الأنموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً.. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا

أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء[٤٤]:

أ- أشخاص القصة:

أشخاص القصة هنا – على طولها – يكادون لا يتجاوزون بيت يعقوب إلا بالقدر الذي تطوّرت به الأحداث حين أصبح بطل القصة بعيداً عن أهله، ومع ذلك نلاحظ أن الأشخاص يقدَّمون على حسب الحاجة إليهم في القصة، فليسوا جميعاً على مستوى واحد، فالمنهج في تقديم الأشخاص إن هو إلا منهج قرآني خاص به، يشفّ عن جانب من الإعجاز البياني، حيث يلتزم بتقديم الشخصية في الحدود التي يحتاجها دورها في القصة، وفي الوقت الذي تطلبها فيه، دون تقصير أو إطالة وتزيد[٤٥] .

إن القصة تعرض شخصية يوسف – عليه السلام – وهي الشخصية الرئيسة في القصة – عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات، وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسة في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء.. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتي المواقف وشتي الشخصيات .. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "(يوسف: ١٠١) .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسة في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلى أبعاد

متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في نماذج متنوعة: أنموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول.. وأنموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

وأنموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها ووضوح انطباعات البيئة ..

وأنموذج النسوة من طبقة العلية في مصر، والأضواء التي تلقيها على البيئة، ومنطقها كما يتجلّى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها،كما يتجلّى في سجن يوسف بصفة خاصة .. وأنموذج " العزيز " وعليه ظلال طبقته، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه، فتتضح في شخصيته طبيعة سمت الإمارة، ثم ضعف النخوة وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها، وفيه تتمثل كل خصائص بيئته.. وأنموذج " الملك " في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق .. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر .. ومع استيفاء القصة لكل ملامح " الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة .. فإنها تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة .. المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، فقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري، بما فيها لحظة الضعف الجنسي. ودون أن تزوّر – أي تزوير – في تصوير النفس البشرية بواقعيتها

الكاملة في هـذه المواقـف، ودون أن تغفـل أيـة لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقـف، فإنهـا لم تـسف قـط لتنشئ مستنقعاً مقززاً للفطرة السليمة، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل في تنوع الشخصيات وتنوع المواقف "[1] .

بـ أحداث القصة:

والواقعـية الـصادقة الأمـيـنة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعـية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوي الـرائع، ولكـنها تـتجلّى كـذلك في واقعـية الأحـداث والـسرد والعرض وصـدقها وطبيعـتها، في مكانهـا وزمانهـا، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجـة وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها وتجئ في مكانها من مـسرح العـرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الـحياة بها..

حتـى لحظـات الجـنس في القـصة ومـواقفه أخذت مساحتها كاملة – في حدود المـنهج النظـيف اللائـق " بالإنـسان " في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البـشرية في شـموها وصـدقها وتكاملهـا – ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسـقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري. وكما لو كانت هي محور حياته كلها "[7] فلا شك أن هناك مواقف كثيرة كانت بين امرأة العزيز وفتاها، ولكن شيئاً من ذلك لا علاقة له بمسار القـصة، ولذلك أسدل عليه الستار، حتى يخيّل للناظر أن موقف المراودة لا غير هو الـذي كان ... كما أن البيان القرآني يتجاوز الحديث عن تسرّب نبأ المراودة من قصر العزيـز إلى نـساء المديـنة . إذ لا يـضيف ذلـك للقصة جديداً، بل إنه يعترض تحرّك القـصة في مـسارها الطبيعـي، فهـي أحداث ومواقف استطرادية لا تتعلق بالحدث الـرئيس، ولا تـضيف إلـيه مـا ينمّـيه ويطـوّره في الـسبيل القصصي، فالفنّية البيانية ترفض الاشتغال بأي شيء من ذلك في هذه القصة"[8].

وعـلي العكـس مـن ذلـك، فـإن كل ما تناولته القصة والأحداث والمواقف يمد

الحدث الرئيس بزاد ينمو به في مساره المخصوص به، فتنشئة الغلام في بيت العزيز تقوّي آصرة المرأة به، بما يطمّعها فيه، ويغريها به، ويوقعه في محنة تصهر نفسه وتخلّصها من أوشابها وأوضارها، حيث يصلّ به تماسكه أمامها إلى السجن وظلماته، وهو صابر على كل ما يعانيه دون أن يستسلم لدواعي الخيانة، تمهيداً لأن يتولّى أخطر منصب في الدولة في أعصب وقت تمرّ به البلاد.. فتماسك يوسف أمام المراودة والإصرار عليها، والتهديد بسببها لا تهدف القصة من ورائه إلى بيان عفّة يوسف، فهذا غرض جانبي لا تقوم عليه لذاته، وإنما هي تهدف إلى أن هذا الموقف اليوسفي رشّحه لأن يكون على خزائن الأرض، لأنه كما قال للملك - حفيظٌ عليم، وقيامه على خزائن الأرض منحه فرصة الالتقاء بإخوته القادمين للحصول على الزاد.. وهكذا تحرّكت القصة من هذا المنطلق إلى نهايتها.. فتأبّي يوسف علي الخيانة ليس خصوصية له؛ إذ جميع الأنبياء والمرسلين صفوة مختارة من بين الناس، يتميزون علي غيرهم باشتمالهم علي صفات الخير جميعها، وتأبيهم علي صفات الشر جميعها، فليس يوسف في ذلك فلتة، لكن البيان القرآني ركز في قصة يوسف علي تلك الصفة لأنها تسلم إلى الأحداث التالية وتنميها، لتصل إلى تحقيق رؤياه التي رآها في طفولته "(١)". فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها، الذي يواجه تكذيب قريش بالوحي إلى رسول الله – صلي الله عليه وسلم – بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – حاضراً وقائعه:

" ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ "(يوسف:١٠٢).

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

" نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ "(يوسف:٣).

والتقديم والتعقيب علي هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً من المؤثرات الكثيرة في سياق القصة، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها، وتوكيدها، في مواجهة الاعتراض

والتكذيب.. وما يسمي بالعقدة الفنية واضح في القصة، فهي تبدأ بالرؤيا يقصّها يوسف علي أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألا يقصّها علي إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له ... ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنها هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهي السياق القصة، وبذلك تجيء الخاتمة فتحلّ العقدة حلاً طبيعياً لا تعمّل فيه ولا اصطناع(**).

وهكذا تتلاحم مواقف القصة ومشاهدها تلاحماً عفوياً طبيعياً، لا قلق فيه، ولا اصطناع، في أحداثها ولا اضطراب في تتابعها، ولا انحراف في مسارها، بحيث لا نعثر في حياة يوسف علي حدث يفيد تلك القصة إلا وجدناه في مكانه منها بالقدر الذي يحتاجه البناء القصصي.

ثامناً: الجانب النفسي في القصة:

من المناسب القول إنّ قصة يوسف في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً، فهي لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها (**) تنتصر للإيمان، للصبر، للعفاف، للأمانة، للإخلاص ..

وقد أبرزت صراع النفس أملاً في الحظوة، أو إشباعاً لظمأ الحبّ، وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السنّ، وفي المكانة الاجتماعية . ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها: كالبراءة، والحسد، والعلم، والحكمة .

" وهكذا فإن الدارس لهذا القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها، فنحن نلحظ كلمة الصبر مثلاً، كانت دائما على لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الإيمان على لسان إخوته . كما نلحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها . كالتّبرير والإسقاط والكذب والغيرة، والقلق، والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس " آيات عقلية "، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته "

فإخـوة يوسـف مـثلاً ظلـوا ضـحايا الكـبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في الـتخلّص من يوسـف، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبـتها، بـل كثـيرا مـا تبدو فيها يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك في حسن نيّاتهم عندما دعوا يوسف أن يلعب . فقال لهم:

" وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (يوسف:١٣)

وكـان مـن نتـيجة هـذا الكـبت ومعاناتـه أن انحرفوا بتفكيرهم .. فكل ما كان يهمّهـم تحقـيقه هـو أن يحولـوا بين يوسف وأبيه، فاتّفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالـدم، وادّعـاء أن الـذئب أكلـه لما ذهـبوا يتـسابقون وتركوه عند متاعهم . ولكن التلفـيق كـان واضـحا، لأن القمـيص لم يكـن ممزقا بآثـار أسنان الذئب، مما جعل يعقـوب لا يـصدقهم . ولهـذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصّوا آثار أخيهم، ولو أنه صدّقهم في دعواهم لما أصرّ على أن يقتفوا آثاره ..

وقـد وقعـوا في حالة (التبرير) كما يفعل الذئب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبيّن لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة، فهم يقولون: " قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَـسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " (يوسف:١٧) .

وإذا كـان " الإسـقاط " هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين .. ويهمـه بالدرجـة الأولى أن يلـصقها بمـن يظن أنه ينافسه مباشرة، وإذا كان هذا هو مفهـوم الإسـقاط في علـم الـنفس، فـإن القـرآن الكـريم روى ذلك عــن إخـوة يوسـف،حينما دسّ يوسـف صـاع الملـك في مـتاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة الـسرقة ليـستبقيه، دون أن يكـشف لهـم عن شخصيته . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم:

" إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ " (يوسف:٧٧)

ولـو استقـصينا لـوجدنا في الـسورة آيـات أخـرى تـتحدّث في بساطة عن أدقّ النظريات لعلم النفس الحديث (٥٢).

تاسعاً: الإعجاز البياني في القصة:

أن المتأمل في بناء القصة يجد أن التلازم بين أحداثها ومواقفها و محورها، ليس هو مظهر الإحكام والتناسق في البناء القصصي فحسب، بل يجد أن من ذلك – كذلك -- التلاؤم بين الأحداث والمواقف وبين العبارات البيانية، فالعبارة القرآنية تؤدي في ذلك المجال دوراً مهماً، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها، فهي بمعناها وإيماءاتها وظلالها كيان حيّ في جسم القصة النابض:

١ – نلمس ذلك في نداء يوسف أباه في مبتدأ القصة حيث كان غلاماً صغيراً، بقوله: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً ... " وفي خاتمة القصة حيث كان رجلاً مكتملاً مستولاً بقوله: " يا أبت هذا تأويل رؤياي ..." فالتاء توحي بتعلق يوسف بأبيه، وما يكنّه له من حبّ وودّ لا يتأثران بمرور الزمان ولا بتغيّر الأحوال، فيوسف عزيز مصر أمام أبيه هو يوسف الطفل الذي يقصّ رؤياه على أبيه. وفارق بين يوسف في ذلك وبين إخوته الذين شابت عاطفتهم نحو أبيهم شوائب المادة فلم يروا فيه سوي أب فقالوا: ... يا أبانا استغفر لنا..." وبذلك فإننا مع يوسف نكاد نري عاطفة البنوة شاخصة محسوسة.

٢ – ونلمس ذلك في الفجوة بين حديث الابن مع أبيه وتآمر الإخوة التي تحدثها " لقد " في قوله تعالي:" لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين .." فبالإضافة إلى معناها اللغوي الذي يمنحه التعبير من تحقيق وتأكيد لما يليها من أحداث تهيّئ الذهن إلى أن هناك تغيراً في العواطف البشرية وانتقالاً من الحبّ الأبوي الخالص إلى غيرة الإخوة وتحاسدهم المتمثلين في تآمرهم علي يوسف، وتومئ إلى أن هناك مشهداً في القصة خطيراً يوشك أن تبدأ أحداثه "(٣)"

٣– ونلمس ذلك في قوله تعالى:" قال قائل منهم ..." فإسناد القول إلى قائل من الإخوة بدلاً من إسناده إلى واحد منهم أو نحو ذلك، يومئ إلى أن هذا القول كان في أثناء نقاش، وأخذ ورد بين الإخوة فيما يصنعونه للتخلّص من يوسف، فهو قول مسبوق، بأقوال، صدر من بعض القائلين.

٤-ونلمس ذلك في قوله تعالى على لسان هذا القائل من إخوة يوسف: " ... إن كنتم فاعلين "، فتعليق رأيه على هذا الشرط يوحى بأنه غير موافق على التخلّص من يوسف، وإنما هي الاستجابة لرأى الأغلبية، والإذعان عن غير اقتناع ..

٥- ونلمس ذلك في عبارة يوسف: " معاذ الله إن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... " .. ولم يقل: إلا من سرق، فأتى بالعبارة الدقيقة التي تؤدى الغرض منها معرض الحديث، والتي لا يخرج بها يوسف على الواقع المجهول، وهى براءة أخيه من السرقة، فعبارة " من وجدنا متاعنا عنده " لا تنفي التهمة فتكشف خطة يوسف، ولا تثبتها فيكون متجنيًا على برئ ..

٦-ونلمس ذلك في قوله تعالى: " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه .." حيث أُقحمت (أن) بين (لما)، و (جاء)، لتضيف إلى المضمون اللغوي إيحاءً بأن هذا الحديث الغريب المعجز كان متوقعا " فلما أن جاء البشير " فكأنّ هناك من ينتظر هذا المجيء، فلما تحقق ذلك المنتظر ترتب عليه ما ترتب من إلقاء البشير قميص يوسف على وجه أبيه، ويرشح هذا الإيحاء أن يعقوب كان يحسّ في داخله بشيء من ذلك، فهو القائل لبنيه حين فصلت العير: " إنى لأجد ريح يوسف " فالتوقع كان موجودا، ولا يناسب ذلك الحال تعبيرا عما حدث بدون (أن)، كما أن مجيء (أن) في الجملة يمدها بإيحاء آخر يكشف عن طول السفر وبُعد مابين يوسف وأبيه، فزمن المجيء ليس مستمرا ولكنه مقطوع لطوله، فهو مراحل، وكلمة (أن) هي التي تعطى هذا الإيحاء ... " فلما أن جاء البشير "، فالجملة بدون (أن) لا تحمل هذا الإيحاء،ومن ثمّ كانت (أن) هنا ضرورية لإعطاء المتلقي تصويرا للفعل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه.

وهكذا يتقرّر لدى من يتأمّل البيان القرآني أن هناك وحده شاملة تسري في خلال القصة، بحيث لا تنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة، ولا يشذ فيها موقف واحد عن المقصد منها، وبحيث لا يفتقد المتأمل فيها من المؤمنين أسباب الهدى والرحمة .

عاشرا: ومن لطائف التناسق:

في الأداء القرآني في هذه القصة، تكرر عبارات معينة تؤلف جزءا من جو القصة وشخصيتها الخاصة "١" ، ومن نماذج هذه اللطائف:

١ – ذكر العلم كثيرا، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى

-" وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ".

-" وَكَـذَلِكَ مَكَّـنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ "

-" وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " .

- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .

-" قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي " .

-" قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ " .

-" يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " .

- " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ "

- " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " .

- " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ "

-" وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ " .

-" قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " .

- " قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ " .

-" فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ " ..

-" وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " .

- " عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "

- " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "

- " قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ".

-" قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " .

-" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ "

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في قصة يوسف"[١]

٢ – ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيّس اللطيف المدخل، صفة الله المناسبة ... " اللطيف " .. في الموقف الذي يتجلّى فيه لطف الله في التصريف:

" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (يوسف: ١٠٠).

وهكذا بدأت قصة يوسف وانتهت في سورة واحدة، وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويدًا رويدًا، ويومًا بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها – كما لا يتمّ التنسيق الفني فيها – إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في

موضـع لا يحقّق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين، كحلقة قصة " سليمان " سبأ، أو حلقة قصة مولد " مريم " أو حلقة قصة مـولد " عيسى "، أو حلقـة قـصة " نـوح " والطوفان ... إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم:

" نَحْـنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (يوسف:٣).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٥٥.
(٢) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٥.
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ص ٥٥.
(٤) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٦.
(٥) سورة القمر من آية ١٧. وانظر الزركشي: البرهان. جـ ٣. ص.
(٦) في قوله تعالى في سورة طه آية ٢٠" فألقها فإذا هي حية تسعى".
(٧) في قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٠٧: " فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين "
(٨) انظر: الزركشي، البرهان. ج٣. ص ٢٦-٢٨.
(٩) الخطابي: بيان إعجاز القرآن. ص ٥٢.
(١٠) القاضي عبد الجبار: المغني ص ٤٠٠. تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
(١١) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٤.
(١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.
(١٣) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ١٤٤، طبعة أولي، القاهرة. وهو قول صحيح في الجملة، بيد أنهم اخطأوا وجه الحكمة فيه، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم، فقد كان في اليهود شعراء فصحاء كالسموءل وكعب الأشرف وغيرهما، وكان لشعر اليهود باب متميز في الرواية بعد الاسلام. والعرب يعدون اليهود منهم وإن كانت الدار واحدة .. والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعاً، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك.
انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٥.
(١٤) قارن سورة الشعراء: الآيات ٦٧و ١٠٣و١٢١و١٣٩و١٥٨و١٧٤و ١٩٠.
(١٥) د. درويش الجندي: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، ص ٢، طبعة نهضة مصر ١٩٦٩.
(١٦) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١١٦.
(١٧) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٤.
(١٨) المرجع السابق ك ص ١٩٧.
(١٩) المرجع السابق: ص ١٩٧.

(٢٠) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٧٤.
(٢١) المرجع السابق، ص ١٧٤.
(٢٢) سعد الدين التفتزاني: تهذيب المنطق. ص ١٥٦ – مصر ١٣١٥هـ.
(٢٣) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٣٠٦.
وانظر ايضاً: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٨-١٢٩.
(٢٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ١. ص٧١.
(٢٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٨ –١٣٩
(٢٦) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٩ – ١٤١.
(٢٧) المرجع السابق، ص ١٤٢.
(٢٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٠٧.
(٢٩) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٤-١٣٥.
(٣٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٦.
(٣١) المرجع السابق. ص ٧٦.
(٣٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثالث، ص ٣٠ و ٣١.
(٣٣) المرجع السابق: ص ٣٢.
(٣٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثاني، ص ١٩٤ – ١٩٥.
(٣٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٦٢.
(٣٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٦٤٠
(٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٩٥١.
(٣٨) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ٣، ص ٢٩ – ٣٠.
(٣٩) د. فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. ص٤٤، ط١ . مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥.
(٤٠) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٤٧.
(٤١) المرجع السابق: ص ٤٨.
(٤٢) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣١٤.
(٤٣) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٥٣.
(٤٤) سيد قطب: في ظلال القرآن،جـ٤، ص ١٩٥١.
(٤٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٨٤-٨٥.
(٤٦) سيد قطب: في ظلال القرآن. جـ ٤، ص ١٩٥٢.
(٤٧) المرجع السابق. ص ١٩٥٩.
(٤٨) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٢.

(٤٩) المرجع السابق: ص ٩٣.

(٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٩٦٥.

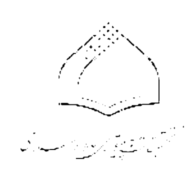
(٥١) د. التهامى نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥١٤ و ٥١٦.

(٥٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٥١٧.

(٥٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٦-٩٨.

(٥٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٦.

(٥٥) المرجع السابق، ص ١٩٦٧.



الإعجاز البلاغي والبياني في قصص القرآن الكريم

مفهوم الإعجاز في القرآن الكريم:

" الإعجـاز لغـة مصدر أعجز وأعجزه إذا أوقعه في العجز. وهو مصدر مضاف إلي فاعله . والمفعول محذوف، وهو البشر، أو الإنس والجن معاً، والنسبة هنا مجازية، فقـد عجـز الإنـس والجـن عـن أن يأتوا بمثل هذا القرآن"[1]. ويقول ابن منظور في معنـي المعجـزة: " والمعجـزة بفتح الجيم وكسرها، مُفْعلَة من العجز: عدم القدرة . وفي الحديث: كل شيء بقدر، حتي العجز والكيس . وقيل أراد بالعجز ترك ما يجب فعله بالتسويف، وهو عام في أمور الدنيا والدين. والمعجزة: واحد معجزات الأنبياء عليهم السلام" [2].

أما الإعجاز عند أهل الاصطلاح: " فهو الحجة التي يقدمها القرآن إلي خصومه من المشركين ليعجزهم بها" [3].

أما عندما نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لـ (حجـة) الـدين، وإدراك المـسلم لـ (حجّة) الإسلام بخاصة، فلابد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الإسلام واليهودية.

فإذا نظرنا إلي الآيات التي تدل علي الإعجاز في القرآن الكريم، وإليه تلفت النظر فإنـنا نجدها كثيرة رغم أنها اقتصرت علي التحدي علي طلب المعارضة بمثل القرآن كلـه كما في قوله عز وجل: " قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لاَ يَأْتُـونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (سورة الإسراء:٨٨)، ثم طلـب الإتيان بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس

إلا النظم والأسلوب، وهم أهل اللغة، وذلك في قوله تعالي: " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ " (سورة هود ١٣-١٤). ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك بجملة واحدة، فقال عز وجل: " وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "[١]..

وبذلك قطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله عزّ وجل، وهو ذو القوة والحول الذي لا رادّ لأمره.

وفيما يتعلق بآراء قدامي المفسرين من أن " التحدّي " كان علي الترتيب بالقرآن كله، ثم بعشر سور ثم بسورة واحدة. فإن هناك من المفسرين المحدثين مَن يري أن هذا الترتيب ليس عليه دليل. بل الظاهر أن سورة يونس سابقة، والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدّي فيها بعشر سور.. فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول. إلا أن هذا لا يحتاج إلي ما يثبته، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز "[٢].

ويقول " محمد رشيد رضا " في تفسير " المنار": " قال بعض علماء الكلام أن الله تعالي تحدّي الناس أولاً بالقرآن في جملته في آية " الإسراء" ثم تحدّاهم بعشر سور مثله في آية هود ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية " يونس " وكل ذلك بمكة. ثم بسورة من مثله في آية " البقرة" بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول، والظاهر أن التحدّي في سورتي يونس وهود خاص ببعض أنواع الإعجاز، وهي ما يتعلق بالأخبار كقصص الرسل مع أقوامهم، وهو من أخبار الغيب الماضية التي لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه، كما قال تعالي عقب " قصة نوح" من سورة هود:" تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ

قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (سورة هود: ٤٩) ... وكما قال في سورة القصص عقب قصة موسي" وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (سورة القصص: ٤٤-٤٦).. وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة مريم: "ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (سورة آل عمران: ٤٤).

ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة، هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة" [١].

أي أنه يقصد بالتحدي هنا القصص القرآني، وإنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلي وقت نزول سورة هود كانت عشرا. فتحداهم بعشر.. أي أن تحدّيهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحدّيهم بعشر نظراً لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدّي إلي عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكّن من المحاكاة، إن كان سيحاكي.. والأفضل هنا القول إن الحالات الثلاث لم يسقها القرآن لتنشئ الحجة، وإنما جاءت إعلاناً هنا، وإشهارًا لوجودها في سائر القرآن، كيما تؤتي تأثيرها في العقول والقلوب.

ويقول الباقلاني عن الإعجاز في القرآن الكريم: " لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفّت عن الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم.. ولو لم يكن إلا من حديث من سورة لكفي، وأقنع وأشفي... ولو عرفت قدر قصة موسي وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينّة سواها" [٢].

فهو هنا لا ينظر إلي إعجاز القرآن في عدد سوره وإنما يغوص إلي المعني، ولو كان

في آيـة واحـدة إذ يـري فيها ما يكفي من الإعجاز: أما عن رأي السكاكي في إعجاز القـرآن فيظهـر في قـوله إن: " المـنقول عـن العـربي في حق كلام رب العزة إن له لحـلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأن أعلاه لمثمر، وأنه يعلو وما يعلى، ومـا هـو بكـلام البشر، فتستغني بذلك عن قرع باب الاستدلال، وأن لا تتجاذبك أيـدي الاحـتمالات في وجـه الإعجـاز.. لاشـك أن قارعـي بـاب الاستدلال بعد الاتفـاق عـلي أنه معجز مختلفون في وجه الإعجاز – فمنهم من يقول وجه الإعجاز هو أنه عز وجل صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله بمشيئته إلا أنها لم تكن مقدوراً عليها فيما بينهم في نفس الأمر، ولكن لازم هذا القول كون المصروفين عـن الإتـيان بالمعارضـة عـلي التعجب من تعذر المعارضة لا من نظم القرآن مثله .. ومـنهم مـن يقـول وجـه إعجـاز القـرآن وروده علي أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهـم في خطـبهم وأشـعارهـم.. لكن ابتداء أسلوب لو كان يستلزم تعذر الإتيان بالمثل لاستلزم ابتداء بالمثل واللازم كما نري منتف .. ومنهم من يقول وجه إعجازه سـلامته مـن التـناقض . ولكـنه يـستلزم كون كل كلام إذا سلم من التناقض وبلغ مقدار سورة من السور أن يعد معارضة، واللازم بالإجماع منتف.. ومنهم من يقول وجـه الإعجـاز الاشـتمال عـلي الغـيوب. لكـنه يـستلزم قـصر التحدي علي السور المشتملة عـلي الغـيوب دون ما سواها، واللازم بالإجماع أيضاً منتف .. فهذه أقوال أربعـة يخمـسها مـا يجـده أصـحاب الـذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس الـبلاغة والفـصاحة وهذا لا يتأتي بفضل إلهي بهذين العلمين يهبهما الله بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل ميسر لما خُلق له، ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه"[8]

ويقول " عبد القاهر" في دلائل إعجازه: لقد أعجز القرآن العرب بمزايا ظهرت لهـم في نظمـه وخـصائص صـادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعهـا، ومجـاري ألفاظهـا ومـواقعها، وفي مـضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصـورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة برهان، وَصِفَةٌ، وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا

في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يري أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور. ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم ... "[9].

تلك كانت خلاصة آراء قدامي المفكرين الإسلاميين حول مسألة إعجاز القرآن الكريم وهي وإن كان يبدو في ظاهرها بعض التباين إلا أنها جميعاً تؤكد إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه ونعته وتفرده في ذلك. أما فيما يتعلق بآراء المحدثين في هذا الشأن فهم وإن كانوا لا ينكرون على الإطلاق ما ذهب إليه أسلافهم إلا أنهم يدلون بدلوهم في هذا المجال من منظور تطور المجتمعات الحديثة، وانتشار الأفكار المختلفة والثقافات الوافدة إلي الإسلام والمسلمين. ومن أفضل ما قيل في هذا الشأن ما نوجزه فيما يلي حيث يذكر الكاتب: إنه " لابد من إعادة النظر في قضية الإعجاز في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح"[10].. ورغم ما يبدو في القضية من تعقد، بسبب موقفنا التقليدي إزاءها، فإننا نعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالي: " قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ " (سورة الأحقاف: من آية ٩) فإذا اعتبرنا هذه الآية علي أنها حجة يقدمها القرآن للنبي كي يستخدمها في جداله مع المشركين، فلابد أن نتأمل محتواها المنطقي من ناحيتين:

فهي تحمل، أولاً، إشارة خفّية إلي أن تكرار الشيء في ظروف معيّنة يدل علي صحته، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته كـ (ظاهرة) بالمعني الذي يسبغه التحديد العلمي علي هذه الكلمة: فالظاهرة هي (الحدث الذي يتكرر في نفسه والنتائج كذلك).

وهي تحمل في مدلولها، ثانياً، ربطاً بين الرسل والرسالات خلال العصور، وأن الدعوة المحمدية يجري عليها أمام العقل ما يجري علي هذه الرسالات. ومن هذا نستلخص أمرين:

إنه يصح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات.

كما يصح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد - صلي الله عليه وسلم - علي قاعدة أن (حكم العام ينطبق علي الخاص قياساً، وحكم الخاص ينطبق علي العام استنباطاً).

ولا مانع إذاً من أن نعيد النظر في معني (الإعجاز) في ضوء منطق الآية الكريمة: وحاصل هذا أننا إذا اعتبرنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر، أي في حدود الظاهرة، فالإعجاز هو:

بالنسبة إلي شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

وهو بالنسبة إلي الدين: وسيلة من وسائل تبليغه.

وهذان المعنيان للإعجاز يضيفان علي مفهومه صفات معينة:

أولاً: إن الاعجاز - كـ (حجة) لابد أن يكون في مستوي إدراك الجميع، وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو ينكرها عن حسن نيّة أحيانا.

ثانياً: ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثاً: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه..

وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين، الصلة التي تختلف من دين إلي آخر، باختلاف ضرورات التبليغ.

فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق علي معني الإعجاز، في كل الظروف المحتملة بالنسبة إلي الأديان المنزلة..

فإذا قسنا به في نطاق رسالة " موسي عليه السلام"، نري أن الله اختار لهذا الرسول معجزتي اليد والعصا، وإذا تأمّلناهما وجدناهما - كحجّة" يدعم الله بها نبيه - يتصفان بأنهما:

ليستا من مستوي العلم المصري القديم الذي كان من اختصاص أشخاص

معـدودين، يكونـون هيئة الكهـنوت، بـل كانـت المعجـزة، في كلتا صورتيها، من مستوي السحر الذي يقع أثره في إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية دون إجهاد فكر.

هاتـان المعجـزتان تتـصلان بـتاريخ الدين الموسوي، لا بجوهره إذ ليس لليد أو العـصا صـلة بمعاني هذا الدين ولا بتشريعه، فهما علي هذا مجرد توابع للدين، لا من صفاته الملازمة له.

ودلالـة هاتـين المعجـزتين عـلي صـحة الـدين محدودة بزمن معين، إذ لا تتصور مفعـول الـيد والعصا كـ (حجّة) إلا في الجيل الذي شاهدهما، أو الجيل الذي بلغته تلك الشهادة بالتواتر من التابعين وتابع التابعين، أي أن مفعوله لا يكون إلا في زمن محـدد، لحكمـة أرادهـا الله. ولـو تأملـنا في هذه الحكمة لوجدنا أنها تتفق مع حقائق نفسية، وحقائق تاريخية سجلها الواقع فعلاً: وهي:

أولاً: إن القـوم الذين يدينون اليوم بدين موسي – أي اليهود- يفقدون لأسباب نفـسية، نزعة التبليغ، بحيث لا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلي غيرهم من الأمم، أي الأمـيـين – كـما يقولـون – حتـي أنـنا إذا اسـتخدمنا لغـة الاجـتماع قلـنا: إن (الإعجاز) قد ألغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه.

ثانـياً: إن مـشيئة الله قد قدّرت أن يأتي عيسى رسولٌ من بعد موسى، وأتي الدين الجديـد لينـسخ الدين السابق، فينسخ طبعاً جانب الإعجاز فيه، حيث تزول الحجة بـزوال ضرورتهـا التاريخـية. ولكن دلالة ما أوتي عيسي من إعجاز ستزول أيضاً مع زوال موضـوعها، ولـنفس الأسـباب التـي ألغـت جانـب الإعجاز، في دين موسي حـيث يـأتي – بعـد عيسي – رسول جديد – ودين جديد يلغيان الدين السابق، دين عيسي عليه السلام، فليغي ضرورة التدليل علي صحة الإنجيل[١١].

يتـضح مـن العـرض الـسابق أن الإعجـاز: إمّا حسّي، يجابه الحواس، ويتحدّي القـدر، مثل الإعجاز الذي صاحب موسي وعيسي عليهما السلام، فقد كان من هذا الـنوع، أي أنه كان يقع في مجال الحسّ، وخاصة حاسة النظر، إذ تكشف للناس علي

صورة تكاد تكون واحدة، لا اختلاف عليها بينهم، لأن الناس لا يختلفون كثيراً في مدلول المرئيات، على حين يختلفون اختلافاً بعيداً في مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات، ومذوقات، ومشمومات، وملموسات.. وإما أن يكون الإعجاز عقلياً يواجه العقل، ويلقاه بكل ما فيه من قوي الإدراك والاستبصار. وهذا النوع من الإعجاز لا يقع من الناس موقعاً متقارباً، وإنما يلقاه كل إنسان بما لديه من إدراك وفهم، وقدرة علي التمييز بين المدركات، والتفرقة بين الخير والشر "(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلي أن المفكرين المسلمين السابقين قد أدركوا هذه الظاهرة الإعجازية أيضاً حيث، يقول السيوطي: " وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية .. لبلادتهم، وقلة بصيرتهم ..، وأكثر معجزات هذه الأمة – الإسلامية – عقلية. لفطر ذكائهم، وكمال إفهامهم.. ولأن هذه الشريعة لمَّا كانت باقية علي صفحات الدهر إلي يوم القيامة، خُصَّت بالمعجزة العقلية الباقية .. ليراها ذوو الأبصار "(٣).

واختلاف المعجزات في أجيال الناس هو ما اقتضته دواعي الحكمة التي جاءت المعجزات من أجلها.. ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وإذا كانت غاية المعجزة أن يري الناس فيها صدق الرسول المرسل من قبل قوة أعلي من إدراكهم وإمكاناتهم، وقيام الدليل علي صحة دعواه، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم، آخذة بعقولهم وقلوبهم..

" هذا وإن يكن من الممكن أن يتحقق في المعجزة المادية الواحدة أن تتكرر جيلاً بعد جيل، فتظل أبداً متحدية قاهرة – إلا أن ذلك يذهب بكثير من تأثير المعجزة وينزل بقدر كبير من قدرها في أعين الناس، فلو أن عصا موسي كانت هي المعجزة التي يتناولها الرسل رسولاً بعد رسول، وكانت في كل مرة، وفي كل حال تطلع علي الناس بتلك المعجزات التي كانت لها عند موسي، أو بمعجزات أخري غيرها – لو أن ذلك حدث لما كان لها علي الناس ذلك السلطان الذي للمعجزة التي تجيء متفردة

بوجودها، والتي تجيء إلي الناس علي غير انتظار، وعلي خلاف أية صورة يتصورونها- ذلك أن أقل ما يقع للناس من المعجزة الواحدة المتكررة أنها ربها كانت وليدة الصدفة، توارثها أصحابها.. خلفاً عن سلف، ثم إن حصر إمارات السماء في أمر واحد علي صورة واحدة، متكررة، فيه اتهام لقدرة الله، وفتح باب واسع للتشكك في صدق الرسول..

إذ أن القدرة الإلهية لا حدود لها، فكيف لا يراها الناس إلا في صورة واحدة تتكرر علي الأجيال؟

لهذا كان من تدبير الحكيم العليم القادر أن يكون في يد كل نبي دليل صدقه الذي لا يشاركه فيه غيره، وأن تكون معجزته التي يلقي بها الناس حدثاً فريداً، لم يقع لهم في خاطر، ولم يحلّ لهم في تفكير" (١).

وهكذا تأتي رسالة الرسول الأمين – صلي الله عليه وسلم – فتتسم بصفة خاصة تميزها عمّا سبقها من الرسالات، إذ أنها الحلقة الأخيرة من سلسلة البعث، ولذا وجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري، وعالم اللغة بتذوقه العلمي، ومع أن المسلم اليوم فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانيات عالم اللغة، إلا أن القرآن الكريم لم يفقد جانب إعجازه لأنه ليس من توابعه، بل من جوهره، وإنها أصبح المسلم مضطراً إلي أن يتناوله في صورة أخري بوسائل أخري، فهو يتناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبّق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل النفسي والأدبي (٢)، الأمر الذي سنبحث جانباً منه في وجوه الإعجاز القصصي في القرآن الكريم.

أ- الإعجاز البياني في القصص القرآني:

ذكرنا من قبل أن القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلي أداء غرض فني طليق، إنها هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلي أغراضه الدينية . والقرآن

كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، وحيث إن حاجة التبليغ مستمرة والقصة إحدى وسائل هذا التبليغ، لذلك فإن الإعجاز في القصة القرآنية سيظل صفة ملازمة لها، وقد آن أن ننتقل إلى بيانٍ موجز لما في قصص القرآن من إعجاز بياني وعلمي:

١ـ البيان والبلاغة:

أ- يتميز القصص القرآني بما فيه من نظم عجيب لا يقلّ في إعجازه عن غيره مما عني الفحول بتصويره دون تفرقة بين آيات الكتاب في الفضائل والمزايا العجاب، فإذا نظرنا في " قصة نوح" وجدنا أنفسنا في بعض مواضعها أمام تصوير رائع في سورة أفردت لذلك من بين سور القرآن.. فهي تبسط حواراً بينه وبين قومه.. ثم ضراعة منه إلي ربه، بعد أن يئس من هدايتهم، فإذا انتقلنا بعد ذلك لنتصوّر كيف كانت نجاة نوح وما صوّرته في ذلك سورة هود وكيف أمره الله سبحانه أن يصنع الفلك بعينه ووحيه، وكيف أدخل فيها من شاء الله نجاته، وكيف جرت به في موج يشبه في التصوير القرآني بأنه كالجبال، وكيف اتجه الخطاب إلي الأرض بأن تبلع الماء وللسماء بأن تقلع، وكيف ذهب الذي طاف بجميع الأرجاء، وكيف صدر الله سبحانه بالفعل المبني للمجهول ونائب الفاعل كلاً من غيض الماء، وقضاء أمر اهلاك ونجاة المؤمنين، وإبعاد الظالمين في هذه الجمل الثلاث الآتية: " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (سورة هود: ٤٤)[١].

ومن خير ما قيل عن وجوه البلاغة والفصاحة، في القصة ما ننقله عن السكاكي في مفتاح العلوم حيث قال: " أما النظر فيها من جهة علم البيان، فهو أنه تعالي لمّا أراد أن يبيّن معنى أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلي بطنها، فارتد، وأن نقطع طوفان السماء، فانقطع، وأن يغيض الماء النازل من السماء، فغاض، وأن يقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنّا وعدناه من إغراق قومه، فقضي، وأن نسوّي السفينة علي الجودي، فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى – بني الكلام علي تشبيه المراد منه، بالمأمور الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان، وتشبيه تكوين المراد، بالأمر الجزم النافذ في

تكوين المقصود، تصويراً لاقتداره تعالي، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده، ثم بني علي تشبيهه هذا نظم الكلام، فقال تعالي: (قيل). علي سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل. وجعل قرينة المجاز خطاب الجماد، وهو (يا أرض)، و (يا سماء)، مخاطباً لهما علي سبيل الاستعارة، للشبه المذكور، ثم استعار لغور الماء في الأرض بالبلع الذي هو إعمال الجاذبة في المطعوم، بجامع الذهاب إلي مقر خفي، واستتبع ذلك تشبيه الماء بالغذاء علي طريق الاستعارة بالكناية، لتقوي الأرض بالماء في الإنبات للزرع والأشجار، وجعل قرينة الاستعارة لفظ (ابلعي)، لكونه موضوعاً للاستعمال في الغذاء دون الماء، ثم أمر علي سبيل الاستعارة، للشبه المقدم ذكره، ثم قال: ماءك، بإضافة الماء إلي الأرض علي سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك، واستعار لحبس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل، للشبه بينهما في عدم ما كان، وخاطب في الأمرين أي قال: ابلعي، وأقلعي، ترشيحاً للاستعارة: (أي استعارة النداء في (يا أرض) و(يا سماء)، ثم قال: غيض الماء، وقضي الأمر، واستوت علي الجودي، وقيل: بعدا للقوم الظلمين، فلم يصرّح بالغائض، والقاضي، والمسوّي، والقائل، كما لم يصرح بقائل (يا أرض) و (يا سماء) سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية عن تلك الأمور العظام إلا يتأتي إلا من ذي قدرة لا تكتنى، قهّار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلي أن يكون الفاعل لشيء من ذلك غيره، ثم ختم الكلام بالتعريض لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم حتى إظهار لمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إياه.

وإما النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها، وجهة كل تقديم وتأخير بين جملها، فذلك: أنه أختير (يا) دون سائر أخواتها، لكونها أكثر استعمالاً، ولدلالتها علي بُعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، ويؤذن بالتهاون به، ولم يقل: (يا أرض) بالكسر، تجنباً لإضافة التشريف، تأكيداً للتهاون، ولم يقل: (يا أيتها الأرض) للاختصار، مع الاحتراز عما في (أيتها)، من تكلف

التنبيه غير المناسب للمقام، لكون المخاطب غير صالح للتنبيه علي الحقيقة . وأخيرا لفظ الأرض دون سائر أسمائها، لكونه أخف وأدور، واختير لفظ السماء ذلك مع قصد المطابقة. واختير (ابلعي) علي (ابتلعي)، لكونه أحضر، ولمجيء حظ التجانس بينه وبين (أقلعي) أوفر . وقيل (ماءك) بالأفراد دون الجمع لدلالة الجمع علي الاستكثار الذي يأباه مقام إظهار الكبرياء، وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء . ولم يحذف مفعول (ابلعي) لئلا يفهم ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وغيرها، ونظراً إلي مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذ بيّن المراد اختصر علي (أقلعي)، فلم يقل: اقلعي عن إرسال الماء، احترازاً عن الحشو المستغني عنه من حيث الظاهر، وهو الوجه في أنه لم يقل ياأرض ابلعي ماءك، فبلعت، ويا سماء أقلعي فأقلعت، واختار (غيض الماء) علي (غيّض) المشددة، لكونه أخصر، وأوفق لقيل . وقيل (الماء) دون أن يقال: (ماء طوفان السماء)، كذلك (الأمر) دون أن يقال (أمر نوح)، للاختصار، ولم يقل (سوّيت علي الجودي) بمعني أقدرت، علي نحو قيل وغيض، وقضي في البناء للمفعول، اعتبار لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله (وهي تجري بهم) مع قصد الاختصار، ثم قيل (بُعداً للقوم)، دون أن يقال: (ليبعد القوم)، طلباً للتوكيد مع الاختصار، وهو نزول (بُعداً) منزلة (ليبعدوا بُعداً)، مع إفادة أخري، وهي استعمال اللام مع " بُعد " الدال علي معني أن البُعد حق لهم. ثم أطلق الظلم، ليتناول كل نوع، حتي يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل.

هذا من حيث النظر إلي الكَلِم، وأما من حيث النظر إلي ترتيب الجمل، فذلك أنه قدّم النداء علي الأمر، فقيل (يا أرض، ابلعي)و (يا سماء أقلعي) دون أن يقال: (ابلعي يا أرض) و(أقعلي يا سماء)، جرياً علي مقتضي اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه، ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى، قصداً بذلك لمعنى الترشيح. ثم قدّم الأرض علي أمر السماء، لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل. ثم أتبعها قوله: (وغيض الماء)، لاتصاله بقصة الماء . ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة، وهو قوله: (وقضي الأمر)، أي أنجز الوعد: من

إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه في السفينة . ثم أتبعه حديث السفينة، ثم ختمت القصة بما ختمت.

هذا كله من جانب البلاغة، وأما جانب الفصاحة المعنوية (أي خلوص المعني من التعقيد) فهي نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبيّنة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشبّك الطريق إلي المرتاد، بل ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها. وأما جانب الفصاحة اللفظية، فألفاظها عربية مستعملة، جارية علي قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة"[١٧].

ومما ينبغي أن يذكر أن تلك الجمل الثلاث قد تناولها بالدراسة كثير من النقاد، فنجد عبد القاهر في " دلائل الإعجاز " يتخذها أنموذجاً للبلاغة الساحرة، مبرهناً بها علي أن الإعجاز إنما جاء من النظم، وارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وملاءمة معني اللفظة لمعني التي تليها، لا من حيث هي كلمة مفردة "[١٨].

ولقد عاد كل شئ إلي وضعه واستقر في مقره بهذه الجمل الثلاث، ولقد شاء القدر أن يستريح نوح والمؤمنون معه بعد كفاح استمر ألف سنة إلا خمسين عاماً مع قومه الكافرين والمعاندين فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، لقد أمر كل من السماء والأرض، وأمرهما من له الأمر دون داع إلي تصريح باسمه فائتمر كل بما أمر، ولقد أُبعِدَ الظالمون بأمره..

وعن هذا المعني ذاته عبّر الله سبحانه في سورة القمر، بقوله: " فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ " (سورة القمر: ١١-١٥).

ويشير بعض الباحثين إلي تلك المعاني الرائعة التي تضمّنتها هذه الآيات، بما موجزه أن: " هذه معان في أصلها إخبار عن وقائع جرت، وأحداث حدثت علي أن معانيها – إذا تركنا النظر في أسلوبها إحالة علي ما سبق أمره – جديدة لا محالة،

فوصف إطلاق المياه من السماء بأنه فتح لأبواب السماء معني جديد لم يطرق ... ووصف ارتفاع المياه من بطون الأرض بقوله: " وفجرنا الأرض عيوناً " معني مبتكر لا يلحق .. ثم الكناية عن السفينة – بأنها ذات ألواح ودسر، وعن نوح، بأنه كان كفر، ثم وصف التسجيل التاريخي بقوله سبحانه: " ولقد تركناها آية " كل ذلك تجديد وأي تجديد "(١).

" ثم ننتقل إلي التوازن بين الآيات – وإن لم يكن علي صورة الشعر في تعادل التفعيلات بين صدر البيت وعجزه – قد جعل النغم الموسيقي ممسكاً بها جميعاً في لحن واحد متسق الإيقاع، يجري قوياً متدفقاً كتدفق السيل، حتي يقع علي " القرار " فيستقر عنده، ويسكن إليه .. ولننظر أي قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه في صدره؟ إنه حرف واحد هو حرف " الراء "(٢).. وهو أقوي حرف في حروف اللغة العربية، وأشدها تماسكاً، فإذا وقف عليه بالسكون انبعج في رخامة، ولين، وصار أشبه بالوادي العميق الرحب، بين يدي جبل تنهمر عيونه، وتتدفق سيوله"(٣).

وهكذا لو أننا ذهبنا نقف عند كل كلمة من الكلمات لأسهبنا إذًا في تصوير نواحٍ من الأسرار البيانية يتحقق في مجموعها معني الإعجاز فيها وصل إليه البحث البلاغي، والعلم البياني ممّا علمناه . فكيف بما علمه غيرنا ؟ فكيف بما لم يعلمه أحد إلا الله سبحانه؟

٢ـ الإعجاز في المعاني والأفكار:

ننتقل إلي الإعجاز في معاني القصص، وما فيه من أفكار جديدة، وأخيلة بديعة وصور رفيعة .. فالمعاني والأخيلة عند البلغاء تقصد إلى فكرة سامية في أي غرض من أغراض القول، وتشتمل عند كثير منهم على ما يخترعه المتكلم من معنى غير مطروق، مما يملأ النفوس روعة وإعجاباً بالفِكَر المبتكرة المخترعة،ولذلك امتاز في معني الأسلوب الذي هو طريقة النظم وما يشتمل عليه من إيجاز أو إطناب، وذكر أو حذف، وتقديم أو تأخير، كما أنه يتميز عن الغرض العام الذي هو الفن من القول والضرب منه كالمدح والذم وما يتصل بذلك بالهدف والغاية .

فلنتحدث في شيء من معاني القصص وما فيه من أفكار جديدة، فإذا قوله سبحانه في قصة نوح: " وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ " (سورة الصافات:٧٤- ٧٦)إلي أن يقول: " وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ " (سورة الصافات: ٧٨، ٧٩) ولعلّه لا جديد في أصل المعني، وإنما هو إخبار عن نوح بأنه سأل ربه والمسئول مصرّح به في سورة نوح: قال: " قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا " (سورة نوح: ٢١) إلي أن قال" وقال نوح:" رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (سورة نوح: ٢٦) ،ولكن هذا المعنى العجيب: " وتركنا عليه في الآخرين . سلم علي نوح في العلمين " هو موضع الجدة الرائعة، فهذه فكرة مستجدة وإيماءة من القرآن مستمدة، فإنها تضيف جديداً إلي المعاني التي لم يسبق إبرازها من قبل، وهو أن الله سبحانه ترك علي نوح في سائر الأمم أن يسلموا عليه إلي الأبد الآبدين ودهر الداهرين.. فلننظر كيف أن الله سبحانه قد سمّي ذلك التقدير العالمي والثناء الإنساني: " تركنا علي نوح في العلمين " وعن مثل هذا المعنى عبّر الله سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام وهو يسأله . فيقول: " وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ " (سورة الشعراء: ٨٤) بمعني الذكر الحسن والثناء الجميل، ولكن التصوير مختلف في المقامين، مع أنه في كل منهما رائع وجميل، وتلك من معارف الأنبياء التي تهدي إليها الفطانة، وتكشف عنها الزكانة، ويصوّرها القرآن ذلك التصوير ليلهمنا إياه كما ألهمه نبيه ومصطفاه [٢٢].

ويتصل بذلك أن يقوم سبحانه: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (سورة الزخرف: ٢٦-٢٨).

ما معنى "جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " إنها تفيد معني كريماً .. وهو أن إبراهيم عليه السلام ركز علي معني التوحيد ونفي الشرك، كما قال سبحانه في تصوير آخر: " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ

بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ " (سورة البقرة: ١٣١ – ١٣٢).

" وكل هذه المعاني الكريمة متجاوبة في محيط دعوة الأنبياء ومهمة المرسلين، وعلي رأسهم إبراهيم الخليل الذي تتحاضنه الأمم وتتزاحم عليه جميع الأجناس، حتى عبّاد الأوثان ولهذا يقول سبحانه: " لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ "، دفعاً للمعارضين، ودحضاً للمجرمين " [٢٢].

وهذا ونحوه من المعاني التي ميّزت القصص القرآني بقوة خارقة في معانيه الخاصة الرفيعة، وأفكاره العجيبة الغريبة مما ضاعف نواحي الإعجاز في أسلوبه، فإن المعنى الشريف الذي تتجه به إلي النفوس قوة الله القدير إذا صب في ذلك الأسلوب البديع العجيب أنزل العصم من أماكنها، وطأطأ الرؤوس إلي أذقانها..

فإذا انتقلنا لي قوله سبحانه في عذاب عاد: " إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ " (سورة القمر: ١٩). فهو يصف إنزال العذاب بالإرسال، ويصوّر تصريف الريح بالمجرمين وقلقلة المعاندين بأنه نزع للناس من أماكنهم وإلقاء لهم فلا حراك بهم كما تري أعجاز النخل المنقعر وهي منطرحة ملقاة علي الأرض.. وإذا انتقلنا بعد ذلك إلي قوله هنالك: " إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ " (سورة القمر: ٢٧: ٣٠) كل تلك أوصاف تلبس كسّيّ من الألفاظ لا يهتدي إليها إلا خالق القوي والقدر " ..

" الحقيقة أن هذه النواحي لا ترجع إلي الأساليب والألفاظ فهي تختلف عن ذلك، فهذه معان يسميها الأدباء أخيلة وأفكاراً، ويعتبرون الأسلوب شيئاً يرجع إلي اللفظ في مفرداته وترتيب تلك المفردات وما توصف به من فصل أو وصل، وذكر أو حذف، وتقديم أو تأخير، ولذلك فهي ناحية تختلف عن ناحية الإعجاز البياني الذي يؤديه الجرجاني والباقلاني والجاحظ وغيرهم من علماء البيان والبلاغة وركزوا فيه علي الناحية الإجمالية التي جرت عليها العرب " [٢٣].

٢ـ الإعجاز الأسلوبي:

إن الذين زاولوا فن التعبير والذين لهم بصر بالأداء الفني يدركون أكثر من غيرهم مدي ما في الأداء القصصي من إعجاز في هذا الجانب، ومن المقطوع به أن الأحاديث النبوية الشريفة والوحي القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة، فالعبارة القرآنية لها نسق، وجرس تعرفه الأذن، ولها هيئة تركيبية، وألفاظ خاصة، فليس من الخطأ أو الغلو في شئ أن يقال: إن الأسلوب القرآني معجز، لا يتسنى لأحد الإتيان بمثله"[١].

ولقد كان حتماً علي القرآن – إذا ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية، ومفاهيمه التوحيدية – أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي .. والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخري بفكرة جديدة، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة، لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد .. علي أن هذه المفاهيم ليست مترجمة في آيات القرآن فحسب، بل إن القرآن قد هضمها وتمثلها، ثم كيّفها حتى تناسب العقلية العربية..

" ولقد تعرضت الثروة اللفظية التي جاء بها القصص القرآني لتكييف رائع، كما حدث لذلك الاسم الخاص " فوطيفار Putiphare " وهو اسم الشخصية الكتابية التي أطلقت عليها رواية القرآن لقب " العزيز " في قصة يوسف، ولنا أن نتساءل عمّا إذا كانت هناك صلة في المعني بين الاسم العبري واللقب القرآني، فالتفسير التوراوي يبدو أنه يقصد بكلمة " فوطيفار " اشتقاقاً مصرياً يبدأ من الأصل: puti favori =: " عزيز "، والأصل phare " مستشار أو ناصح " . ونقلاً عن بحث القسيس " فيجورو vigroureux في الموضوع نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركّبة معناها " عزيز الإله شمس " ..

وعلي أي من الرأيين نري أن التكييف الاشتقاقي القرآني قد حذف اللفظ المكمّل - الإضافي، ليتمثّله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية، فإذا به

يكتفي بلفظة " العزيز " .. ومّا يذكر أن هذا التكييف الذي تجنّب صعوبة الترجمة الصوتية للحروف الأولي، قد حلّ مشكلة لغوية لا ينسي الجاهل بالدراسات المصرية أن يحلّها، حتى ولو كان في أتمّ حالات وعيه"[٢٦] .

٤ـ الإيجاز المعجز:

إن القصص القرآني لشدة إيجازه وإحكامه، تكاد كلماته تتحوّل رموزاً تنطوي كل كلمة منها علي معان كثيرة، لذلك فإن الفهم الدقيق لإيحاءات القرآن وإشاراته تستدعي يقظة متواصلة في قراءته، وفكراً واعياً لتدبّر مراميه، وحسّا مرهفاً لتذوّق معانيه، فعندما نتأمل الآية التالية التي وردت في سياق قصة يوسف، نجد أنها كانت مصدراً لإيجاد كثير من المعاني التي تحتملها: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ " (سورة يوسف: ٣٠).

قال ابن قيم الجوزية: هذا الكلام متضمن لوجوهٍ من المكر:

أحدها: قولهن: " امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا " ولم يسمّوها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل . فصدور الفاحشة ممن لها زوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، و كبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حرّ . وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي تراوده هو في بيتها . وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف مَن تطلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبّها له إلي شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا: أنه أعفّ منها وأبرّ وأوفي، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفافاً وكرماً وحياء وهذا غاية الذمّ لها.

الثامن: أنهنَّ أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة علي الاستمرار، والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها.

وفرق بين قولنا: فلان أكرم ضيفاً، وفلان يكرم الضيف ويطعم الطعام، ويحمل الكَلّ، فإن هذا يدل علي أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن " إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ " أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح إليها، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً علي الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً علي ذلك . فحيث استقبحن منها ذلك، كان هذا دليلاً علي أنه من أقبح الأمور وأنه مما لا ينبغي، أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها.

أما العشق فقولهن: " قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا " أي وصل حبّه إلى شغاف قلبها. وأما الطلب المفرط فقولهن " تراود فتاها ". والمراودة: الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلي شدة العشق، وشدة الحرص علي الفاحشة، فلما سمعت بهذا المكر هيأت لهن مكراً، أبلغ منه، لأنها قابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي[٣٣].

ومثل هذا في إيجازه المحكم، وغزارة معانيه ما ينطبق علي قصص موسي في السور الخمسة التي جاءت فيها أكبر عناصر الحديث عنه، وهي سور الأعراف ويونس وطه والشعراء والقصص.

٥ـ البلاغة الصوتية في القصة القرآنية:ـ

أ- الإيحاء

لا شك أن القرآن الكريم وهو الأنموذج الأسمى في البلاغة الصوتية

يتوقف قدر كبير من ملاحظة تلك الميزة فيه علي حسن تلاوته، ومن هنا ندرك مغزى قول الرسول صلي الله عليه وسلم " زيِّنوا القرآن بأصواتكم " فليس المقصود هنا التطريب، ولكنه حسن الأداء بالتزام النطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة من مدّ وغنّ وإظهار وإخفاء ووقف ووصل، فإن هذا من حسن الإلقاء الذي يُزيِّن القرآن، ويبرز دور الأصوات في إبراز المعاني، كما يتيح حسن المتابعة للتركيبة اللغوية التي تحدث الإيقاع"[١] .

إذاً البلاغة الصوتية هي كل وسيلة صوتية يتحقق فيها مفهوم البلاغة بمعناها المصطلح عليه عند البلاغيين، فلابد فيها من ملاحظة أمرين:

الأول: أن نتجاوز الإطار الصوتي بجرسه وإيحائه وإيقاعه واعتداله إلي ما يحدثه من إبراز المعني وتأكيده وتسلسله وانتظامه.

والثاني: أن يتحقق بالأداء الصوتي مطابقة الكلام لمقتضي الحال.

والحقّ أن القرآن ما جاء أسلوبه – علي ما جاء عليه من انسجام واتّساق وتوازن يشبه الموسيقا –ليحقق الغاية من التأثير واللفت والجذب لكل المستمعين والمخاطبين علي اختلاف عقائدهم ومستوياتهم، لأن الناس جميعاً يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء"[٢].

والإيحاء ميزة صوتية تحرّك الخيال نحو سلسلة من المعاني تتداعي متصلة بالكلمة . وهو مرتبط غالباً بجرس الكلمة وإيقاعها وما تحمله من ظلال .. وربما يعود مصدر الإيحاء إلي ارتباط بعض الكلمات بأصلها الحسي عن طريق ما توحي به وما نستشعره من ظلال حولها عند النطق بها . والأصل الحسي للكلمة يعني أصل الاستعمال الذي دعت إليه أمور مرتبطة بالحياة والمعيشة والظروف الاجتماعية للعربي الأول.. وقد ذكر الأستاذ العقاد نماذج من الكلمات التي تدل علي الارتباط والجماعة، فالأمة مثلاً هي الجماعة التي تؤم مكاناً واحداً أو تأتم بقيادة واحدة، والشعب هو الجماعة التي تتخذ لها شعبة واحدة من الطريق، والطائفة هي الجماعة التي تطوف معاً، والفئة هي الجماعة التي تفيء إلي ظل واحد، والنفر من القوم هم

الـذين ينفـرون معـاً للقـتال أو غيره، والقوم هم الذين يقومون قومة واحدة للقتال خاصـة، ولهـذا أطلقت أولاً علي الرجال ثم شملت الرجال والنساء، ومن هنا قوله تعـالي: " وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء " بعـد قـوله " لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ " (سورة الحجـرات: ١١) وتلحـظ هـذه المناسـبة المستمرة مـن الاستعمال الحسّي في أسماء الأمكـنة، فالمنـزل حـيث ينزل الإنسان، والبيت حيث يبيت بالليل، وكذلك الموقع والمرجع والمأوي[٣٠].

وعـلي الـرغم مـن هـذا الـتطور الدلالي فإن الاستعمال الحسّي الأول يظل عالقاً بالكلمـة فـيجعلها موحـية بظلال خاصة مستمرة من ذلك الأصل الحسّي .. فهناك ألفـاظ كانت تستخدم قديماً للدلالة علي أمر حسّي، ثم انتقلت علي سبيل التجوّز في الـبداية بمعنـي تعارف الاستعمال اللغوي علي أن الكلمة ليست علي حقيقتها، ثم لمّا شـاع الاستعمال المعنوي الجديد صار حقيقة فيه، لكن الكلمة تظلّ محتفظة بظلّ من الاسـتعمال الحسّي الأوّل، فـتكون موحية بمعانٍ شتي مستمدة من أصل استعمال، ومـن دلالات تعلّقـت بهـا في تـاريخ اسـتعمالها الطويل، مع ما قد نخلفه عليها من ظـلال أنفـسنا ومـشاعر ذواتـنا. ومـن ذلك قوله تعالي:" يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَـأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِّـنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَـلَى أَنفُـسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ " (سورة الأنعـام: ١٣٠). عـبّر عـن التبليغ بقوله: " يقصّون " للإشارة إلي ذهاب الرسل في التبلـيغ مـذهب التوضيح والتفصيل والتشويق والملاطفة شأنهم في ذلك شأن الذي يقصّ علي نفرٍ قصة من القصص " يقال: قصّ الكلام أو الأخبار: تتّبعها بالرواية ".

وقصّ الأخبار من قصّ الأثر أي تتبعه، وقد استخدم القرآن المادة في هذا الأصل الـذي يظـن أنـه أولي مـراحل استخدام الكلمة، قال تعالي " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص: ١١) أي تتّبعي أثره . وبهذا تتبيّن المراحل التي مرّت بها هذه المادة مـن قـصّ الأثـر إلي قصّ الأخبار، ثم " يقصّون عليكم آياتي " وهذه الاستعمالات التـي تـتابعت عـلي الكلمة في رحلتها الطويلة أكسبتها ذلك الإيحاء الذي نستشعره

عند تلاوة الآية وأكسبها تلك القدرة علي تصوير المعني وعرضه مشاهداً"[1].

أما المحسنات اللفظية البديعية فهي نوع من التسخير الواعي لما يمكن للقيم الصوتية وظاهرة الحكاية أن تثيره في نفس المتلقي، يصدق ذلك علي الجناس تاماً كان أم ناقصاً وعلي المشاكلة في اللفظين وما أشبههما من المحسنات . وأن النص القرآني ليحسن استعمال ذلك ويحمله من الأغراض مالا يمكن الوصول إليه إلا من خلاله ومن أمثلة ذلك في قصة موسي: " وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ" (الأعراف: ١٢٧).

إذا نظرنا إلي استعمال الفعلين " تذر " " ويذر " إذ يتفقان ويختلفان معني، فإما بالنسبة لفرعون فإنه إذ " يذر " موسي إنما يتوانى عن عقابه فالترك هنا نوع من التسامح، وأما بالنسبة لموسي فإنه " يذر " بمعني " يتخلّى " عنه وعن آلهته ليعبد الله إلهاً واحداً.

وكذلك في قصة مريم، يقول الله تعالي في سورة آل عمران: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ " (آل عمران آية ٤٢). . فقوله " اصْطَفَاكِ " أولاً بمعني " اختارك " والثاني بمعني " فضّلك " فالاتفاق في اللفظ دون المعني"[2].

والإيحاء قد نجده في كلمة من العبارة، وقد نجد أكثر كلمات العبارة موحية، هذا مرتبط بالجو النفسي والحال والمقام، علي أن هذا الإحساس بهذه الميزة مرهون برهانه الحسي وقوة التجاوب مع القيم الصوتية لألفاظ اللغة وعندما نتتبع الكلام العربي نجد أن الإيحاء سمة من سمات الكلام الموجز الممتلئ بالمعاني والأحداث والمفعم بالمشاعر الإنسانية، ولهذا تطرد هذه الميزة في كلمات القرآن الكريم، وهي أوضح ما تكون في قصصه، ولنأخذ قصة يوسف عليه السلام أنموذجاً لتوضيح بريق الإيحاء في كلماتها وارتباطه بسائر المغزى أو بالشعور السائد في العبارة، ويُبرز المشهد التالي من القصة دور الإيحاء في تلوين المشهد وتجسيد أدق مشاعر الأشخاص فيه:

قال تعالي: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا

حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ " (سورة يوسف: ٣٠-٣١).

يشير تنكير " نسوة "- إذ لم يقل مثلاً: وقال النسوة – إلي أنهن نسوة ذوات صفات معينة ليست لكل النساء، هنا يقف التنكير عند مجرد الإشارة إلى أنهنّ من طبقة معينة، أما نوع هذه الطبقة، فإن السياق وحده هو الذي يكشف عنه في قوله: " فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً " فإن هذا الإعداد بما فيه من مآدب حافلة وما فيه من متكآت ووسائد ليّنة، يدل علي أن المدعوّات من طبقة راقية، ومن الطبعي أن يتسرب الخبر أولاً إلى البيوت المماثلة عن طريق الخدم، فالخبر بحروف الجر (في) " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ " للإشارة إلي أن هذا القول قد قيل في المدينة وليس ضرورياً أنهن جميعاً نساء من المدينة فقد يكنّ أخلاطاً من المدينة ومن غيرها، كما أشرنا من قبل، والتعبير القرآني على كل حال محتمل لهذا وذاك فهو يتسع لعدة معان محتملة غير متدافقة، وهذا من الإعجاز.

والقرآن لم يسمّ امرأة العزيز، وإنما قال تارة " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ " فذكرها باسم الموصول وصلته " الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا " ليشير إلى مدى هذه المراودة ونوعها وظروفها، فإنها واقعة من سيدة البيت علي فتاها أي عبدها وفي بيتها، فهي مراودة ملحّة مسيطرة محاصرة لا يفلت منها في هذه الظروف إلا مثل يوسف عليه السلام.

وفي المرة الثانية عبر عن هذه المرأة بقوله " امرأة العزيز " وذلك في الكلام المحكي عن النسوة " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ " فلم تسمّ النسوة هذه المرأة باسمها، وإنما أضفنها إلي العزيز لمزيد من التعجب من أمرها وإشارة إلي أن كونها امرأة العزيز كان ينبغي أن يجعلها تتسامي وتتصوّن ولا تنزل إلي هذا الدرك، إن هذه الإضافة توحي بالتندر وإشباع الرغبة النسائية في أن ينتشر الخبر.

ومعنـي تـراود: تحـاول مرة بعد مرة انتزاع موافقته علي تنفيذ مرادها من الجماع، ولا تجـد لغة من اللغات تدل كلمة واحدة فيها علي هذا المعني المؤدي بجملة طويلة غير العربية، وإيثار العربية بتلك الكلمة تنزيها للقرآن من الخوض في التفاصيل التي لا تـتفق مـع جلالـه وإجماله.علي أن هذه الكلمة " تراود " إيحاءات كثيرة تستمدها مـن الأصـل الحـسي لاسـتعمالها، ففي لسان العرب: أصل الرائد الذي يتقدم القوم يبـصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، ورادت الإبل ترود رياداً اختلفت في المرعى مقبلة ومدبرة، وامرأة راد ورواد، ورءود: طوافة في بيوت جاراتها . وقال الأصمي: الرادة مـن النـساء، غـير مهمـوز، التـي تـرود وتطـوف . وقال الليث: وتقول راود فلان جاريـته عـن نفسها، وراودته هي عن نفسه، إذا حاول كل واحد من صاحبه الوطء والجماع[٣٣].

وبالعـودة إلي الاستعمال القرآني " تراود" نجد أنه يوحي بمعان هي مستمدة من تلـك الاسـتعمالات الأولي، فهـي توحـي بالجرأة والمبادرة، وتوحي بالتوتر والحيرة التـي تدفـع إلي الإقبال والإدبار، وهنا تصوير لمدي التوتر والحيرة التي تستبدّ بالمرأة عـند تسلط هذه الشهوة لاسيما إذا طلبتها من طريق غير مشروع ثم إن إضافة الفتى إلـيها " فـتاها " وذلـك في الكـلام المحكي عن النسوة يوحي باتجاه تلك النسوة إلي تهـويل الأمر إذ كيف تراود سيدة لها هذه المكانة فتاها أي مملوكها، فضلاً عن الاتجاه النفـسي إلي إشباع رغبتهن في اللوم.. ومعني " شغفها حبا ": شقّ حبه شغاف قلبها وهـو حجابـه . وهناك استعمالات متعددة للشغاف لعل أقربها صلة بما نحن فيه أنه داء مـتمكن في القلـب وأنـه مـا يـستتر فلا يظهر ولا يعالج، فاستعمال هذا اللفظ " شـغفها " خـصوصاً في هذا السياق انتقال من الإطلاق الحسّي إلي المعنوي ليشير إلي معانـاة طـويلة خفـيّة ومكايـدة مـؤلمة موجعة.. وهو لفظ يوحي بجرسه علي الهيام والـوجد الطـويل، كـما يوحـي بأنـه حـب لا يحكمه العقل، ويؤيد هذا قراءة الفعل بالعـين، يقـول أبـو الـسعود: " وكـان الـشعبي يقـول: الـشغف حـب والـشغف جنون"[٣٤].

وفي قـولهن " إنـا لنراها في ضلال مبين " التعبير بـ " نراها " يوحي بأن ما ذهبن

إليه من الحكم علي امرأة العزيز بالضلال لم يصدر جزافاً بل عن علم وتحقق، كما يشعر التعبير بالضلال المبين بأنهن يترفعن عن مثل هذا ويبرأن منه.

وفي قوله" فلما سمعت بمكرهن " لو أنه قال " فلما سمعت مكرهن " بحذف حرف الجر لكان الكلام صحيحاً علي الأصل في الاستعمال، لأن " سمع " من الأفعال التي تتعدي بنفسها دون واسطة حرف، فلا يكون التعدي بالباء إذاً إلا لسرّ لعلّه يتصلّ بمعنى هذه الباء الذي تستمده من دلالة السياق فإنها تفيد معني الملابسة، والمعني: فلّما سمعت ما يتصلّ ويلابس مكرهنّ، أي لّما سمعت الأقاويل التي صدرت عن مكر، والحقيقة أن هذه الأقاويل كان لها أصل من الواقع، فلماذا اعتبر القرآن صدورها عن مكر؟ ذلك لأن النسوة تمادين في الظنّ والتخيّل واستنتاج أشياء كان يمكن أن تترتب علي المراودة وفي قولهن " امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا..." يمكن أن يضمن عن طريق التعريض ما يدور في أنفسهنّ وسمّاه القرآن مكراً، ولهنّ العذر في تخيّل ما تخيّلنه، لأن ما يتصوّرنه طبعي ومتوقع لو أن الأمر يتصل بغير يوسف ونحوه ممن اصطفاهم الله سبحانه وطهرهم.

وهكذا نمضي مع المشهد إلي نهايته لنجد كلمات متخيرة في مواقعها تكمل ظلال المشهد وتوحي بملابساته، وكلمات القرآن من الدقّة وحسن التخيّر بحيث تجدها ثرية الدلالة علي نحو لا نجده في كلام آخر، ولك أن تتخير ما نراه أنموذجاً رفيعاً من كلام البشر، ثم تتبع إيحاء كلماته فنجده يتضاءل بجانب ما نجده في القرآن.

علي أن في القرآن الكريم ميزة لا تتحقق في كلام بشر هي تعدد مصادر الإيحاء في الكلمة الواحدة، فنجد الكلمة موحية بجرسها وبالظلال المتعلقة بها والتي تستمدها من أصل استعمالها، كما سبق في كلمة " تراود " وفي كلمة " شغفها"

وعلي الرغم من تحقق الإيحاء في بعض كلام الناس، فإننا لا نكاد نجد كلمة واحدة قد تعددت مصادر إيحاءاتها.

وميزة أخرى تتصل بإيحاء التراكيب أو ظلالها، فإن القرآن يسقط كثيراً مما يمكن أن يقال لكنه مفاد من وراء التراكيب، والقرآن بهذا مجال خصب لدرس التعريض والتلويح أو ما يسمي بمستتبعات التراكيب[٣٥]

ويقودنا هـذا إلي إيحـاء مـن نوع آخر لا يعود إلي أصوات الكلمات، إنما يعود إلي الـدلالات الهامـشية للألفاظ والعبارات، فما كان من هذا الإيحاء حسناً جاء حرص النص عليه بالألفاظ، وما كان سيئاً ممجوجاً أطرح النص ما يؤدي إليه من ألفاظ أو عبارات ومن ذلك ما يلي:

١ - في المقابلـة بين قصة زكريا وقصة مريم في سورة آل عمران، سأل زكريا ربه: " أني يكـون لي غـلام " (آيـة ٤٠) وسـألت مـريم ربهـا " أني يكون لي ولد "(٤٧) فأجـاب زكريا بقوله: " كذلك الله يفعل ما يشاء " وأجاب مريم بقوله: " كذلك الله يخلق ما يشاء " . ذلك أن التعبير بلفظ " يفعل " في حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة، لأن زكـريا وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة، لأن زوجها بجانبها، وقد كان إخـصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك والتسخير والإخصاب من فعل الله، أما في حالـة مـريم فـإن التعبير بلفظ " يفعل " ربما أثار خواطر سيئة فاللفظ غير مناسب، ومن هنا جاء الفعل " يخلق " .

٢ - في قـصة يوسـف:" وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ " (يوسف: ٢٠) للفعل "شرى " معنيان ضدان:

أ- أول المعنيين " اشترى " ومنه قول عنترة:

حصاني كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

فالطباق بين " شرى " " وباع " يدل علي أن " شري " بمعني " اشتري " .

ب- الـثاني معني " باع " وهو المعنى المقصود في هذه الآية وقرينة المعني لفظ " بـثمن"، وكذلك لفظ " الزاهدين " لأن الزهد في شيء يتنافى مع شرائه ودفع الثمن لـه، ولكـن ينسجم مع بيعه، ولكن الآية (تكريماً لنبي الله يوسف) لم تعبّر عن بيعه بلفظ البيع الذي يكون للعبيد، وإنما جاءت بلفظ هو من الأضداد، ليكون التعبير به تخفيفاً لوقع العبارة في النفس.

جـ- " وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ " (يوسف ٢٣).

تجنبت الآية لفظ " سيّدته " تكريماً له وتحقراً لها، وهذا شبيه بما في الآية الأخرى: " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ " فليس هو سيداً ليوسف وليست هي سيدة له ومما يدلّ على إرادة تجنّب لفظ السيادة في حالة يوسف بذاته قوله تعالي:" وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ " (يوسف ٢٥) فجعله سيدها ولم يجعله سيده أما قول يوسف " إِنَّهُ رَبِّي " (يوسف ٢٣)، فذلك كلام يوسف وليس كلاماً عن يوسف.

د- " **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ** " (يوسف ٤٦).

أخر أداة النداء ليكون تعبيراً عن رأي الفتى في يوسف وأنه يعدّه صدّيقاً بعد ما رأي من حسن سيرته ودعوته إلي ترك عبادة الأرباب المتفرقين إلى عبادة الله الواحد القهار. ولو قال: " أيها الصدّيق يوسف " لأوحي بأن لفظ الصدّيق كان لقباً متعارفاً له ينادي به كما ينادي " الشيخ فلان ".

هـ- " اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " (يوسف ٩٣).

" فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا "(يوسف ٩٦).

في الآية الأولي استعمل فعل الإتيان وفي الثانية فعل الارتداد . ذلك أن مطلب يوسف في الآية الأولي كان معلقاً بإتيان أبيه وأهله أجمعين إلى مصر . أما الآية الثانية فالكلام فيها عن المعجزة، معجزة ردّ البصر بعد فقده، بالإضافة إلي ذلك ما في مطلب المشاكلة في الآية الأولي بين " يأت " و " ائتوني "[٣٠٦]

ب- انسجام التأليف:

يقصد بالتأليف أن تتخذ المفردات مواقع معينة في تشكيل لغوي مفيد، فالتأليف هو النظم وهو التشكيل، ولكن عندما يكون الحديث عن التشكيل الذي ترد إليه موسيقية اللغة وانسجام تأليفها وبلاغة إيقاعها، ولا يتم ذلك إلا بحسن توزيع المواقع، ودقة ترتيب وتركيب الكلمات، فيقول الجاحظ: " جماع البلاغة حسن الموقع... وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلي جنب أختها مرضياً موافقاً كان

علي اللسان عند إنشاء الشعر مئونة، وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم أنه أفرغ إفراغاً جيداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[٣٦].

وتكاد تنحصر أسباب انسجام التأليف في النسيج الصوتي للمفردات التي تتشكل منها الجملة حيث تتكون الكلمة في التشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معينة تتناغم مع المعني والجو الذي يدور في إطاره النص، وهذه الميزة وإن تحققت في كلام الأدباء والشعراء فإنها عزيزة المنال قلما نجدها عند أديب أو شاعر.. أما القرآن الكريم كتاب الله المعجز، فتتحقق فيه بشكل مطرد، حيث يتضح فيه تخيّر النسيج الصوتي للكلمات بما يقرّب الشعور بالمعني ويعمّق الإحساس بالمضمون ومن ذلك قوله تعالي في قصة نوح عليه السلام: " قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " (سورة هود: ٤٨).. نلاحظ اجتماع سبع ميمات في أربع كلمات: " أمم ممن معك وأمم" وتزيد هذه الميمات فتصل تسعاً مع النطق والقراءة التجويدية حيث تضعّف الميم الثانية في " مِمَّن " وتقلب النون ميماً فيها وتدغم في الميم بعدها، حتى ينشأ من هذا أن الكلمات الأربع تكاد تكون كلها ميمات، والعبرة في كيفية النطق بهذه الميمات وما يحدثه من ضم شديد في الصوت يصحبه ضم شديد متوال للشفتين عند أداء هذه الميمات الملتصقة...

من البدهي أن الآية بأدائها الصوتي تعكس ما كان عليه أصحاب نوح عليه السلام والذين معه من اجتماع وانضمام حول مبدأ واحد وعقيدة واحدة، والاجتماع حول مبدأ والالتفاف من حوله يولّد في نفوس المجتمعين إحساس الانتماء الشديد والضم اللصيق وخصوصاً في مثل تلك الظروف التي كان عليها أصحاب نوح في السفينة، وبهذه الأصوات والحروف نقل إلينا القرآن الكريم هذا المعني المقرون بتلك الأحاسيس .. وكان يمكن أن يقال: اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلي من اتبعك، ويكون هذا مؤدياً للمعنى الأول المباشر، ولكن ليس هذا هو مجرد ما يريده التعبير القرآني، إنه يريد خلق التجاوب النفسي مع هذه الصحبة المباركة وأن يخلق

الإحساس برضا الله عليهم، وأن يولد في نفس كل مستمع الإحساس الشديد بالضم والالتصاق بمجرد أن يلتقط سمعه هذه الميات المتضامنة الملتصقة [٣٨].

جـ إيقاع الصيغ:

عندما تكون صيغ المفردات في العبارة متخيرة دقيقة فإنها تحدث قوة في السبك وجمالاً في التناسق، فضلاً عما تحدثه من إيقاع خاص ينسجم مع دلالة الجملة والعبارة، ولا شك أن تناغم دلالة المفردات يؤدي تلقائياً إلي تناغم صيغ تلك المفردات عند من اختلطت في نفسه فطرة اللغة وأوتي حظاً من ملكة حسن التعبير، والقرآن الكريم يبلغ القمة في ذلك، ومثال ذلك ما يقصّه عن سليمان عليه السلام يتوعد الهدهد الذي غاب عن عينه من غير إذنه" لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ " (سورة النمل: ٢١). نجد صيغة:" لأعذبنه " و " لأذبحنه و " ليأتينّي " – وهي مؤكدة باللام والنون الثقيلة تحدث جرساً وضغطاً عند النطق بها بما يصوّر الغضب والتهديد اللذين يسودان في هذا الموقف، وفضلاً عن هذا يحدث من توالي التوكيد باللام والنون خاصة إيقاعاً خاصاً يتناسب مع قوة المعني[٣٩].

وهكذا ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفي رصده المعجم للفظ أو معني طبيعي مما تستوحيه النفس ولا تستطيع وصفه، فإن أمكن أحياناً أن نشير إليه من بعد فإننا لا نستطيع تفسير العلة التي جعلته موحياً علي هذا النحو، فمثل التأثر به كمثل المتأثر باللحن الموسيقي نطرب له ولا ندري لماذا، وهكذا يمكن أن ننسب إلى التفخيم مثلاً إيحاء بالمبالغة في إيقاع الحدث أو في الوصف، فإذا سألنا أنفسنا عن السبب في ذلك لم نستطع لهذا السؤال جواباً، والذي جئنا به هنا من الشواهد، إنما هو نماذج مما نجده في النص القرآني من استعمال حكاية الصوت للوصول إلي أغراض إيحائية بالمعاني الطبيعية التي تضيف إلي المعاني العربية للألفاظ أبعاداً إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية[٤٠].

(١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٤١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص ٢٨١٧.

وفي التنزيل العزيز" وما انتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء". قال الفراء: يقول القائل كيف وصفهم. بأنهم لا يعجزون في الأرض ولا في السماء، وليسوا في أهل السماء؟ فالمعني ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء بمعجز.

وقال أبو إسحق: معناه، والله أعلم، ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا لو كنتم في السماء..

وقال الأخفش: معناه ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا في السماء أي لا تعجزوننا هرباً في الأرض ولا في السماء.

قال الأزهري: وقول الفراء أشهر في المعني ولو كان قال: ولا أنتم لو كنتم في السماء بمعجزين لكان جائزاً ؛ ومعني الإعجاز الفَوْت والسَّبْقُ. ويقال أعجزني فلان أي فاتني، ومنه قول الأعشي: فذاك ولم يعجز من الموت ربه... ولكن أتاه الموت لا يتأبق

انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص ٢٨١٧.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٣ و٢٤ . ويشير صاحب إعجاز القرآن إلي ما في هاتين الآيتين من معاني خفية بقوله:" وعندما نتأمل نظم هاتين الآيتين نجد عجبا، فقد بالغ في اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة: لن تكون ولن تقع، فقال لهم: لن تفعلوا، أي هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة . وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقودا، ثم قرنهم الى الحجارة، ثم سماهم كافرين، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت . ولكن الرماد غير النار.

انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٧٠.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٨٦١.

(٦) الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار . جـ ١، ص ١٩٣. الطبعة الثالثة، دار المنار، القاهرة، ١٣٦٧هـ.

(٧) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن . ص ١٩٥، تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٣.

وقد أشار الباقلاني إلي الوجوه والمعاني التي يشتمل عليها نظم القرآن وتأليفه وبلاغته فذكرها في عشرة وجوه: المعني الأول: ما يرجع إلي جملته.

المعنـي الـثاني: كـون كـلام العـرب غير مشتمل علي فصاحة القرآن وغرابته ولطيف معانيه، وغزير فوائده، وما إلي ذلك.

المعني الثالث: عدم التفاوت والتباين في عجيب نظم القرآن، وبديع تأليفه

المعنـي الرابع: كون كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً ظاهراً في الفصل والوصل والعلو والنزول وغير ذلك.

المعنـي الخامس: كون نظم القرآن – من حيث البلاغة خارجاً عن عادة كلام الثقلين . ودفع ما قد يرد علي ذلك

المعنـي السادس: اشتمال القرآن علي جميع أنواع الخطاب عند العرب، مع تجاوزه حدود المعتاد بينهم.

المعنـي السابع: تضمن القرآن ما يمتنع عن البشر من المعاني في أصل وضع الأحكام والقواعد والاحتجاج في العقائد والردّ علي المعاني.

المعني الثامن: كون الكلمة من القرآن يتمثل بها خاصة في تضاعيف كلام كثير.

المعنـي التاسع: كون الحروف التي بني عليها كلام العرب: تسعة وعشرين حرفاً . مع أن عدد سـور القـرآن – المفتتحة بذكـر الحـروف: ثمان وعشرون سورة، وجملة الحروف المذكورة في أوائل السور أربعة عشر حرفاً.

المعنـي العـاشر: سـهولة سبُل القـرآن، وخروجه عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وبعده عن التصنّع والتكلّف، وقربه إلي الفهم.

انظر: المرجع السابق، ص ٣٥ – ٤٧.

(٨) أبـو يعقـوب يوسـف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٢٤٢ – ٢٤٣، الطبعة الأولي . مطبعة مصطفي البابي الحلبي، وأولاده بمصر، سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

(٩) الإمـام عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص ٤٢، صحح أصله الاستاذ محمـد عـبده. تـصحيح وتعليق وطـبع الـسيد محمد رشيد رضا . ط٦، مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده. القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

(١٠) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٥.

(١١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ٦٥- ٦٦.

(١٢) عـبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين . ص ٨٧-٨٨ دار الفكر العربي ط١ ، القاهرة، ١٩٧٤

(١٣) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، جـ٢، ص ١١٦.

(١٤) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٨٩-٩١.

(١٥) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ٦٧.

(١٦) د. أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٩، دار نهضة مصر. القاهرة، بدون تاريخ.

(١٧) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ١٩٧-١٩٨.

(١٨) انظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣٦.

(١٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٦٧.

(٢٠) لقد جاءت آيات الأقصوصة كلها علي وزن يكاد يكون واحداً، أشبه بشطر البيت من الشعر، وجاءت الفواصل كلها علي صورة واحدة، أشبه بالقافية في الشعر، حرف الروي فيها هو الراء مسبوقة بحرفين متحركين قبلها.

(٢١) عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٤٠٤.

(٢٢) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٦٧.

(٢٣) المرجع السابق: ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢٤) المرجع السابق: ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢٥) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ١٦٧.

(٢٦) المرجع السابق: ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢٧) محمد بن قيم الجوزية: التفسير القيم، ص ٣١٤ - ٣١٥، مصر، سنة ١٩٤٩، وانظر: د. التهامي نفرة. سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٦ - ٤٩٨.

(٢٨) د. محمد إبراهيم. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ط١ . ص ١١ .الرسالة. القاهرة ١٩٨٨.

(٢٩) المرجع نفسه. ص ١١-١٢.

(٣٠) عباس محمود العقاد. اللغة الشاعرة. مكتبة غريب. ص ٧٣. القاهرة بدون تاريخ.

(٣١) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٣٨-٣٩.

(٣٢) د. تمام حسان. البيان في روائع القرآن. الجزء الأول. ص ٢٠٦ مكتبة الأسرة. القاهرة ٢٠٠٢.

(٣٣) ابن منظور: لسان العرب. جـ٣. ص ١٧٧٤ مادة (رود).

(٣٤) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. ط١ ص ٦٦. المطبعة المصرية - ١٣٤٧هـ.

(٣٥) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٤٤-٤٨.

(٣٦) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن. الجزء الأول. ص ٢١٢- ٢١٤.

(٣٧) الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب): البيان والتبيين ص ٥١. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ١٩٦٨.

(٣٨) د. محمد إبراهيم شادي. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم. ص ٥٢ - ٥٣.

(٣٩) المرجع السابق. ص ٥٩.

(٤٠) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن. جـ١. ص ٢٠٨.

الخاتمـــة

لا شـك أن القصص إحدى الأساليب الرسالية التي تضمّنها القرآن الكريم من أجل الوصـول إلى عقـل الإنسان وشعوره، حتى يؤمن عن اقتناع بالفكرة- الحق- التـي تـرتبط بـالله وبالطـريق المـستقيم الذي يصل بالإنسان إلى لبّ الإيمان بالله عزّ وجـلّ. وربـما أن هـذا القـصص بعض القرآن فيثبت لها ما يثبت لجميعه من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز في وحدة فنية رائعة، لذا كان – وما يزال- القصص القرآني أدب فني متكامل لأنه من عند الله سبحانه وتعالي. وهو الأمـر الـذي سبق أن أثبتناه في ثنايا البحث وتمكنّا بعده من أن نخرج ببعض النتائج منها:-

أولاً: أثبت البحث أن العرب في جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتمتعون بذوق أدبي راق يدل علي ذلك مقدار ما بلغته هذه الأمة العربية حينذاك من الفصاحة والبلاغة ويكفـي دلـيلاً عـلي فـصاحتهم وبلاغـتهم مـن أنهم استوعبوا فهم القرآن الكريم ووعوه على الرغم من أسلوبه الرفيع المعجز.

ثانـياً: إن عـناصر القـصة قـد لا تجـتمع كلهـا في كل قصة، وإنما لكل عمل فني ظـروفه التـي تخضع لظروف المؤلف، وتصرّفه فيما يقصّ من أحداث وشخصيات، وكـيف يـتدخل فنـياً في عرضـها، مـع الأخذ في الاعتبار أن هذه العناصر تحتاج إلى مـواهب فنـية حتـى تحـسن الإفـادة مـنها واسـتخدام ما هو ضروري في بناء حبكة القـصة، فأحـياناً يلعـب أحـد العناصر القصصية دوراً رئيسًا في قصة ما، بينما هناك قـصة أخـري قد تخلو منه تماماً دون أن يمسّ هذا – في شيء- روعة القصة وتماسك بنائها الفني.

ثالثاً: إن الإيحاءات التي يتضمنها القصص القرآني، لا يمكن استيعابها جملة، فالنصوص القرآنية تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة إليه، ويبقي لها رصيدها المذخور تتفتح به علي القلوب، في شتى المواقف علي قدر مقسوم . فالقرآن الكريم يتمثل في قصصه الصورة الأدبية الكاملة المتكاملة، التي يجد فيها كل ذوق ما يلائمه، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها، ويستجيب لها، حسبما تعينه ملكاته ومداركه... والله سبحانه وتعالى لا يريد للعقل أن يتبلّد فيعطيه كل شيء يلغي الفكر، ولكنه يريد للذهن أن ينشط وأن يفكر ويتدبر.

رابعاً: في القرآن الكريم أنباء لا تبلغ حدّ القصص خلافًا لما توّهمه بعض الباحثين والقرآن لم يسمّها قصصاً لا لأنها ليست أحداثاً ماضية، ولا لخلوّها عن تتبّع الآثار الماضية فقط .. ولكن لأنه ليس فيها إمداد في التصوير فهي في حدّ ذاتها لا تصلح للتسمية بالقصة لعدم انطباق العبرة ووضوح الرؤية للغرض القصصي الأصيل.

خامساً: إن القصص القرآني أحداث تاريخية واقعية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع هذا فقد اشتمل علي ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه علي الحقائق المطلقة – الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً.

سادساً: إن القرآن الكريم لم يقتصر علي عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوي الخير والشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات المؤدية إلى الهداية والإيمان والاستفادة من الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بها لتلك الأحداث من قوة مفروضة علي النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً ويقظة وإحساساً.

سابعاً: إن وجود المرأة في القصص القرآني أو عدم وجودها، ليس له وزن في حساب هذا القصص، إلا من حيث تقرير الواقع، وما يقضي به منطق الحدث الذي

تصوّره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية، التي تلتمس منها العبرة والموعظة أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقي في الحدث، ولم يكن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكان في القصة القرآنية بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصصاً من واقع الحياة الماضية ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدها على النحو الذي كان من قبل، وعلى ما كان لها من موقف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية .. وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثالاً لحبّ وهوى المرأة وعاطفتها، إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرة لأولي الألباب.

ثامناً: إن القصص القرآني دروس في العقيدة، ودروس في الوحدانية المطلقة، وإن كان ثوبه ثوب القصة، وفيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب، فإنما كل ذلك لخدمة العقيدة والإيمان بالألوهية الواحدة.

تاسعاً: إن عرض الشخصية الواحدة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم لا يُعدّ تكراراً ولا تناقضاً، وإنما هو - الاستجابة للأحداث والمواقف والغاية من القصة، لأن الشخصية في القصة القرآنية ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته، وإلا لجمعت كل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة، وإلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد سواء تطلبها المعرض كاملة أم لم يتطلبها .. ولم يسِر القرآن هذا المسار في قصصه ولكنه يعرض للشخصية مع حدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدّم الشخص متفاعلاً بذلك الحدث لا غير، لتري العظة والعبرة من خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحدث، ثم تنتهي المشاهد المصوّرة، وتطوي القصة نفسها مع حدث آخر جاءته حلقة أخرى - أو قصة أخرى - ذات مضمون جديد، ون تراءت تكراراً لما سبق في صورة أخري.

عاشراً: إن القصص التاريخية في القرآن الكريم ليست هدفًا في حدّ ذاتها، وإنما تهدف إلى إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل والبحث باستمرار والهدف هنا

عمـلي علمـي وتـربوي أيـضاً، فالقـرآن يصرّح في وضوح أن ثمة قوة في الحق، وأن الفـشل يحيق بالباطل في النهاية، فما يناله الإنسان، فرداً وجماعة، يكون نتيجة طبيعية للـدور التاريخـي الـذي مارسه، ومن ناحية أخري، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخـي لا يحدث فجأة، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغـير تاريخـي كبير بعد فترة زمانية طويلة. وهذا ما لم يتوفر في قصص عديدة وردت في التوراة. ومن هنا يمكن القول إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قـصص القرآن الكريم، فبُعد الحادثة أو قربها في الزمان والمكان لا يؤثر فيها تحمل من عظة وعبرة.

الحـادي عـشر: مـع أن القـصص القـرآني ذات هـدف ديـني بحـت، حيث يأتي للمـوعظة والتربـية والتوجـيه إلا أنـه يُعنـى مـع ذلـك بكل مطالب الفن القصصي الخالص.

المصادر والمراجع

- **المصادر:**

القرآن الكريم

- **المراجع:**

١- إبـراهيم عوضـين: البيان القصصي في القرآن الكريم . مطبعة السعادة . الطبعة الأولي . القاهرة. سنة ١٩٧٧ .

٢- ابـن حـزم الظاهـري الأندلـسي: الفـصل في الملـل والأهـواء والنحل. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . القاهرة . سنة ١٣٨٤هـ.

٣- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن. كتاب الشعب. القاهرة بدون تاريخ.

٤- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف. القاهرة . سنة ١٩٦٣ .

٥- أبـو سـليمان محمد الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام: القاهرة بدون تاريخ.

٦- أبـو هلال العسكري: الفروق اللغوية. ضبطه وحققه حسام الدين القدسي دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان. بدون تاريخ.

٧- ــ: الصناعتين. الطبعة الأولي . القاهرة . بدون تاريخ.

٨- أبو يعقوب أبو بكر محمد علي السكاكي: مفتاح العلوم . الطبعة الأولي . مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

٩- أحمـد أحمـد بـدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة . بدون تاريخ.

١٠- أحمد أمين: ضحي الإسلام. مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٣٤م.
١١- أحمد عز الدين عبد الله خلف الله: يوسف بن يعقوب عليهما السلام. الطبعة الأولي. مطبعة السعادة . القاهرة . سنة ١٩٧٨م
١٢- إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن . مكتبة دار التراث القاهرة. بدون تاريخ.
١٣- أنور الجندي: خصائص الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني بيروت. بدون تاريخ.
١٤- التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن . تونس . سنة ١٩٧٤.
١٥- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن . جـ٢. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثالثة- دار التراث . القاهرة . سنة ١٩٨٥م.
١٦- السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة . سنة ١٩٨٤م.
١٧- السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن. دار الكتاب اللبناني. الطبعة الأولي . بيروت ١٩٧٢م.
١٨- الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة. دار المعارف . الطبعة الرابعة . القاهرة. سنة ١٩٨٥م.
١٩- القاضي أبو الحسن عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق أمين الخولي، دار الكتب المصرية. القاهرة. ١٩٦٠.
٢٠- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة دار التراث . الطبعة الثالثة. القاهرة . بدون تاريخ.
٢١- بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن. الطبعة الثانية. دار الشروق. القاهرة. سنة ١٩٧٦م.

٢٢- حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . الكتاب الرابع. القاهرة. سنة ١٩٧٥م.
٢٣- درويش الجندي: النظم القرآني في كشاف الزمخشري . طبعة نهضة مصر. سنة ١٩٦٩م.
٢٤- رشاد رشدي: فن القصة القصيرة. الطبعة الأولي – مكتبة الأنجلو . القاهرة. سنة ١٩٥٩م.
٢٥- سعد الدين التفتزاني: تهذيب المنطق. مصر . سنة ١٣١٥هـ.
٢٦- سيد قطب: في ظلال القرآن . دار الشروق: الطبعة الثانية عشر . القاهرة. سنة ١٩٨٦م.
٢٧- ـــــ: التصوير الفني في القرآن . دار المعارف . الطبعة الثامنة . القاهرة . سنة ١٩٧٥.
٢٨- ـــــ: النقد الأدبي. أصوله ومناهجه . دار الفكر العربي . القاهرة. بدون تاريخ.
٢٩- شوقي عبد الحكيم: أساطير وفولكلور العالم العربي. روز اليوسف. القاهرة. بدون تاريخ.
٣٠- صادق إبراهيم عرجون: الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام. بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي . مطبعة الإرشاد. القاهرة . سنة ١٩٣٦م.
٣١- عباس محمود العقاد: جحا الضاحك . دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
٣٢- ـــــ: المرأة في القرآن. دار نهضة مصر. القاهرة . بدون تاريخ.
٣٣- ـــــ: الإنسان في القرآن الكريم. دار الهلال . القاهرة. سنة. ١٩٧١م.
٣٤- عبد الحليم محمود: في رحاب الأنبياء والرسل. كتاب اليوم. العدد ٢٩٣. القاهرة. سنة ١٩٨٩م.
٣٥- عبد الرازق أحمد قنديل: الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي. مركز بحوث الشرق الأوسط. دار التراث . القاهرة . سنة ١٩٨٤م.

٣٦- عبد الظاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. صحح أصله الأستاذ محمد عبده . تصحيح وتعليق وطبع السيد محمد رشيد رضا. الطبعة السادسة. مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده. القاهرة . سنة ١٩٦٠م.

٣٧- عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. دار الفكر العربي. القاهرة. سنة ١٩٦٥م.

٣٨- ـــــ: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام. دار الفكر العربي . القاهرة. سنة ١٩٧٤م.

٣٩- ـــــ: الإعجاز في دراسات السابقين .دار الفكر العربي. الطبعة الأولي. القاهرة . سنة ١٩٧٤م.

٤٠- عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم. الطبعة الأولي. دار مصر للطباعة. القاهرة. سنة ١٩٥٦م.

٤١- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء. مطبعة مصر . الطبعة الثالثة. القاهرة . سنة ١٩٥٣م.

٤٢- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي. دار المعارف . القاهرة. سنة ١٩٨٤م.

٤٣- علي النجدي ناصف: القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري. دار نهضة مصر . القاهرة. بدون تاريخ.

٤٤- علي اليمني دردير: أسرار الترادف في القرآن الكريم. دار ابن حنظل القاهرة. سنة ١٩٨٥م.

٤٥- علي شلش: في عالم القصة . الطبعة الأولي. مطبعة دار الشعب . القاهرة . سنة ١٩٨٢م.

٤٦- علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام .دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.

٤٧- ـــــ: المرأة في الإسلام. دار نهضة مصر . الطبعة الثانية. القاهرة. سنة ١٩٧٩م.

٤٨- فاطمة الزهراء: العناصر الرمزية في القصة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. سنة ١٩٨٤م.

٤٩- فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني. منشأة دار المعارف. الإسكندرية. سنة ١٩٧٦م.

٥٠- فتحي رضوان: القصة القرآنية. كتاب الهلال. العدد ٣٣٢.القاهرة. سنة ١٩٧٨م.

٥١- فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. الطبعة الأولي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة . سنة ١٩٨٠م.

٥٢- فؤاد علي رضا: من علوم القرآن. الطبعة الثانية . لبنان. سنة ١٩٨٣م.

٥٣- قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ. قراءة في التراث التاريخي العربي. الطبعة الثانية. دار المعارف القاهرة. سنة ١٩٨٥م.

٥٤- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر . دمشق . سنة ١٩٨٥م.

٥٥- محمد أبو الأنوار: من قضايا الأدب الجاهلي. مكتبة الشباب. القاهرة . سنة ١٩٧٩م.

٥٦- محمد أحمد العزب: عن اللغة والأدب والنقد. رؤية تاريخية ورؤية فنية . الطبعة الأولي. دار المعارف. القاهرة. سنة ١٩٨٠م.

٥٧- محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم. إعداد: أحمد عبد السلام الكرداني.دار الكتب الحديثة. القاهرة . سنة ١٩٧٨م.

٥٨- محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم. مكتبة الأنجلو. الطبعة الثالثة. القاهرة . سنة ١٩٧٢م.

٥٩- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود . مصر. سنة ١٩٥٥م.

٦٠- محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن . الطبعة الثالثة. المؤسسة الجامعية. بيروت. سنة ١٩٧٨م.
٦١- محمد حسين هيكل: ثورة الأدب. دار المعارف. القاهرة. سنة ١٩٧٨م.
٦٢- محمد خليفة حسن: علاقة الإسلام باليهودية. دار الثقافة. القاهرة. سنة ١٩٨٨م.
٦٣- محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار. الطبعة السادسة. دار المنار . القاهرة. سنة ١٣٦٧هـ.
٦٤- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
٦٥- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر. دار المعارف . مصر. سنة ١٩٧٠م.
٦٦- محمد قطب: منهج الفن الإسلامي. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الرابعة . سنة ١٩٨٠م.
٦٧- محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن . كتاب اليوم. العدد ١٨٧ . القاهرة. سنة ١٩٨١م.
٦٨- محمد مندور: الأدب وفنونه. دار نهضة مصر. القاهرة. بدون تاريخ.
٦٩- محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح. المطبعة النموذجية . القاهرة. بدون تاريخ.
٧٠- مصري عبد الحميد حنورة: الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة . سنة١٩٧٥م.
٧١- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الفكر العربي. القاهرة. بدون تاريخ.
٧٢- مصطفى علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث . دار المعارف. القاهرة . سنة ١٩٨٢م.

• دوائر المعارف والمعاجم العربية:

١- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب. جـ٦ . دار المعارف القاهرة. بدون تاريخ.

٢- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . دار الفكر. الطبعة الثانية. القاهرة. سنة ١٩٨١ .

• المجلات والدوريات العلمية العربية:

١- صبري حافظ: الخصائص البنائية للأقصوصة. مجلة فصول. المجلد الثاني. العدد السابع. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة . سنة ١٩٨٢ .

٢- عبد الصبور شاهين: الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية. مجلة منبر الإسلام. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. العدد ١٠ . السنة ٤٥ . سنة ١٩٨٧م.

٣- عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ. مجلة عالم الفكر. المجلد الثاني عشر . القرآن والسيرة النبوية. الكويت . سنة ١٩٨٢م.

٤- قاسم عبده قاسم: تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية. مجلة عالم الفكر. المجلد العشرون. الكويت. سنة ١٩٨٩م.

٥- محمد حسن عبد الله: الحبّ في التراث العربي. سلسلة عالم المعرفة. العدد (٣٦). الكويت. سنة ١٩٨٠م.

٦- محمود محمد عمارة: الدعوة من خلال القصة القرآنية . مجلة منبر الإسلام. العدد (١١). المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة . سنة ١٩٨٨م.

الفهرســـت

الفصل الأول

أنواع القصة في القرآن الكريم: عناصرها وأغراضها

الفصل الثاني

الخصائص اللغوية والأسلوبية

الفصل الثالث

القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم

الفصل الرابع

الإعجاز البلاغي والبياني في قصص القرآن الكريم